رصاصة الرحمة

اللحظات الأخيرة فى حياة الجواسيس



فريد الفالوجى



عبر الأزمنة المختلفة ، قاست الشعوب من سهام الخيانة التى يصوبها فئة ضالة من أبنائها لم يرعوا لأهلهم عهدا ولا ذمة ، فئة اشتروا الضلالة بالهدى ، فأوقعوا الهلاك بذويهم ، وأذاقوا بلادهم مرارات الغدر ، فحقت عليهم اللعنة وباءوا بالاحتقار والهوان .

إن مصلحة الوطن والدفاع عن أراضيه أرفع من أن تقارن بشىء ، وهى توجب على كل مواطن أن يضحى بالغالى والنفيس ، وأن يبذل الروح والنفس دون تحفظات ، وبلا أدنى تردد .

وإذا كانت الشعوب قد اعتادت أن تفخر بأبنائها الذين قدموا أرواحهم فداء للوطن وأن تخلدهم على صفحات مشرقة من صفحات التاريخ ، فإن التاريخ يأبى إلا أن يفضح أولئك الخونة الذين باعوا وطنهم للأعداء من أجل نزوة أو متعة استودعها الشيطان صدورهم ، فقست قلوبهم ، وتحجرت أحاسيس الولاء والانتماء لديهم .

وفى هذا الكتاب يقدم المؤلف حكايات عن مجموعة من الجواسيس من جنسيات مختلفة وفى ظروف متفاوتة ، جمعتهم فقط أهدافهم الدنيئة التى أدت إلى المصير المشئوم الذى ينتظر كل من تسوّل له نفسه أن يخوض غمار هذه التجربة الحقيرة ، وعندئذ لايلومون إلا أنفسهم ، فقد خلّفوا وراءهم الخزى والعار لأهلهم وأقاربهم وكل من يمت إليهم بصلة !!

ويبين المؤلف فى كتابه كيف أتت نهاية هؤلاء وانفضح أمرهم ، وكيف نفذ فيهم حكم الإعدام الذى هو نهاية كل خائن عنيد ..

الناشر





رصاصة الرحمة .. !

رصاصة الرحمة

اللحظات الأخيرة فى حياة الجواسيس

فريد الفالوجى



رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

حسام حسين

مستشار النشر

أحمد جمال الدين

رقم الإيداع

٢٠٠٤ / ١٧٥٤٣

الترقيم الدولى

٩٧٧ - ٦٠٨١ - ٩٣ - ٢

الطبعة الثالثة

الجمع والإخراج الفنى

.مكتبة ابن سينا.

ت : ٦٣٧٩٨٦٣ ف : ٦٣٨٠٤٨٣

مطابع العبور الحديثة

الكتاب : رصاصة الرحمة

المؤلف : فريد الفالوجى

الغلاف : للفنان إلهامى عزت

الناشر : أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة

E-mail:atlas@innovations-co.com

تليفون : ٣٠٢٧٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٤٦٥٨٥٠

فاكس : ٣٠٢٨٣٢٨

* * * *

إهداء

إلى ذكرى خالى الحبيب

الأستاذ / رفعت حميدة ..

رحـمـة الله علـيه

الذى علمنى صغيرًا .. وصاحبنى شـابًا يافعًا ..
ثـم صادقنى كبيرًا . فكان نعم الخـال والصديـق
والأخ والأب ، وتمثلـت لى ابتسـامته العذبـة
النقيـة وأنـا أخـطّ أولى حـروف كتـابى هـذا ..
عندمـا كنـا نسـهر سـويًا نلعـب الشـطرنـج ..
وينطلق فـى وصـف بطولاتـه أثنـاء معركـة
الدبابات فى حرب أكتوبر ... ويهزمنى ... !!

فريد الفالوجى

مقدمة

بعد إطلاق الرصاص على قلب المحكوم عليه بالإعدام ، يتقدم قائد فريق التنفيذ ويطلق رصاص على رأسه بغرض تأكيد حتمية الوفاة ، وهى التى تعرف باسم: « رصاص الرحمة »!!

ينص القانون المصرى إلى أن الإعدام للمدنيين يكون بالشنق . أما بالنسبة للعسكريين ، فقانون الأحكام العسكرية ينص على أن يكون التنفيذ رميًا بالرصاص. ولعل الحكمة من ذلك ، هى طبيعة العسكرية ، وما تقتضيه وتتطلبه فى كثير من الأحيان من سرعة فى التنفيذ ، حيث يتم ذلك فى ميادين « رمى النار » فى أى من المناطق العسكرية[1] .

ويقوم بتنفيذ الحكم فريق مؤلف من اثنى عشر فردًا ، ما بين صف ضابط وجندى من الرماة المهرة ، حيث تعمر ثلثا بنادق الفريق بطلقة واحدة لكل بندقية، بينما تمر باقى البنادق بطلقات « فشنك » ، وتخلط البنادق بحيث لا يتم التمييز بينها ، حتى لا يشعر أى من الرماة أنه كان السبب المباشر لوفاة المحكوم عليه . أما قائد فريق التنفيذ فتعمر طبنجته بالكامل ، بالرغم من أنه لن يطلق منها سوى رصاصة واحدة فقط، أو رصاصتين فى حالات خاصة جدا، على رأس المحكوم عليه .

وإذا كان المحكوم عليه :بالشنق يقاد إلى غرفة الإعدام ، وبحضور وكيل النائب العام ومأمور السجن وطبيب ورجل دين ، حيث يتلى عليه منطوق الحكم الصادر بإعدامه على مسمع من الحاضرين ، ويجاب لطلباته بما لا يؤخر ساعة تنفيذ الحكم ، ثم تقيد يديه من الخلف كما تقيد ساقاه أيضا ويوقف فوق باب الهوة المغلق بعد ما يغمى بكيس أسود حتى لا يرى كيفية تنفيذ العقوبة[2] ، ثم يوضع الحبل حول عنقه ويفتح « عشماوى » عندئذ ذراعا حديدية لينفتح الباب إلى أسفل ، فتنفتح معه طاقة جهنم لتكون نهاية المحكوم عليه ، بعد أن تظل جثته معلقة لمدة عشرين دقيقة ، إلا أن المحكوم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص يمر بظروف أسوأ ، وبلحظات رعب رهيبة .

كيف ذلك .. ؟

---

(١) أسامة توفيق عبد الهادى « أشهر حوادث الإعدام على مر التاريخ » مكتبة التراث الإسلامي . القاهرة ١٩٩٤ .

(٢) وحتى لا يصاب « عشماوى » نفسه بالفزع عندما لا تغيب عن مخيلته نظرات الرعب فى عينى المحكوم عليه قبل وأثناء وبعد التنفيذ ، فذاكراته دائما ستسعيد المشهد الذى قد يصيبه بالشعور بالذنب ، وأحيانا بالجنون بعد رحلة طويلة من الاكتئاب والألم النفسى المتواصل .

فى الصباح الباكر يقاد المحكوم عليه أيضا إلى ساحة التنفيذ ، وهى فى العادة ساحة السجن الحربى بالجبل الأحمر بمدينة نصر، حيث يرى مشاهد الاستعداد لإعدامه فى صور شتى ، منها الضباط بملابسهم العسكرية ، (رئيس هيئة التنظيم والإدارة للقوات المسلحة ، وقائد المنطقة العسكرية التى يتم بدائرتها التنفيذ ، والمدعى العام العسكرى ، ومأمور السجن ، وعدد نسبى من الضباط والجنود حسب تحديد الجهات المختصة بغرض تحقيق الردع العام بمثل هذه العلانية » . هناك أيضا رجل الدين ، الذى يكون بلباسه المميز حائط طمأنينة مؤقت للمحكوم عليه .

كما يشاهد المحكوم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص ساحة التنفيذ، وقد خططت بشكل معين ، حيث أقيم عمود للتنفيذ وضعت خلفه كساتر أكياس من الرمل ، وعلى مسافة عشرين مترًا أقيم ساتر آخر من أكياس الرمل أصطف خلفه أفراد فريق التنفيذ ببنادقهم ، حيث سيتم الرمى من الوضع راقدًا .

يتلى أيضا على المحكوم عليه منطوق الحكم وحيثياته ، ويجاب إلى طلبه بما لا يؤخر ساعة التنفيذ ، ويقترب منه رجل الدين ليتحدث معه قليلاً : (جئت لأقف معك ساعة لأقربك فيها إلى الله تعالى ، ولكى أقول لك إن الموت حق على كل إنسان ، وأن القصاص حق ، فتوجه إلى الله تعالى بالغفران والتوبة) . وبعد ما يردد المحكوم عليه الشهادة يتم ربطه جيدا فى عمود التنفيذ، ثم توضع عصابة سوداء على عينيه ، وكذا قطعة من القماش الأبيض بمقاس ٨ × ٦ سنتيمتر على مكان القلب كعلامة للتنشين . عند ذلك يصدر قائد الفريق الأمر بالاستعداد ، ثم أمرًا آخر بشد الأجزاء . وبعد لحظات صمت لا تتجاوز ثوان معدودة ، يصيح أمرًا بالضرب ، فتنطلق الرصاصات دفعة واحدة ، وتسقط رأس المحكوم عليه على صدره.

عند ذلك يتوجه طبيب السجن إلى المحكوم عليه لتقرير وفاته من عدمه . وفى حالة عدم وفاته يقوم قائد الفريق بسحب مسدسه فى الحال ، وإطلاق « رصاص الرحمة » على رأس المذنب لتأكيد وفاته ، والتعجيل بموته .

هذا ما يتم فى مصر بخصوص تنفيذ أحكام الإعدام رميًا بالرصاص ، وأشهر من أعدموا كان النقيب طيار عباس حلمى الذى هرب بطائرته إلى إسرائيل فأعيد إلى القاهرة فى صندوق من الأرجنتين ، كذلك الطيار فؤاد محرم ، والرقيب متطوع مرتضى التهامى ، ومحمد حسن ، وكلهم عسكريون سقطوا فى جُب الخيانة العظمى.

أما المقدم فاروق الفقى الذى تجسس لصالح إسرائيل ، فهو العسكرى المصرى

الوحيد الذى أعدم رميًا بالرصاص بطريقة مختلفة ، وبعيدًا عن طقوس تنفيذ الإعدام المعروفة ، حيث أطلق عليه قائده الرصاص بمسدسه ليعدمه بنفسه ، بموافقة شخصية « استثنائية »[1] من القائد الأعلى للقوات المسلحة ، محمد أنور السادات ، دون التقيد بأى من الرسميات المتبعة فى الإعدامات العسكرية ، أو حتى بالالتزام بوضع العصابة السوداء التى تغطى عينى المحكوم عليه. وكانت قصة إعدام فاروق الفقى إحدى القصص العجيبة التى لم تتكرر من قبل أو بعد ، وكانت لها ظروفها الخاصة التى ستأتى شروحها فى موضعها بالكتاب .

هذا .. ولم ينفذ فى مصر على الإطلاق ، أية أحكام بالإعدام رميًا بالرصاص ضد نساء خائنات ، سواء كن مصريات أو أجنبيات ، فى حين أن العديد من الدول الأجنبية ، نفذت إعدامات بالرصاص ضد نساء اتهمن بالفساد حتى سنوات قليلة خلت[٢] .

وفى هذا الكتاب ، نتعرض إن شاء الله ، لأشهر من تم إعدامهم رميًا بالرصاص فى مصر ، بعد إدانتهم بالتعامل مع العدو الصهيونى ، إضافة إلى حالة واحدة فى لبنان ، تعتبر الأشهر فى تاريخ ذلك القطر العربى الشقيق منذ استقلاله .

حرصنا أيضا على أن يشتمل الكتاب على إعدامات متنوعة رميًا بالرصاص فى العراق ، والمملكة المغربية ، وإسرائيل والعديد من الدول الأوروبية والأرجنتين وإيران ، وهى تمثل إعدامات لجواسيس، ولحكام طغاة وجب إعدامهم، وذلك بعد محاكمات لم تستغرق سوى لحظات معدودة ، أحيانا ، لكنها بلا شك كانت لحظات فاصلة فى عمر التاريخ.

فريد الفالوجى

القاهرة - مدينة نصر

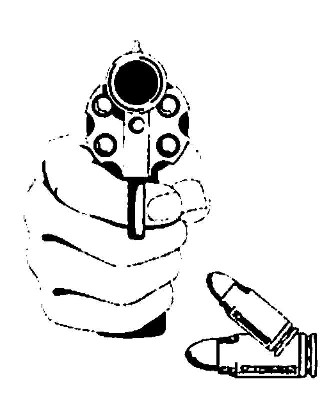
---

(١) واكبت عملية إعدام فاروق الفقى ظروفها الخاصة ، وتوقيتها الحساس جدًا قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣ حيث تم الإسراع فى التنفيذ لحاجة الجيش إلى القائد العسكرى الكبير ، الذى تردد وقتها ، أن السادات وافق على شرطه بأن يقوم بإعدام الفقى بنفسه، ليعود بعدها إلى صفوف الجيش.

(٢) فى ٢٥ ديسمبر ١٩٨٩ ، نفذ حكم بالإعدام رميًا بالرصاص فى الرئيس الرمانى السابق شاوشيكو وزوجته (إيلينا) بعد توجيه عدة تهم إليهما منها الفساد والإثراء والظلم واستغلال السلطة للفتك بالشعب . ويذكر أن الجيش بعد نجاح الانقلاب والإطاحة بحكم شاوشيكو طلب من الجنود التطوع للاشتراك فى فصيلة الإعدام فتطوع كل الجنود ، بينما كان المطلوب ثلاثة فقط تم اختيارهم « بالقرعة ».

الفصل الأول

فى مصر .. !!



يمثل فاروق الفقى ، وعباس حلمى ، وفؤاد محرك ، ومحمد حسن ، ومرتضى التهامى نموذجًا سيئًا لضعفا النفوس الذين عملوا ضد وطنهم لصالح العدو الصهيونى ، وكانوا جميعًا من العسكريين ! !

مــدخــل

عندما تــأكد لآيــة الله الخومينــى أثنــاء حــرب الخليــج الأولى ، بأن مصر بعثــت ببعــض عســكرييها إلى العــراق ، بغرض المعاونة فى استرداد الأرض العراقية التــى احتلتــها إيران ، أصدر الخومينى أوامره لقواتــه بالانسحاب قــائلاً إنه لن يحارب الجنود المصريين الذيــن قــال عنــهم رســول الله ﷺ أنهم خير أجناد الأرض .

لكن .. من بين خير أجناد الأرض هؤلاء ، ظهرت علــى فترات متفرقة حالات فرديــة لعسكريين مصريــين ، بــاعوا وطنهم وعروبتهم للعدو الصــهيونى ، تحــت إغــراءات المــال والنساء ، فــهتكوا ستر الجيــش وأســراره ، وحطمــوا أمنــه تحقيقًا لمصالحهم دون سواهم .

هؤلاء عندما سقطوا فى قبضة الأجهزة الأمنيــة المصريــة ، أخذتهم الصاعقة ، فمادت بهم الأرض ، وغامت الرؤى من حولهم ، وزلزلتهم المفاجأة التى بقيت تعض على أعصابهم حتى وهم يقتادون إلى العمود الخشبى فى ساحة تنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص .

فى تلك اللحظات المتخمــة بــالندم والفــزع، هنــاك مــن خارت قواه تمامًا فلم تقو قدماه على حملــه ، فسيق جــرًا إلى ساحة الإعدام وهو يغمغم بهذيان غير مفهوم ، وهنــاك من انخرس لسانه وضاعت منه كل كلمــات اللغــة مــا عــدا كلمة « لا » التى تخرج فى صراخ هســتيرى، سـرعان مــا

يخفت فى حشرجة إلى ما يشبه الهمس وحركة الشفاه. أيضًا منهم من غيبت اللحظة المرعبة عقله، ففقد قدرته على استيعاب أى شيء ، وفشل حتى فى تأدية مناسك الوضوء أو الصلاة أو ترديد الشهادتين ، حيث زاغت عيناه فى ذهول صامت وقد بال على نفسه أو تَبَرَّزَ بلا وعى .

تلك هى النهاية..

النهاية الطبيعية التى انتهوا إليها بإرادتهم..

وفى هذا الفصل من الكتاب، نتعرض فى تشريح دقيق لعدة نماذج من الخونة الذين تعاطوا الخيانة ضعفًا وجبنًا وخسة وحقارة ، يحفهم شعور الواثق المدرب المطمئن ، لكنهم كانوا فى الحقيقة أبعد بكثير عن الأمن والاستقرار النفسى ، فثمة شعور أقوى بالخوف والهلع يطغى على كل شيء فى أعماقهم، لكنهم، فى خداع للذات ، كانوا يمارسون فعل الخيانة ويفعلون كما يفعل اللص ، الذى يتسلق المواسير ليسرق وهو يدعو ربه ، أن يستره ، ويكلل مهمته بالنجاح . (!)

(١) الطيار المصرى الخائن

دفعه الحب للهرب بطائرته ..!!

أول طيار حربى عربى يهرب بطائرته إلى إسرائيل.. وهناك أجريت له عمليات تجميل غيرت ملامحه . لكن المخابرات المصرية خطفته ، وجاءت به فى صندوق من الأرجنتين ليعدم فى القاهرة .

لمـاذا الـمـيج ٢١ .. ؟

فى خمسينيات القرن الماضى ، كان الصراع على اشده بين القوتـين العظميـين ، الاتحاد السوفيتي وأمريكا ، من أجل التفوق العسكرى ، والسـيطرة علـى دول العالم الثالث ، ولم تكن هناك فرصـة ، ولـو ضئيلـة، لالتقـاط الأنفـاس داخـل أجهزة مخابرات البلدين .

كان هناك أيضًـا سباق محمـوم فـى تكنولوجيـا التسـلح ، لأجـل التفـوق ، والتميز ، والهيمنة . فالسوفيت يلعبون بأحلام دول الثـالث ، وتطلعاتـها نحـو الاستقلال والرخاء لشعوب عانت طويلاً من قيود الاستعمار والقهر والفقر والأميـة. أمـا الأمريكـان ، والغـرب مـن خلفـهم ، فكـانوا يحـاربون يشـتى السـبل المـد الشيوعى المطرد للحد من انتشاره ، خاصة فى منطقـة الشـرق الأوسـط ، منبـع البترول الغزير الذى بدونه ما قامت نهضة صناعية آمنة فى دول الغرب .

لذلك .. كان من المنطقي تبعًا للعبة التغلغل والمصالح ، أن يتحـول التنـافس بين هاتين القوتين ، إلى حرب خفية ، يديريـها رجـال أكفـاء أذكيـاء مـهرة ، لاستكشاف مواضع الضعف والقوة ، وصنع المستحيل لاختراق حجـب الأسـرار عند الخصم ، لتصل تلك الحرب إلى أوجها عـام ١٩٦٠ ، عندمـا وقـع حـادث مثير هو الأول من نوعه .

ففى الأول من مايو فى ذلك العام ، أسقط السوفيت طائرة تجسـس أمريكيـة من طراز U-2 ، التى حوت أحدث ما وصل إليه العلم وقتئـذ مـن ابتكـارات ، أهمها كاميرات غاية فـى التعقيـد تلتقـط الصـور علـى ارتفاعـات شـاهقة بدقـة متناهية، وبوضوح مذهل ، بينما تطير بسرعة ألف كيلو متر فى الساعة .

كان قائد الـ U-2[1]، النقيب فرانسيس جـارى بـورز ، مطمئـن للغايـة وهـو

---

(١) الطائرة U-2 مركبة غريبة المنظر . إذ تبدو كأنها جناح واحد طويل بدون جسم ، ولها محرك واحد فقط وضع فى الذيل ولكن مظهرها يخفى الكثير من إمكانياتها التى تفوق الوصف . فهى تطير على ارتفاعات شاهقة، ومزودة بأجهزة وكامـيرات غاية فى الدقة الـمـتناهـية . ابتكرها الـمهـندس الأمريكى =

يحلق فى أجواء الاتحاد السوفيتى ، حيث أكد لـه قادتـه أن لا الصواريـخ ، ولا المدفعية المضادة تستطيع أن تلحق بطائرته الأذى على هذا الارتفاع . لكـن وبالرغم من ذلك ، شملت أدوات الطيار إلى جانب مسدسه ، كبسولة صغيرة معبأة بالسم ، طُلب منه أن يتناولها عند اللزوم . لكن بورز لم يفكر بالانتحار وهو يقفز بالباراشوت بعد ما قُصفت طائرته ، ويعترف للسوفييت بأنـه[1] طـار فوق أجوائهم لمرات عديدة من قبل ، وكانت إحدى مهامه الأساسية الحصول على صور لمواقع الصواريخ ، والمطارات التـى ترابـض بـها طـائرات الميـج ٢١ بالذات (!!)

وكان السؤال :

= « كليرس جونسون ». وهى طائرة خفيفة جدًا ويمكن تفكيكها ووضعها فى صنـدوق شاحنة صغـيرة ، حيث جرى الاستغناء عن كل ما يزيد من وزنها

وكانت الطائرة ذات عجلتين فقط في المقدمة والخلف، كالدراجة الهوائيـة . وعند الإقلاع والهبوط لابد أن يتعلق رجلين مدربين جيدًا بالجناحين، لتثبيت عصي مع عجلات في الطرفـين، بطريقة شبه بهلوانية . وقد أعطيت الطائرة اسم Utility-2 في البداية واختصر إلى U-2 ،وطول جناحيها ٨٠ قدمًا . وبداية مـن نوفمبر ١٩٥٤ ظلت U-2 تتجسس على الاتحـاد السوفيتى دون أن تتمكـن الدفاعـات مـن إسقاطها . حتى طور السـوفيت أسلحتهم واسقطوا الطـائرة الأسـطورية فـى ١٩٦٠/٥/١ وحدثـت أزمـة دبلوماسية حرجة بين موسكو وواشنطن . وقال بعد ذلك قائد الطائرة النقيب « فرانسيس جارى بورز » الذى فضل الهبوط بالبراشوت على الانتحار بكبسولة السـم ، أنـه طـار محلقًا فـوق الاتحـاد السوفيتى عشرات المرات دون أن يتبادر إلى ذهنه لـمرة واحـدة أن هنـاك دفاعـات أو صواريـخ قـد تصيـب طائرتـه. واضطر الرئيس الأمريكى « دوايت أيزنهاور » إلى الاعتذار العلنى والمكتوب للسوفيت .

جدير بالذكر . أن حادث إسقاط الطائرة U-2 كان سببًا مباشرًا، لسعى أمريكا للحصول علـى الطـائرة السوفيتية الخرافة ـ ميج ٢١ ـ التى قيل أنها استطاعت التحليق لارتفـاع شـاهق ، لم تصـل إليـه طـائرة أمريكية أو أوروبية وقتها ، وأسـقطت U-2 بسـهولة . وبذلـك المخـابرات المركزيـة الأمريكيـة جـهودًا مضنية ، بالاشتراك مع الموساد ، من أجل تجنيد طيار عربى يقبل الهرب بطائرته الميج ٢١ لإسـرائيل . وبعد محاولات فاشلة مع ثلاثـة طيارين عراقيين ، جرى قتلهم على التوالى فى أمريكا وبغـداد وألمانيـا « الغربية »، نجحت الموساد فى أغسطس ١٩٦٦ فى الحصـول علـى الطـائرة، بواسطة الطيـار العراقـى الخائن « منير روفا »، الذى يعيش حتى الآن فى إسرائيل . (تفاصيل العملية جاءت بكتابنا « العمليـة 007 .. وهروب أول طائرة حربية عربية لإسرائيل .. » عن مكتبة مدبولى بالقاهرة ، طبعة ٢٠٠٣) .

(١) تمت مبادلة بورز بعد ذلك مع الجاسوس السوفيتيى فى واشنطن « رودلف إيفانوفيتش آبيل » وهو مـن أدهى عملاء الـ K.G.B. فى أمريكا على الإطلاق .

لـمــاذا الـمـيج ٢١ .. ؟

ولماذا لا تكون مثلاً طائرات السوخوى الهجومية SU-7B ..؟

أو طائرة سوخوى[1] الاعتراضية و SU-9 ، التى تعـرف باسـم Fishpot فـى دوائر حلف الأطلنطى ..؟

أو قاذفات توبولوف Tu-16 التى طار تشكيل منها يتكون من ٥٤ طائرة فوق موسكو يوم الطيران السوفييتى عام ١٩٥٩ ..؟

وفى الولايات المتحدة ، كان حادث إسقاط الطـائرة U-2 محـيرًا ، فالطـائرة بارتفاعها الشاهق كانت بعيدة عن صواريخ السوفييت الأرضيـة ، وبعيـدة أيضًـا عن مجال صواريخ طائراتهم الاعتراضية أو القاذفة ، ذات المـدى المحـدود فـى ذلك الوقت .

رحـــلة البحـــث

وبرغم تشكك الأمريكان فى قدرات السوفييت التسليحية ، خاصة الصواريخ أرض/جو ، ظنوا بأن الطائرة ميج ٢١ ـ المجهولة قدرةً بالنسبة لهـم ـ أدخلـت عليها تقنيات تكنولوجية معقدة ، فتفوقت بذلـك علـى طائراتـهم سـكاى هـوك Sky Hawk ، والفانتوم PHANTOM ، بل وعلى الطـائرة الفرنسـية مـيراج ٣ MIRAGE-III-C الجبارة .

وفى الوقت الذى تأزمت فيه العلاقات الدبلوماسـية بـين البلديـن ، خاصـة عندما أعلن الرئيس الأمريكى دوايت أيزنـهاور (١٩٥٣ – ١٩٦١)، أن الطـيران

---

(١) صمم الطائرة المهندس ميخائيلوف سوخوى ، وهو مخترع سوفييتى عبقرى ، ساعد من قبل فـى تصميـم الطائرة ANT-25 ، وكان له نصيب فى بناء الطائرة RODINA قبل الحرب العالميـة الثانيـة ، كمـا أن طائرته SU-2 استخدمت إبان الحرب. وفى ٢٤ يونية عام ١٩٥٦ ظهرت طـائرات سـوخوى ذات أجنحـة مائلة للخلف ، وأخرى مثلثة الجناح. وكان ذلـك فـوق مطـار توشـينو السـوفييتى ، وكلـها مـن تصميـم المـهندس سـوخوى الـذى كرمتـه الدولـة وأطلقت اسمـه علـى شـوارعها بسـائر أنحـاء المـدن فـى كـل الجمهوريات السوفيتية .

فوق الاتحاد السوفييتى هو من صميم السياسة الأمريكية ، بدأت الاستخبارات المركزية C.I.A تسعى جاهدة للتوصل إلى أسرار تلك الطائرة الخرافة - ميج ٢١ - مهما كلفها ذلك . وكان من صميم عمل الـ C.I.A أن تظل الولايات المتحدة فى الصدارة عسكريًا ، وسياسيًا ، واقتصاديًا ، وعلميًا . لكن التفوق السوفيتى فى مجال تكنولوجيا الطائرات الحربية المتطورة ، كان يشكل كابوسًا مزعجًا ليس للولايات المتحدة فحسب ، بل لدول حلف شمال الأطلسى (الناتو) ، ولإسرائيل أيضًا .

فبينما تمد أمريكا إسرائيل بأحدث مبتكراتها التسليحية ، لتكون لها اليد الطولى فى الشرق الأوسط زوّد السوفييت كل من مصر وسوريا والعراق بالطائرة ميج ٢١ ، فقلبت بذلك موازين القوى فى المنطقة ، وبات العرب يلوحون بقوتهم وسيطرتهم جويًا ، وبأن يدهم ستطول إسرائيل ، وتقذف بالإسرائيليين فى البحر .

هكذا تحولت منطقة الشرق الأوسط إلى حلبة صراع بين القوتين العظميين، واستعراض للقوة التسليحية بين الشرق والغرب ، حيث كانت هناك رغبة ملحة فى إسرائيل ، فى إهداء أمريكا إحدى طائرات الميج ٢١ ، التى يمكن اغتصابها من العرب بواسطة الإجبار ، أو الخطف من خلال تجنيد طيار عربى مغامر ، يقبل الهرب بطائرته الميج ٢١[1] إلى تل أبيب ، مقابل مليون دولار ، حتى تتكشف أمريكا أسرار الطائرة وقدراتها عن قرب .

ولذلك ..

كان هناك تنسيق مستمر بين الـ C.I.A وأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية ،

---

(١) مواصفات الميج ٢١ ، وأساليب وخطط الوساد للاستيلاء على الطائرة ، جاءت تفصيليا بكتابنا « العملية 007 - وهروب أول طائرة حربية لإسرائيل » ، وهناك إضافات أخرى جاءت بكتابنا «حراس الهيكل - عمليات الوساد الخارجية فى نصف قرن » ، الجزء الأول ص١٩١ : ٢٤٢ ، والجزء الثانى ص ٢٤٣ : ٣٠٠ ، عن دار أطلس بالقاهرة .

لجمع المعلومات عن الطيارين العرب فى الدول الثلاث ، وتسخير جواسيس الموساد فى البلاد العربية لمحاولة استقطاب أحدهم، لعل وعسى. وقد اعترف الجاسوس الصهيونى جان ليون توماس ، الأرمنى الذى يحمل الجنسية المصرية[1] وأعدم فى القاهرة عام ١٩٦١ ، أن الأسرائيليون أغروه بمكافأة ضخمة فى حالة تمكنه من تجنيد طيار مصرى، يوافق على الهرب بطائرته الميج ٢١ إلى إسرائيل ، وأن قائد سلاح الجو الإسرائيلى ـ عيزرا وايزمان ـ يلح فى الحصول على هذه الطائرة التى يرعب بها العرب إسرائيل ، لكنه ـ أى توماس ـ فشل فى العثور على طيار مصرى خائن .

وبعد إعدام توماس بأكثر من ثلاث سنوات ونصف ، وفى يونيو ١٩٦٤ ، صعق المجتمع الإسرائيلى ، وأصيب بالذهول الشارع العربى ، عندما هرب الطيار المصرى عباس محمود حلمى بطائرته إلى إسرائيل .

فكيف تم ذلك ..؟

ولماذا .. ؟

ومن هو ذلك الطيار الهارب ..؟

وهل تم تجنيده بواسطة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان) من وراء ظهر الموساد..؟

---

(١) فى ٢٥ اكتوبر ١٩٦٠ أصدرت محكمة أمن الدولة العليا ، التى تشكلت بالقرار الجمهورى رقم ٧١ لسنة ١٩٦٠ ، حكمها بإعدام ثلاثة من المصريين ، بينهم جان ليون توماس ، وبالأشغال الشاقة على آخرين ، عملوا لصالح المخابرات الإسرائيلية . وكانت جلسات المحاكمة الـ ٨٣ قد استغرقت ستة أشهر ، وبلغ عدد صفحات القضية ستة آلاف صفحة ، كما أدلى ٩٥ شاهدا بأقوالهم منهم الخبراء والفنيين . أما عدد المتهمين فى قضية التجسس التى عرفت باسم (شبكة توماس) فبلغ ١١ متهمًا مصريا ، و ٦ من الأجانب، ودافع عنهم ٣٣ محاميا . وفى إسرائيل تشكلت لجنة تحقيق ، لدراسة أسباب سقوط شبكة توماس ، التى كانت تمثل وقتذاك مصدرا حيويا لتدفق المعلومات الاستراتيجية لإسرائيل ، وأيضا ، الأمل الوحيد المتبقى لإسرائيل فى الحصول على الميج ٢١ من مصر .
تفاصيل العملية جاءت بكتابنا « جواسيس الموساد العرب ، أشهر ٢٥ جاسوسًا » .

ومن إذن أنجز هذه المهمة المثيرة دون أن يشعر به أحد .. ؟

فهل لعب ايسير هاريل[1] ورجاله دورًا حيويًا لإحراج مائير عاميت[2] ، وإزاحته ؟

أسئلة كثيرة كانت بحاجة إلى إجابات ، خاصة وأن الطيار المصرى لم يهرب إلى إسرائيل بطائرة ميج ٢١ ليقبض المليون دولار ، وإنما بطائرة تدريب سوفييتية قديمة (ياك ١٥) لا تساوى شيئًا .

الطيار التائه

لنرجع إلى الخلف قليلاً .. عندما ذهب النقيب طيار عباس حلمى إلى قاعدته الجوية فجأة متوترًا على غير عادته ، كان الوقت مساءً ونسمات ربيعية تسرى فترتعش أوراق الزهور بشرفته .. يسحب شهيقًا عميقًا وينظر إلى لا شيء فى الفضاء اللانهائى من حوله ، أغمض عينيه وأسند رأسه إلى ظهر المقعد ولم يكبح جماح دموعه ، فانزلقت دمعتان حارتان اضطربت لأجلهما عضلات وجهه ، ودلف إلى حجرته لينكمش فى سريره كطفل خائف ضعيف، سرعان ما علا نحيبه يشق أعماق الصمت ، يفيض لوعة فينتفض انهيارًا ، وقبيل بزوغ الشمس شوهد عباس حلمى بملابس رياضية يجرى على ممر مهجور ، يئن أنينًا غريبًا وكأنه كان يبكى ، وبعد الإفطار حملته السيارة الجيب إلى حيث طائرته الميج ٢١ الرابضة فى زهو .

---

(١) ايسير هاريل : الرئيس الثانى للموساد (١٩٥٢/٩/١٩ ـ ١٩٦٣/٣/٢٥) ، ويعزى إليه أنه أول من أرسى ونظم مبادئ العمل الاستخباراتى فى الموساد بأسلوب حديث ، وأدار المؤسسة الاستخباراتية وفق ترتيب إدارى وفنى دقيق .

(٢) الجنرال مائر عاميت : من مواليد طبريا عام ١٩٢٦ ، تطوع فى منظمة الهاجانا الإرهابية عام ١٩٤٦ ، وحارب الجيوش العربية عام ١٩٤٨ وجرح فى جنين ، واستولى مع إحدى الفصائل على إيلات ، وكان قائد معركة الجنوب فى حرب السويس ١٩٥٦ ، وأصيب وقتها برصاص المصريين وظل يعالج ستة عشر شهرًا فى أمريكا ، وقبلما يتولى رئاسة (أمان) كان قائدًا لوحدة مشاه ودبابات ، واسمه الأصلى (مائير سلوتزكى) ، وهو أول رجل من خارج جهاز الموساد يتولى رئاسته (١٩٦٣ - ١٩٦٨) .

كانت الطائرة تنزلق سريعًا على الممر ، وبذات السرعة هجمت عليه الأحداث لا تترك لديه قوة ليبعدها عن عقله ، غزته من كل جانب فلم يعد ينظر إلى العدادات واللوحات التى أمامه ، بل عاد بذاكرته إلى بعيد .. إلى الإسكندرية .

تجمعت لديه ملامح وجه حبيبته الساخر ، وخطوط جسدها المشوق الرائع ، وكيف سيطرت على حواسه منذ اللحظة الأولى فقرر أن ينسحب بعيدًا عن حياة الفوضى والفسق التى كان يعيشها مع صديقه عماد ، ويتزوجها .

فمنذ التحق بالكلية الجوية وتخرج منها ضابطًا طيارًا وحياته لا تخلو من المجون ، حتى أن شقة عماد تحولت إلى وكر لذيذ لتصيد اللذات بأنواعها ، ولأن عماد شاب وسيط ويعمل بجامعة الإسكندرية ، فقد كان من السهل عليه البحث عن فريسته التى عادةً ما تسعى إليه برضاها طمعًا فى الزواج ، لكنه كان كفراشة تطير لتلثم كل زهرة ، تتذوق وتنتشى بأريج الشذى وعبيره ، ثم تنتقل الفريسة من بعده إلى حلمى . وهكذا كانت حياة الاثنين .. خمرًا ونساءً وفسقًا .

سنوات وسنوات على هذا المنوال لا يكل أحدهما أو يعرج بعيدًا عن الطريق .

فكثيرًا ما كان عباس حلمى يلمح نظرات الإعجاب بعيون الحسان وقد انبهرن بالزى العسكرى ، فيمارس هوايته فى اصطياد أجملهن .. ولأنه ضابط وطيار كفء فقد سافر إلى موسكو فى دورات تدريبية عدة مرات زادت من مهارته . واشترك فى حرب اليمن لعدة أشهر أظهر خلالها الكثير من الجسارة والجرأة والاحتراف . فرضى عنه رؤساؤه .. وأوفد من جديد إلى موسكو ليتعلم قيادة الطائرة الجبارة ميج ٢١ التى وصلت مصر أولى دفعاتها فى منتصف ١٩٦٣م . وبرغم التفاف حسناوات روسيا حوله ، إلا انه انشغل عنهن بـ « سماح » التى ملكت عقله وقلبه وكيانه ، وعششت بخلاياه وكأنما هى وشم منقوش لا يزال .

كان قد التقى بها فى مناسبة عائلية فى الإسكندرية ، بهرته وبهرها ،

ورأى فيها رونقًا وجمالاً لم يرهما من قبل ، فاندفع إليها كغريق يبحث عن طوق نجاة. ولأول مرة يصارح والدته برغبته فى الزواج وهى التى قد ملت الإلحاح عليه من قبل ، فنشط والده التاجر الكبير فى السؤال والتحرى عن الفتاة التى أوقعت بابنه فى شباكها .

كانت سماح ابنة أستاذ جامعى معروف ، ووالدتها طبيبة تخدير معروفة أيضًا ، وألقت زيارة التعارف الأولى بظلالها على الأسرتين فما انتهت إلا وتحدد موعد الخطبة ، لكن أن القدر أراد تأخيرها لحين . إذ ماتت والدة الطيار الشاب فأصيب بصدمة عنيفة ، وأستمرأ التواجد لفترات طويلة فى عمله بإحدى القواعد الجوية بسيناء، لا يطيق رؤية المنزل بدون والدته لكن سماح شيئًا فشيئًا استطاعت انتزاع قدرًا كبيرًا من الأسى تمكن منه فقربته إليها بدافع الحب فانجذب إلى حنانها برغم ما كان بأعماقه من حزن مقيم.

مرت عدة أشهر كان خلالها منكسر الفؤاد عازفا عن الاستجابة لإغراءات صديقه عماد ، إذ تغيرت طبائع الطيار المحزون العاشق الذى اندفع تجاه خطيبته يبحث عن الحنان الذى فقده بفقدانه لأمه ، فالتزم بيته فى إجازاته أو كانت تصحبه سماح فى نزهات بريئة على شواطئ الإسكندرية الرائعة . لقد أمدته بكل ما يحتاجه من حب وحنان فغرق فى حبها حتى الثمالة ، وكتب فيها عشرات القصائد تقطر عشقًا وهيامًا .

الحجر الدوار

على غير عادته عاد إلى الإسكندرية فجأة ذات يوم ، دهشت خطيبته لمجيئته وأخبرته أنها ستخرج لشراء بعض الأغراض ولسوف تخصص له معظم ساعات اليوم التالى ، حاول أن ينام ليريح جسده لكن رنين التليفون أيقظه .. كان صديقه عماد على الطرف الآخر يلح عليه ليخرج من عزلته ويقضى سويعات فى شقة الأنس .. رفض عباس حلمى فى البداية لكن أمام إلحاح

صديقه وبأن لديه (صيدًا) خطيرًا ، قام الطيار المرهق وارتدى ملابسه وخرج على مضض .

دقائق وكان يطرق باب الشقة، فاستقبله عماد بشوشًا ضحوكًا ، وأخبره بأن (الصيد) فى انتظاره وعندما دخل عباس حجرة النوم ، رآها فاتنة فى غلالة.. ممدة على بطنها تنشد بعض الراحة ، أحست بحركة الوافد الجديد فانتبهت والتفتت إليه و.. صرخت صرخة مدوية بينما تجذب الملاءة لتستر جسدها .

تسمر هو فى مكانه للحظات ثم هجم عليها يضربها بجنون . لا يصدق أنها هى .. سماح خطيبته .

أنقذها عماد من ضربات العاشق المخدوع الذى بصق عليها وغادر الشقة كالأعمى . إذ زلزلته الفاجعة وأفقدته توازنه فارتمى على فراشه يبكى فى مرارة وأسى ، ثم قام إلى حقيبته فأعدها ولم ينتظر حتى انتهاء إجازته ، بل ذهب بنفسه إلى عمله ويطير بالميج ٢١ مكتئبًا فوق جبال سيناء ، ويرتكب عدة أخطاء استدعت تدخل القائد وتعنيفه بشدة ، فأقل خطأ يؤدى حتمًا إلى خسائر فادحة فبقدر الحرص على الطائرة المقاتلة المتقدمة .. كان الحرص أكثر على قائدها الذى توفر له الدولة كل ما يريد ، فالطيار العسكرى المدرب ذو أهمية كبرى ويلقى رعاية واهتمامًا بالغين .

لقد كانت أخطاء الطلعة الأخيرة لا يمكن أن تمر بسهولة .. لكن .. تكررت الأخطاء فى طلعات أخرى حتى وجد عباس نفسه فى مأزق خطير ، فحادث الخيانة سيدمره بل هو مهدد بجزاءات لا قبل له بها .

وعندما منع مؤقتًا من الطيران بالميج ٢١ ، أصيب بصدمة أخرى ، ورفض الذهاب إلى أسرته فى عدة إجازات . لقد كره الإسكندرية والنساء والدنيا كلها .. وفكر كثيرًا فى الانتحار لكنه كان اجبن من مواجهة الموت. وبينما كان يطير بطائرة التدريب السوفييتية – ياك ١٥ – لتجربتها ، تسلطت عليه فكرة مجنونة لم تكن مختزنة فى عقله من قبل ، فكرة الهرب إلى إسرائيل .

ولأن عقله مشوش وتركيزه مضطرب ، أو أصابته لوثة من جنون ، فقد وجه طائرته بالفعل ناحية إسرائيل ، وأستمر فى طيرانه على ارتفاع منخفض جدًا بين سلاسل الجبال المرتفعة وسط سيناء ، متحاشيًا الطيران القريب من الوحدات والقواعد العسكرية المصرية .. وعندما لمح طائرتان (ميراج ٣) تحلقان حوله ، أدرك أنه فوق أراضى العدو .. وبسرعة قام بحركة تموج يمينًا وشمالاً ، وهى إشارة دولية متعارف عليها تدل على استسلامه ورغبته فى الهبوط .. عندها أمروه بالهبوط حيث أتبعهما إلى قاعدة (سكعات عوفدة) الجوية فى صحراء النقب، وأستقبل استقبالاً حارًا كأول طيار عربى يهرب إلى إسرائيل[١] .

فى إسرائيل

برغم خيبة الأمل التى أصابت الإسرائيليين لأن طائرته سوفيتية ومخصصة للتدريب فقط ، إلا أنهم استغلوا الطيار الهارب بعد ذلك أسوأ استغلال ، فقد سئل آلاف الأسئلة واخضع لاستجوابات مطولة عصروه فيها عصرًا ، ولم يكن بمقدوره إدعاء الجهل بأشياء كثيرة تتصل بأدق التفاصيل العسكرية. فقد كان يعلم جيدًا أنه أرتكب جرمًا عظيمًا فى حق وطنه ، لذا ، استغل معلوماته العسكرية البالغة السرية للحصول على الأمن والحماية أولاً .. ولتحقق أكبر عائد مادى ثانيًا .

---

(١) قصة عباس حلمى كنت قد بعثتها إلى إلى جريدة اللواء العربى عندما كنت أنشر بها حلقات أسبوعية بعنوان : (المخابرات والجاسوسية فى القرن العشرين) حيث نشرت لى أكثر من مائة حلقة ، ولكن فقدت حلقتا عباس حلمى ، ونشرهما أحد المحررين بالجريدة (عبد الناصر ق) بالكويت باسمه هو . تمامًا كما فعل (م . صلاح) رئيس تحرير مجلة مصرية أسبوعية للحوادث . عندما نشر كتابى (أمينة المفتى) بالكويت أيضًا . وتكررت السرقات بعد ذلك بشكل علنى ، حيث نشر كتابى عن أمينة المفتى – أشهر جاسوسة عربية للموساد) بجريدة الحقائق فى لندن فى حلقات باسم الدكتور سمير قديح – باحث فى الشئون السياسية والأمنية ، فلسطين، بداية من ٥ مايو ٢٠٠٣ ، وبمنتهى التبجح نشر صورته أيضًا على الحلقات التى لم يبدل فى سطورها وعناوينها كلمة واحدة أنظر www . alaqaeq . net ، وليسامح الله أولئك الفجرة الذين يسطون على إبداع الآخرين ... «عينى عينك » بالرغم من أن الكتاب يعرض للبيع على النت www . nelwafurat. com وتنشره المجلات الإلكترونية.

لقد أخبروه أن هناك مليون دولار مكافأة لمن يفر بطائرة ميج ٢١ إلى إسرائيل، أما هو فسيمنح مكافأة قدرها مائتى ألف دولار فقط ، ليس مقابل طائرته الهزيلة التى لا تصلح مأوى للدجاج - كما قالوا له - بل لأنه أول طيار عربى يملك شجاعة الهرب ، ويدلى بتفاصيل وأسرار ثمينة أجابت على ألغاز وتساؤلات كانوا لا يملكون إجاباتها .

وفى مؤتمر صحفى حاشد منع فيه التصوير وقف الخائن ليتعرف بأنه هرب إلى إسرائيل ليحقق لنفسه أملاً كثيرًا ما رواده ، وليودع الديكتاتورية فى مصر شوقًا إلى الديمقراطية الحقيقة فى إسرائيل..

وعندما سئل :

- منذ متى وأنت تفكر فى الهرب إلى إسرائيل ؟

أجاب :

- منذ اشتركت فى حرب اليمن الفاشلة وأنا أفكر فى ذلك ، فالقوات المصرية أرتكبت مجازر ضد أهل اليمن ، واستخدموا الغازات السامة فى قتل قوات الإمام المخلوع .[١]

وسئل :

- لماذا لم تهرب من قبل بالطائرة ميج ٢١ ؟

أجاب :

- خشيت إسقاطى بواسطة زملائى أو بصواريخ الدفاع الجوى التى لن تتركنى ، وقد تسقطنى طائرات إسرائيل .

وسئل :

- هل أنت مضطهد فى مصر ؟

---

(١) هو الإمام أحمد بن يحى حميد الدين، آخر ائمة اليمن.

قال :

- نعم ..!

« بالطبع ، كانت إجاباته قد أمليت عليه من قبل فلم يكن ليستطيع الاعتراض »

وسألته صحفية أمريكية :

- هل هناك عملية استخباراتية جاءت بك إلى هنا ؟

أجاب :

- لا .. لا .. لم يكن هناك أدنى اتصال بيني وبين جهاز الاستخبارات الإسرائيلى بشأن ترتيب عملية الهرب ، فأنا جئت طواعية إلى إسرائيل ، ومقتنع تمامًا بأننى سألقى كل ترحيب .

وفاجأه صحفى إسرائيلى قائلاً :

- هل ستحارب معنا ضد مصر إذا قامت حرب بيننا ؟

أرتبك عباس حلمى وتفصد منه العرق وقال فى صوت مرتعش :

- لا أريد قيادة أية طائرة حربية بعد اليوم .

لم يسطع الخائن بعد ذلك الإجابة على عشرات الأسئلة التى انهالت عليه من هنا وهناك. إذا تلجلج لسانه وارتعدت أطرافه ونظر لضباط المخابرات فى وهن وضعف ، فسحبوه إلى الداخل ليجهش بالبكاء ويظل يبكى لأكثر من ساعة حاولوا أثنائها تهدئته بشتى السبل ففشلوا، واضطروا لحقنه بالمهدئات لينام نومًا عميقًا .

نشرت وكالات الأنباء العالمية تحقيقات مبتورة - بدون صور - عن حادث هروب الطيار المصرى المنشق . وأرادت إسرائيل أن تستغل الفرصة جيدًا لصالحها ، ففتحت أبواق إذاعتها المكذوبة الناطقة بالعربية ليعلن الخائن

على الملأ أنه ما هرب إلى إسرائيل إلا ليقول للعالم أجمع إن مصر قتلت عشرات الآلاف في اليمن بواسطة الغازات السامة ، وأن حرب اليمن حطمت الاقتصاد المصرى لأن ملايين الجنيهات الذهبية أعطيت لرؤساء القبائل اليمنيين ، وأن مصر ورطت في هذه الحرب التي قتل فيها مئات المصريين بلا سبب أو ضرورة .

استمر عباس حلمي يردد عبر الإذاعات ما يملى عليه، بل وأخذ ينادى رفاقه الطيارين - بالاسم - وينصحهم بالهرب إلى إسرائيل بالميج ٢١ مقابل مليون دولار مع فيلا رائعة وسيارة حديثة ، وجواز سفر باسم جديد يطوفون به العالم .

لم ينته الأمر عند هذا الحد ، بل أن الطيار الخائن أخذ على مدار عدة أيام يسب قادته العسكريين والسياسيين في مصر ، ثم أختفى صوته من لإذاعات الإسرائيلية لبعض الوقت لكنه عاد من جديد ، ليكرر نداءاته، ناصحًا زملائه الطيارين العرب هذه المرة ، بإرسال خطابات من أى دولة أجنبية على صندوق بريد (...) في تل أبيب ، يذكروا فيه الموعد المقترح لهربهم بالطائرة ميج ٢١ ، حيث تنتظرهم طائرات إسرائيل لحمايتهم من أية مطاردات. واصفًا ومعددًا مزايا العيش بإسرائيل مقارنة بالبلاد العربية « المتخلفة » .

وأختتم نداءاته الأخيرة قائلاً :

- وإلى اللقاء قريبًا مع زميل طيار شجاع من مصر أو سوريا أو العراق[1] ، أراد أن يودع حياة الجهل والفقر ليعيش ملكًا في إسرائيل في ١٦ أغسطس ١٩٦٦م هرب الطيار العراقي الخائن « منير روفا » بطائرته ميج ٢١ إلى إسرائيل بعد تجنيده في بغداد .

لقد كانت لدى رجال الموساد مساحة كبيرة من الريب حول العملية برمتها، وكبر لديهم هاجس تحسبوا له كثيرًا ، وهو أن المخابرات العسكرية المصرية ربما

(١) مصر وسوريا والعراق، هى الأقطار العربية الوحيدة التى كانت تمتلك طائرات الميج ٢١.

تقوم بخدعة كبرى ، وأن إرسال عباس حلمى بطائرة تدريب عتيقة لا تساوى شيئًا ، لعبة مهارية خارقة من المصريين ، لتسريب معلومات مغلوطة عن الميج ٢١ ، تربك بها حساباتهم ومعلوماتهم «الغير يقينية » عن بعض أسرار الطائرة ، ونقاط تميزها .

لذلك .. أعيد سؤال عباس حلمى ذات الأسئلة مرات ومرات ، وحيرتهم كثيرًا إجاباته الدقيقة التى لم تكن تتغير ، ومع إصراره العنيد على أنه لا يقول إلا الصدق ؛ عرضوه على جهاز كشف الكذب .

وبينما الأسلاك الملتصقة برأسه وصدره تتصل بأجهزة رسم المخ ، وقياس الذبذبات والنبض ، كان ستة من الخبراء الفنيين دفعة واحدة يعكفون على استجوابه ، فلا يكاد الواحد منهم يلقى بسؤاله حتى ينطلق آخر بسؤال جديد ، وهكذا دواليك لمدة ساعتين ونصف الساعة ، حتى تفككت قواه ، وبكى بحرقة طالبًا منهم أن يعيدوه إلى مصر ، فإعدامه هناك ارحم من العذاب الذى يلاقيه عندهم .

لم يكن من السهل أن يعيدوه ثانية إلى مصر ، وما كان لهم أيضًا أن يتيقنوا من صدقة مائة بالمائة ، فبرغم الرسوم الكهرومغناطيسية للجهاز الأمريكى الصنع ، والتى أثبتت انه لا يكذب . قال بعضهم ان الطيار المصرى ربما أعد إعدادًا محكمًا لتلك المهمة ، وأنه قد دُرب عليها عشرات المرات قبل أن يبعثوا به إليهم .

لقد كانت دائرة الشكوك داخل الموساد تضيق وتتسع ، ومع ذلك ، فقد أعتبر عاميت فرار الطيار المصرى ثروة هائلة ، ستدفع ربما بأحدهم من طيارى الميج ٢١ إلى تقليده ، والهرب بطائرته الأسطورية لإسرائيل. وعلى هذا ترك مصير الطيار المذعور إلى أن يقول الأمريكيون رأيهم النهائى .

فيما بعد ظهر أنه عندما تلقت الـ C.I.A تقريرًا وافيًا بما تم التوصل إليه ،

اتصل رئيس المخابرات المركزية[1] بعاميت ، يطلب منه مساعدة فريق من الفنيين ، سيبعث به إلى تل أبيب لاستجواب الطيار المصرى، بالاستعانة بجهاز حديث لكشف الكذب.

كانت الـ C.I.A هي الأخرى ، تحمل قدرًا كبيرًا من الشكوك والريب تجاه الحدث ، وتعلقت بأذهان رجالها صور الخداع التى مورست بأساليب تمويهية خارقة أيام الحرب العالمية الثانية ، وأيضًا التطور الشاسع لجهاز الاستخبارات السوفييتي ، والذى قد يكون وراء العملية كلها ، لأسباب استراتيجية بحتة . لإحكام إحدى العمليات المخابراتية مع نشوب الحرب الباردة بين الدولتين العظميين .

ومن مطار اللد فى تل أبيب ، أتجه فريق الفنيين الأمريكى إلى مقر الموساد الجديد . حيث العشرات من خبرائها انعزلوا عن العالم المحيط بهم ، وعكفوا على دراسة وتحليل كل كلمة تفوه بها عباس حلمى ، ومراجعة قياسات جهاز كشف الكذب من جديد .

هكذا جئ بالطيار فصافحه الأمريكان بود وأوصلوا رأسه وصدره مرة ثانية بجهاز حديث استقدموه معهم ، كان بحجم حقيبة السفر ، وذو قياسات تحليلية أفضل .

وسألوه مباشرة :

- أى نوع آخر من الطائرات طرت بها بخلاف الميج ٢١ ؟

أجاب دون تردد :

- السوخوى .. السوخوى الأعتراضية SU-9 ، والسوخوى SU-7B ذات المقعدين .

سئل :

- ما الفرق بينهما طولاً وعرضًا .. ؟

---

(١) كان جون ميكون وقتها هو رئيس المخابرات المركزية من ١٩٦١ - ١٩٦٥ .

أجاب :

- لا فرق فى الطول بينهما فطول كلاهما ١٧ مترًا ، وأقصى عـرض لـلأولى ٨ متر ، والثانية ٩ متر ، والجناح مسحوب للخلف .

سئل :

– ما تسليح السوخوى SU-9 من الصواريخ .. ؟

أجاب :

- عادة صواريخ ANAB جو/جو ، التى توجه راداريًا، وبالأشعة تحـت الحمراء .. ! !

سئل :

– بما تحلل تساوى مساحة الدرع الواقى من انفجار الطلقـات علـى جـانبى جسم الطائرتين .. ؟

أجاب:

- السؤال به خطأ ، ففى السوخوى SU-7B التى أنتجت مؤخـرًا، زيـادة فى مساحة الدرع الواقى بجوار المدفع. وهذا يدل علـى أن المدفـع المركـب بها، إما أن تكون سرعة الطلقات عند فوهة الماسـورة عاليـة ، أو أن معـدل كثافة النيران مرتفع جدًا .

سئل :

–كم فرملة هوائية فى كل طائرة .. ؟

أجاب:

- فرملتان فى SU-7B ،وأربعة فرامل فى الطـائرة SU-9 فـى أزواج علـى جانبى مؤخرة الجسم .

سئل :

– أرسم شكلاً لعدادات الطائرة السوخرى SU-9 ،مبينًا عداد سرعة الانهيار بدون قلابات ، وعداد معدل التسلق على مستوى سطح البحر .

وبعدما رسم أشكالاً مختلفة لعدادات الطائرة ، وأذرع التشغيل ، طلب منه أن يرسم الأشكال نفسها الخاصة بالميج ٢١ ، وتوضيح عدادات التحميل ، وأذرع القنابل والصواريخ والمدافع ، ومبينات الأجزاء الهيدروليكية ، والرادار وخواصه التكتيكية والفنية ، وهوائى الرادار وكيفية تلاشى الإعاقة ، وزاوية تشغيله يدويًا وهيدروليكيًا ، وعمله فى التفتيش والمسح الواسع ، والمسح الضيق فى نطاق ٤٥ درجة ، وكذا شاشة المرسل النبضى ومبينات الاستعداد للهجوم ، ومقدمات القذف الصاروخى والتشغيل .

وبتفصيل فنى شديد طلب منه أيضًا رسومات توضيحية لمفاتيح المناورة الحادة ، والاشتباكات الجوية والقصف جو/جو ، وجو/أرض ، ووضع الاقتراب الدقيق والتتبع ، وتقنيات الشاشات الملاحية الرادارية والتليفزيونية ، ورادار قياس الارتفاعات ووصف المبين ، ولوحة البيان بأقسامها العشرة العلوية والسفلية ، وشاشة الخطر .

هكذا عُصر الطيار المصرى عصرًا بواسطة خبراء الطيران فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبعد ست ساعات تقريبًا أنهوا استجوابهم ، وأكدوا للإسرائيليين أنه من المستحيل أن يكون مدسوسًا عليهم ، فهو طيار ماهر جدًا ، وحاصل على دورات تدريبية عديدة فى موسكو ، ولا يمكن أن يضحى المصريون بطيار فى خبرته ، من أجل عملية استخباراتية خداعية .

وبإخضاع عباس محمود حلمى للتحليل النفسى بواسطة متخصصون ، وجد أنه أصيب بصدمة عصبية حادة[1] ، انهارت لها أعصابه، أوصلت به

---

(١) يطلق البعض على هذه الحالة اسم «الفصام» ، والفصام كلمة من اصل يونانى معناها : تشقق النفس Splitting of the psyche ، وتكون أكثر شيوعًا فى الفترة ١٨ : ٣٠ عامًا نتيجة الصدمات الفجائية=

إلى حالة مرضية عقلية - يمكن علاجها - تسمى علميًا « تبدلات الطبع » Alterations in character ، وهى حالة تدفع بالمريض إلى الاكتئاب والإهمال فى العمل ، وعدم الاهتمام بأسرته أو مظهره ، وقد يرتكب سرقات خفيفة أو يستعرض نفسه .

ويبدو أن قصة هروب الطيار المصرى[1] إلى إسرائيل ، أشارت إليها فى حينها بعض وسائل الإعلام الغربية ، المنحازة لإسرائيل ، على أنها عملية مخابراتية رائعة ، خططت لها الموساد فى واحدة من اروع عملياتها ، التى دفعت بها إلى نهايتها ، وروّجت أقاويل شتى عن كفاءة المخابرات الإسرائيلية، التى تطول عملياتها عمق النسيج العربى ، وتخترق إجراءاته الأمنية الصارمة .

ورد مسئول مخابراتى إسرائيلى على تلك الأقاويل بالنفى القاطع ، مؤكدًا أن هروب عباس حلمى كان لسبب أيديولوجى بحت لا دخل فيه لإسرائيل ، وأضاف معلقًا بأن الحكومات العربية تروج لشعارات قومية كاذبة ، لا يصدقها عقلاء ، لأن لا وجود لها على أرض الواقع. وأن إسرائيل، هى واحة الديمقراطية فى المنطقة ، وأبوابها مفتوحة لكل إنسان حر شريف ، يسعى إلى حياة مطمئنة تفيض بالأمن والرخاء .

= العنيفة ، وبين أعراضه انفصال أو ضعف الارتباطات ، مع اضطراب حاد بالعالم الواقعى والعلاقات الوجدانية ، والميل للانسحاب من المجتمع ، وإظهار السلوك العدوانى والتصرفات الاندفاعية .

(١) حادثة هروب الطيار عباس حلمى لم تكن الأولى من نوعها فى مصر ، ففى عام ١٩٤٠ هرب الضابط الطيار سعودى حسين فى طائرة حربية من طائرات سلاح الطيران الحربى المصرى ، وكان برفقته على الطائرة مساعده رضوان محمد سالم ، وتبين فيما بعد أنهما فى ألمانيا . أكد ذلك الجاسوس الألمانى هانز جيبلر الذى اعتقل فى مصر عام ١٩٤١ ، وكان قد وصل إلى القاهرة سرًا فى طائرة خاصة تحمل شعار سلاح الجو البريطانى وهبط بها فى الليل بصحراء الأهرام. كانت مهمة جيبلر التجسس على القوات الإنجليزية فى مصر ، وتمكن من الالتحاق بإحدى فرق الجيش البريطانى كضابط من ضباطها حتى اكتشف أمره ، وأعدم بالرصاص فى القاهرة خلال شهر يناير ١٩٤٢ .المثير للدهشة أن هانز جيبلر الألمانى كان قد جاء إلى مصر عام ١٩٣٤ ، وتطوع للخدمة العسكرية بالجيش المصرى باسم (حسين جعفر) من سكان شبرا ، وكان يحمل أوراقًا رسمية بذلك، كما كان أيضًا يتحدث باللغة العربية وباللهجة العامية فى طلاقة ، وبقى فى خدمة الجيش المصرى حتى سنة ١٩٣٩ ، عندما قامت الحرب العالمية الثانية ، ثم قفل راجعًا إلى ألمانيا ، ليجئ هذه المرة التى أعتقل فيها وأعدم بواسطة الإنجليز .

أضاف المسئول الإسرائيلي أيضًا ، إن الطيار المصرى ومئات غيره من المواطنين العرب ، الذين اختاروا اللجوء لإسرائيل ، يعيشون بين أهليهم فى وطنهم الجديد فى دعة واطمئنان. وأنه برغم كون إسرائيل دولة صغيرة المساحة ، إلا أن سكانها، وهم ينتمون إلى خلفيات عرقية ودينية وثقافية واجتماعية متباينة ، ذوى التزام خلاق فى إعطاء زخم ديناميكى لاستمرار تطور المجتمع ، وفقًا لمبادئ الصهيونية وهى الحركة القومية للشعب اليهودى .

وعلق مسئول بوزارة الخارجية قائلاً :

إنه منذ حققت إسرائيل الاستقلال السياسى ، توافدت على البلاد جماعات كبيرة من البشر ، مما أدى إلى تغيير التركيبة الاجتماعية الإسرائيلية ونسيجها، وكانت النتيجة ان تبلورت تركيبة جديدة ، هى بمثابة مزيج من القيم ، والأسس الاجتماعية لتكون الدولة التى واجهت مشاكل أمنية معقدة ، نجمت عن إصرار الجانب العربى على رفض الاعتراف بإسرائيل ، ومع ذلك فنحن نرحب بكل من يلجأ إلينا من إخواننا العرب ، للانضمام إلى نسيج المجتمع الإسرائيلى ، الذى يحترم الأديان ويساوى بينها[١] .

الرعب القاتل

أما فى القاهرة ، فلم يعلق الجهاز الإعلامى المصرى على الحدث علنيًا ، بينما التزم رئيس المخابرات العامة - صلاح نصر[٢] - الصمت .

هذا الصمت كان يحمل كل علامات الترقب للانقضاض والانتقام ، ويخفى ورائه أشرس معركة سرية ، تعد بحق من أروع أعمال البطولات الخارقة لمخابراتنا ، عندما خطط صلاح نصر ورجاله لاستعادة الطيار الهارب ، وكانت

---

(١) نشرة بعنوان (حقائق عن إسرائيل) توزعها مراكز الإعلام الإسرائيلية.

(٢) صلاح نصر : عين نائبًا لرئيس جهاز المخابرات العامة المصرية فى ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦ ، ثم رئيسًا للجهاز فى ١٢ مايو ١٩٥٧ خلفا لعلى صبرى ، حتى أقيل فى ٢٦ أغسطس ١٩٦٧ ، أثر أزمة المشير عامر وانتحاره ، ومات مصابًا بالعمى والشلل فى ٥ مارس ١٩٨٢ . وكان قد حكم عليه بالسجن ١٥ عامًا فى قضية انحراف المخابرات ، وصدق رئيس الجمهورية على الحكم فى ٢٢ أغسطس ١٩٦٨ ، ويفرج عنه السادات بعد سبع سنوات فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٤

الأوامر واضحة وحاسمة : لابد من اختطاف عباس حلمي ومحاكمته في القاهرة ، مهما تكلف الأمر .. (!!) إنها رغبة عليا وواجب وطني ، ومعركة .

أودعت مكافأة الخائن عباس حلمي بنك «هاتسوفيه» في تل أبيب ، وعاش في فيلا سرية تحت حراسة مشددة. وفي لقاء له مع رئيس الموساد عرض عليه الجنرال مائير عاميت[1] العمل في الوكالة براتب كبير . كانت وظيفته قراءة الصحف المصرية وكتابة تقارير تحليلية عما بها من أخبار عسكرية وعن الرتب العسكرية التي يرد ذكرها في صفحات النعي والاجتماعيات. وأيضًا، كتابة تفاصيل وأسرار كل من يعرفهم من الزملاء والقادة تتضمن عناوينهم وتليفوناتهم، وأستمر في وظيفته هذه لعدة اشهر، يقود سيارته بنفسه ويرافقه كظله أحد أفراد الحراسة ، فالخائن لم يكن ليشعر بالأمان أبدًا، لثقته بأن المخابرات المصرية لن تتركه ، مما دعاه لأن يهجر وظيفته معتزلاً الحياة، منكمشا في مسكنه يجتر ذكرياته ، ويكتب الأشعار في حبيبته التي خانته وقادته صدمة خيانتها إلى طريق مسدود، ومصير حالك مجهول .

ظل هكذا لا يعرف للحياة طعمًا برغم غرقه في الخمر وبين أحضان عاهرات إسرائيل ، وكلما أخلد إلى النوم ، سرعان ما يصحو فزعًا ممسكًا برقبته يحاول تخليصها من يد تخنقه وتحبس أنفاسه ، حتى أنقلبت سويعات النوم عنده إلى فزع كبير، بل أصبح النوم هو الفزع نفسه.

لذلك كره النوم والنجوم والوحدة وامتلأت جيوبه بالحبوب المهدئة، يسيجه الخوف والفزع طوال نومه ويقظته .. حتى ذبل جسده لقلة النوم والأكل وجحيم الرعب الذي غزاه، فذهب إلى مقر المخابرات العسكرية في كيريا بتل أبيب، طالبًا مقابلة رئيسها الجديد أهارون ياريف[2] . وأمام مكتبه اخذ ينتحب في ذلة وضعف ، راجيًا منه أن يسمح له بمغادرة إسرائيل إلى أية دولة أخرى.

---

(١) تولى عاميت رئاسة المخابرات العسكرية لسنة واحدة (١٩٦٢ : ١٩٦٣) ثم تفرغ لرئاسة الموساد حتى عام ١٩٦٨ .
(٢) هو اهارون ياريف ، الذي عمل بعد ذلك مستشارًا أمنيًا لرئيسة الوزراء جولدمائير أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ولأنه لم يعد ذا شأن فى إسرائيل وافق ياريف على طلبه فى الحال وتسلم الخائن جواز سفر أردنيًا مزيفًا ، مع تذكرة ذهاب فقط بالطائرة إلى الأرجنتين، بعدما جئ له بطاقم من امهر رجال الموساد ، لقنوه كيفية التعايش والعمل والتصرف فى بوينس آيرس ، فخطأ واحد منه سيكلفه حياته ، ثم حولوا نقوده من بنك هاتسوفيه إلى بنك الأرجنتين الوطنى . وبواسطة أطباء خبراء فى عمليات تجميل أمكن – إلى حد كبير – تغيير الكثير من ملامحه، وشمل ذلك شكل الأنف والذقن والفم، والحواجب، كما زرع له شعر بمقدمة الرأس يخفى بوادر الصلع .

وفى فبراير ١٩٦٥ ، بعد تدريبه كثيرا على اللهجة الأردنية ، غادر الطيار الهارب تل أبيب إلى بوينس آيرس[1] يحمل هوية جديدة ، وملامح جديدة ، ودروسًا فى التمويه والإخفاء ، ظنًا أنه بذلك قد افلت من مطاردة المخابرات المصرية ، لكن ما كان ينتظره فى الأرجنتين أقوى من كل تصور .. ! !

ترى ماذا حدث فى الأرجنتين للخائن الهارب .. ؟

وكيف اصطادته المخابرات المصرية وأعادته إلى مصر فى صندوق لمحاكمته ..

إنها حلقة جديدة فى حلقات الصراع بين المخابرات الإسرائيلية والمخابرات المصرية ، تفوقت فيها المخابرات المصرية بجدارة ، لكنها كالعادة ، لا تهلل لإنجازاتها ونجاحاتها ، حيث تعمل فى صمت وتعتيم لحماية مصر وأمنها القومى ، على عكس إسرائيل التى تطير أنباء عملياتها السرية بقصد إعلاء سمعتها ، وترديد اسمها فى كل وقت إعلاميًا بما يحقق أهدافًا محددة من وراء ذلك .

وصل النقيب طيار عباس حلمى إلى بوينس آيرس، يحدوه الأمل فى العيش بعيدًا عن أعين المخابرات المصرية ، معتمدًا على هويته الجديدة كأردنى ،

---

(١) بوينس آيرس : Buenos Aires ، ثانية أكبر عواصم أمريكا الجنوبية بعد برازيليا Brasilia عاصمة البرازيل . وتعد الأرجنتين ثانية دول القارة مساحة وسكانًا بعد البرازيل أيضًا .

وملامحه التى غيرت عمليات التجميل خطوطها. فنزل فى البداية فى فندق صغير اسمه « سان لورانزوا » وبعد عدة أيام أستأجر شقة صغيرة وبدأ فى استكشاف المدينة ، ودراسة عدة مشاريع ليستثمر أمواله فى أفضلها لكى يحيا آمنًا فى وطنه الجديد ويندمج فى نسيجه .

ولكن لماذا اختارت المخابرات الإسرائيلية أمريكا الجنوبية كمأوى للطيار الخائن ؟ ولماذا الأرجنتين بالذات ؟

بداية .. فالمخابرات الإسرائيلية لم تختر له هذه الدولة اعتباطًا ، بل نتيجة عدة عوامل محسوبة جيدًا وبدقة فائقة ، فالأرجنتين أولاً تقع فى أقصى الجنوب الشرقى من قارة أمريكا الجنوبية ، وهى أبعد نقطة، كما جاء بحسابتهم، عن أعين المخابرات المصرية التى ستدرك استحالة وجود الطيار الخائن هناك ، نظرًا لوجود جالية عربية ضخمة تتعدى المائة وخمسين ألفًا من العرب أغلبهم من الشام ، قد يكشفه أحدهم ذات يوم . كان هناك أيضا نصف مليون يهودى ينتشرون فى أنحاء الأرجنتين ، يشكلون مراكز ضغط وحماية برغم ازدياد مشاعر اللاسامية ضدهم . إذ تحدثت التقارير عن زيادة ملحوظة فى عدد الهجمات على اليهود التى نظمتها منظمتا « تاكورارا » ، و « ريد » وغيرهما ، وهى منظمات فاشية أرجنتينية كانت تضم كثيرًا من أبناء وبنات ضباط الشرطة والجيش البارزين .

وقد حدث أن اختطف أعضاء منظمة « تاكورارا » فى الأول من يوليو ١٩٦٢، طالبة يهودية أسمها « جارسيا سيروتا » ودقوا على صدرها وشمًا بالصليب النازى المعقوف مما أثار صدمة شديدة فى الجالية اليهودية فى الأرجنتين، ونشرت الصحف اليهودية افتتاحيات تحث الحكومة الإسرائيلية على مساعدة اليهود فى أمريكا الجنوبية . ولم يكن ايسير هاريل رئيس الموساد بحاجة إلى تشجيع ، فقام على الفور بإحضار النشطاء اليهود الشبان من الأرجنتين إلى إسرائيل ، ليتلقوا تدريبًا مكثفًا فى الدفاع عن النفس ، وكان

مشروعًا سريًا للموساد قام به شموئيل توليدانو ضابط الموساد المعروف ، الذى قاد عملية تهجير يهود المغرب إلى إسرائيل عام ١٩٦١ .

كانت الأرجنتين إذن مرتعًا خصبًا للإسرائيليين ، حيث تنطلق الموساد من مركزها فى بوينس آيرس إلى كل القارة الجنوبية . وكان للتواجد المخابراتى الإسرائيلى هناك بعض مساوئه ، ففى عام ١٩٥٧ فى الأرجنتين قتل ضابط الموساد موتكى كيدار رجل أعمال يهوديًا وسرق أمواله وهرب ، وكانت هناك فرصة لصدام دبلوماسى ، وفى ١١ مايو ١٩٦٠ خطفت الموساد الزعيم النازى أدولف إيخمان « آيتشمان » حارق اليهود فى ألمانيا ، وحوكم فى إسرائيل وشنق ثم أحرق فى مايو ١٩٦٢ .

ونظرًا لكل هذه الأحداث التى تؤكد التواجد المخابراتى الإسرائيلى فى الأرجنتين ، وسهولة القيام بمهام عديدة، فقد اختير للطيار المصرى الخائن أن تبدأ حياته من هناك بعيدًا عن مصر ، كنقطة انطلاق يستطيع منها أن يختار مسار حياته المقبلة ، كما حدث لإيلي كوهين جاسوس الموساد الشهير الذى انطلق من الأرجنتين إلى سوريا فى ١٠ يناير ١٩٦٢ وشنق بدمشق فى ١٨ مايو ١٩٦٥ .

كان علي عباس حلمى أن يكيف حياته فى الوطن الجديد حسبما يرى ، بعد أن دُرِّبَ جيدًا فى إسرائيل على استخدام الحس الأمنى بمهارة .

وبرغم تحذيرات رجال الموساد بألا يقع فى خطأ يكشفه ، أرسل لوالده برسالة طويلة يرجوه فيها أن يسامحه على ما أرتكبه ، مقسمًا له بأن ما حدث جاء وليد لحظة مجنونة فقد أثناءها عقله وتركيزه ، ويخبره بأمر خطيبته سماح التى رآها عارية فى شقة عماد ، وأنها السبب فيما جرى له . وفى ختام رسالته ، أكد لوالده بأنه يعيش متنقلاً بين دول العالم ولم يستقر بعد ، وأنه سيغادر الأرجنتين فى اليوم الثالث من تاريخ رسالته إلى دولة أخرى .

(أسف يا والدى لن أستطيع أخبارك بوجهتى أو بعنوانى ، فأنا قد حكمت على نفسى أن أعيش هكذا فى بلاد الله الواسعة بلا عنوان ، فمنذ فقد وطنى لم يعد لى وطن . كسفينة تائهة فى محيط هائج ، تتخبطها الأمواج وتدفعها فى كل اتجاه ، وتعصف بها الرياح فلا تجد أرضًا ولا ملاذًا .

إنه الموت المحيق يتربص بى كل ثانية ، فالرعب الذى يسكننى يأبى أن يغادرنى أبدًا حتى فى نومى .

إننى حى ميت .. نعم يا والدى، تلك هى الحقيقة، فأنا حى ميت أمشى على قدمين ، لا أدرى إلى أين سيأخذنى الطريق ، وفى أى أرض ستكون نهايتى ، وحين أموت بلا هوية أو أهل أو وطن .. فأقرأ لى الفاتحة وأطلب لى الرحمة ، لعل الله يرحمنى) .

وقد حدث ما كان يخشاه الخائن الهارب ، إذ عثرت المخابرات المصرية على الخيط الأول الذى يبحثون عنه .. وفى الحال ، دعا صلاح نصر رئيس المخابرات العامة كبار رجاله ، وبعد اجتماع مطول انتهوا إلى عدة خطط رئيسية لعملية "الكنز الثمين" حيث تشكل فريق عمل انقسم إلى عدة لجان لكل منها اختصاصها ، لكنها تؤدى فى النهاية إلى محاصرة «الهدف» والقبض عليه حيًا لمحاكمته فى مصر .

وكانت هناك أيضًا ضرورة ملحة لمراقبة الخطابات الواردة من الخارج ، إلى أصدقاء الخائن الهارب وأسرته ومعارفه . ولم تكد تمر عدة أيام معدودة، حتى وصلت منه رسالة أخرى إلى صديقه عماد .

شمل الفرح رجال المخابرات العامة المصرية ، فقد كانت الرسالة مصدرة من الأرجنتين أيضًا ، ومختومة بنفس خاتم مكتب البريد ، وفى الحال بدأ الترتيب لتنفيذ الخطة وعلى عدة رحلات منفصلة . ومن مطارات عربية و أجنبية مختلفة، أنطلق فريق من امهر رجال الاستخبارات المصرية إلى الأرجنتين ،

يصحبهم رسام محترف لديه تصور عام لوجه الخائن الهارب ، فى كل حالات التغير المحتملة فى مقاييسه وملامحه ، ومـن ناحية أخرى ، اختص بعض أفراد الفريق باستئجار عدة سيارات وشقق قبل وصول زملائهم .

كان أفراد الفريق يحفظون عن ظهر قلب ملامح عباس حلمى الحقيقية ، إلى جانب الرسوم التقريبية له بعد عمليات التجميل . ومرت ثلاثة أيام والهدف لم يظهر بعد ، فالكل يتحرق شوقًا للعثور عليه ، لكن أسبوعًا آخر مضى وهم يمسحون شوارع العاصمة بحثًا عنه ولا فائدة .

تنكر افراد الفريق فى شخصيات وجنسيات ومهن مختلفة ، وكانوا حريصين على عدم الالتقاء فى الأماكن العامة ، حيث كانت اللقاءات تتم غالبًا فى البيوت الآمنة أو على الطريق السريع خارج العاصمة،بعيدًا عن أعين الشرطة المحلية أو عملاء الموساد الذين كانوا يرتابون دائمًا فى القادمين الجدد . إذ قد يقومون بمراقبة تحركاتهم من بعيد بمجرد الشك ولو بنسبة ضئيلة

لذا .. كانت المهمة صعبة جدًا فى الوصول إلى خيط جديد ينشر الأمل بقلوب أفراد فريق المطاردة، حتى كاد اليأس من العثور على الهدف أن يسيطر على عقولهم .

لكن حدث فجأة وسط خضم ضبابات اليأس، أن وصلت رسالة ثالثة من الخائن إلى شقيقته الصغرى، تحمل داخلها « كارتا » تهنئة بعيد ميلادها ، مع اعتذار لعدم تمكنه من إرسال هدية لها نظرًا لأنه مريض ، وملازم الفراش فى المستشفى بعد ان أجريت له عملية « البواسير » .

كانت الرسالة مصدرة هذه المرة من مكتب بريد آخر يقع فى مدينة «لابلاتا La Plata» الواقعة بمدخل «خليج ريودى لايلاتا» شرقى العاصمة على المحيط الأطلنطى، فأسرع رجال الفريق إلى هناك ، يحفهم الأمل بأن يعثروا على ضالتهم هذه المرة.. إلا أن المدينة الكبيرة كانت تزدحم بالمستشفيات ، وعملية

البحث قد تكشفهم لأنهم يبحثون عن شخص لا يعرفون أسمه المستعار ، او ملامحه الجديدة أو حتى جنسيته التى يتخفى وراءها .

لذلك انقسم الفريق إلى نصفين ، فى العاصمة فريق يراقب ، وآخر فى لابلاتا يبحث. وحسب الخطة التى وضعت ، أضطر أحدهم إلى إدعاء المرض ودخل أحد المستشفيات ثم خرج ليدخل مستشفى أخرى وهكذا عدة مرات ، لكن بلا فائدة ، إلى أن أصاب الفريق يأس قاتل .

وفى القاهرة كان التوتر على أشده فالهدف على مقربة خطوات منهم ولكن هناك شئ ما يبعدهم عنه ، وكانت التخمينات كثيرة بما فيها احتمال أنهم قاموا بتغيير لون بشرته فى إسرائيل ، أو أنه أطلق لحيته وأرتدى باروكة شعر مستعارة . ربما أيضًا يكون الأمر برمته مجرد سيناريو سخيف من تأليف المخابرات الإسرائيلية . لكن .. كانت هناك خطتان أخيرتان لابد من اصطياده باحداهما لو أنه كان بالفعل فى بوينس آيرس .

وفى الحال نفذت الخطة الأولى ، إذ صدرت إحدى الصحف الأرجنتينية الواسعة الانتشار ، وفى صفحتها الأخيرة خبر صغير «مدسوس » عنوانه :

« وفاة والد الطيار المصرى المنشق كمدًا » .

وأسفل العنوان جاء بالخبر(١) :

« إن والد الطيار الهارب أدخل المستشفى بعد إصابته باكتئاب شديد لازمه حتى مات منذ أربعة أيام » .

وانتشر رجال المخابرات العامة بالقرب من منزل أسرة عباس حلمى بالإسكندرية ، فربما جاء أحد عملاء الموساد ليتأكد من صدق الخبر . ولكن يبدو أن المخابرات الإسرائيلية لم تبتلع «الطعم» لذا .. لم تغامر بإرسال من

---

(١) بدون شك ، كان ذلك بفضل تعاون أحد العرب الشرفاء الذين يعملون بالجريدة .

يتحرى الحقيقة ، أو ربما فطن خبرائها للحيلة المدبـرة فآثروا الانتظـار لأطـول وقـت ممكـن لـيراقبوا تحركـات رجـال المخـابرات المصريـة فـى الأرجنتـــين ، ويتعرفوا بذلك على أساليب جديدة تتبعها المخابرات العربية فـى نقطـة بعيـدة عن أوروبا ، و عن منطقة الصراع فى الشرق الأوسط .

لقد وضع الإسرائيليون فى حساباتهم أن المخابرات العربية لا تجيد «اللعـب» بعيدًا عن أراضيها ومحيط نطاقها المحدود فى بعض عواصم أوربا . وأنـها تفتقـد الكفاءة التى تستطيع بها مواجهة الموساد فى أوربا وأمريكا . وظل هذا الاعتقـاد راسخًا لديهم حتى وهم يخططون « لتثبيت» عباس حلمى وزرعه باسم مسـتعار فى الأرجنتين ، لقد تملكهم الغرور وهم يؤكدون لأنفسهم بأن ميزانية مخابرتنـا لا تتسع إمكانياتها لإنجاز مثل هذه العمليات الكبرى التى تتطلب مبالغ طائلـة . ولم يتصوروا أن ضابط مخابرات مصرى كبير ، سيطر عليـه تحـد لا حـدود لـه لإنجاح المهمة وتحطيم غرور رجال الموسـاد ، فسـافر إلى العاصمـة الأرجنتينيـة وأقام مركزًا للمتابعة والتوجيه بعد دراسة خطط البحث السابقة ..

لقد كان رجال المخابرات المصرية يبحثون عن الخائن الهـارب كمـن يبحـث عن إبرة فى جرن من القش كما يقولون ، يغلبهم اليأس تارة ، ويراودهم الأمـل تارة أخرى .

وفى أحد مطاعم بونيس آيرس ، جلس الرسام خبـير المخـابرات ، ليتنـاول سندوتشًا بعدما أرهقه التطلع إلى الوجوه فى شوارع المدينة ، وكاد أن يصرخ من الدهشة عندما جلست قبالته فتاة مليحـة ، يمسـك بيدهـا شـاب قمحـى اللـون جبهته تشبه إلى حد كبير جبهة عباس حلمى . لم يكن بحاجة لإخـراج صوره التى تخيل فيها ملامحه « بعد التعديل» منصتًا للحوار الدائر بينهما . وعندمـا التقطت أذناه بضع كلمات بالعربية ، غادر المكـان دون أن يثـير انتبـاه أحـد . تأكد أولاً من عدم وجود باب خلفى للمطعم ، ثم جلس فـى سيارته لأكـثر مـن ساعة فى انتظار العاشقين اللذين خرجا متخاصرين ليستقلا سيارتهما ، وينطلق

الرسام الخبير فى إثرهما بحذر ، إلى أن تصل الفتاة[1] لمنزلها ، وتقف سيارة صديقها بعد شارعين أمام منزل قديم مكـون مـن طـابقين ، ذى حديقـة مهملـة وباب حديدى صدئ لا يغلق .

نشط رجال الفريق وانتشروا كخلية من النحل يجمعون المعلومات عن الشاب الذى كان من المفترض أن يكون أصلعًا ، لكنـه كـان يتمتـع بشـعر طويـل لامـع منمق ، وبعد الغروب بقليل شوهد يغادر منزله فى كامل أناقته ، فتبعته إحدى السيارات بينما استعد خبير الاقتحام بمعداته ينتظر إشارة البدء .

بتتبعه عرف أن الهدف يحضر حفل زفاف عربى فى مدينة أفيلانيدا - ٣٥ كيلومتر جنوب بوينس آيرس - وفى هدوء بالغ دلف شبحان إلى حديقة المنزل، متسللين إلى الطابق العلوى ، اخرج أحدهما معداته وعالج « كالون » الشـقة .. لحظات وكانا بداخلها بينما تقف بالقـرب من المنزل سيارة « معطلة » يحـاول « قائدها » و « زميله » استبدال إطارها . وكانت أعينهما تجوبان المكان .

شهق ضابط المخابرات فجـأة عندمـا شـاهد أكوامًـا مـن جريـدة « الأهـرام » المصرية مبعثرة فى أركان الشقة، وفى درج مكتبـه كـانت هنـاك مفكـرة صغـيرة عندما قلب الضابط بعض صفحاتها تهلل وجهه وقال :

- « الحمد لله » .. إنه هو .

رد زميله مبهوتًا:

نعم .. أنظر .. هذه مسودة برقية لأسرته ينعى فيها وفاة والده .

- صحيح..؟

- نعم.. لقد كتب أرقام التليفونات بالشيفرة كما علموه فى إسرائيل.. لكنها شيفرة غبية وسهلة الحل.

قال هذا بينما شرع ينقل من المفكرة.

---

(١) مصادر إسرائيلية قالت بأنها كانت فتاة مصرية حسناء «عميلة » ساعدت على الإيقاع بالضـابط المنشـق. فى حين تردد أيضًا وهو الأصوب أن الفتاة كانت يهودية عراقية زجت بـها الموسـاد فـى طريـق الطيـار الخائف لاحتوائه ، والسيطرة على عواطفه وانفعالاته لدفعه إلى الزواج منها .

وفى البيت الآمن حلوا الشيفرة التى أكدت شخصيته ، فصلوا جميعًا لله شكرًا، وبدأوا فى توزيع الأدوار استعدادًا للقبض عليه ، كما صدرت أوامر لسفينة شحن مصرية بالتوجه إلى الأرجنتين فورًا . كانت السفينة قد أفرغت حمولتها فى ميناء « مونتفيديو[1] » وأبحرت بالمحيط الأطلنطى ، فعادت بعد ثلاثة ايام لإحضار « الكنز الثمين » الذى عثر عليه فى بونيس آيرس .

كان شهر يوليو رائعًا فى ذلك الوقت فى الأرجنتين ، تهب أغلب أيامه نسمات عليلة فتبعث البهجة فى نفوس رجال الفريق الذين استعدوا فى انتظار لحظة الصفر ، تلك اللحظة الحاسمة قد اقتربت بوصول طبيب التخدير من القاهرة.. وهاهو الخائن فى الملهى الليلى يلهو ويراقص الحسان ويشرب الخمر بلا خوف ، تحيطه خلية من الرجال . وخارج الملهى ينتظره آخرون .

كان يدندن لعبد الوهاب عندما قال له أحدهم وقد لعبت الخمر برأسه :

ـ إيه .. لبنانى ؟

أجاب:

ـ لا .. لا .. أردنى .

طوح الثمل بكأسه فى الهواء وهو يهتف :

ـ مرحبًا يا زين .. فى صحتك .

وسأله الخائن ، متخوفًا :

ـ وأنت.. ماذا تفعل فى الأرجنتين ؟

أجابه الثمل :

– أدرس السوق هنا.

---

(١) مونتفيديو Montevideo عاصمة وميناء أورجواى Uruguay الأول على بعد حوالى مائتى كيلومترًا من بوينس آيرس .

وبعد حديث طويل بينهما ، استشعر عباس حلمي أن هناك فائدة ما ستعود عليه من وراء هذا الشامي الثرى الذى تكلم كثيرًا عن أسراره وأفصح عن نياته.. وعند خروجهما أشار الثرى الثمل إلى سيارة تاكسي ، لكن عباس جذبه إلى سيارته وهو يقسم بالله أن يوصله لمنزل أخته على أطراف المدينة . وعندما وصلا إلى المنزل عجز الثمل عن المشي وكاد أن يسقط ، فعاونه نديمه الذى أحاطه بيديه ومشى به حتى باب المنزل المكون من طابق واحد .

وما أن انفتح الباب حتى أنقلب الثمل فجأة إلى وحش كاسر ، أنقض على عباس بقبضة من فولاذ ألقته أرضًا فاقد الوعى،فسحبه آخرون كانوا بانتظارهما إلى حجرة داخلية حيث قام طبيب التخدير بعمله . وفى مكان ما كان هناك صندوق كبير قد أعد إعدادًا خاصًا ليتسع لأثنين معًا : الطيار الخائن ضخم الجثة ، وطبيب التخدير النحيل جدا ، بحيث لا يؤدى إلى اختناقهما حتى ولو مكثا به لساعات طويلة . لكن لا أحد يعلم حتى اليوم، كيف أفلت الصندوق الخشبى الكبير من تفتيش رجال الجمارك هناك، إلى أن نقل لسطح الباخرة المصرية، بعد ١٦ ساعة فى جحيم الترقب ، كان الطبيب أثناءها يضع حقنة المخدر المجهز على « مساكة » خاصة ملتصقة بجدار الصندوق ، ويحمل سماعة طبية ، وجهازًا لقياس ضغط الدم علق بطريقة ما ، عاكفًا على متابعة « مريضه » المطلوب حيًا فى مصر .

غادرت الباخرة مياه الأرجنتين الإقليمية ، فتنفس الجميع الصعداء ، وسجدوا لله امتنانًا لنجاح مهمتهم ، وعلى عدة رحلات جوية إلى عواصم مختلفة، غادر المدينة أفراد الفريق ، بعد أن زف الخبر إلى القاهرة ، فتهللت القلوب بشرًا واستعد الجميع لاستقبال « الكنز الثمين » وبعد إبحار طويل وصلت السفينة إلى ميناء الدار البيضاء فى أغسطس ١٩٦٥ ، تحمل فى جوفها الخائن العميل . واختصارا للوقت غادرت القاهرة إلى المغرب طائرة نقل عسكرية لإحضاره .

كان الطيار الخائن قد غطى وجهه بكيس أسود يحجب عنه الرؤيا، بينما

قيدت يداه إلى الخلف ، حيث أقتيد فورًا إلى مبنى المخابرات المصرية ، وفي سرية بالغة أخضع لتحقيقات مطولة استغرقت عدة أسابيع أعترف خلالها بكل ما لديه من معلومات حيوية عن أجهزة الاستخبارات الإسرئيلية ، التي عمل بها لعدة أشهر ، وكشف استجوابه عن أسرار أمنية وعسكرية إسرائيلية خطيرة، بل وعن المجتمع الإسرائيلي نفسه .

كان في ذلك إجابة شافية للقارئ الذي قد يتساءل : لماذا لم تقتله مخابرتنا في الأرجنتين بدلاً من تكبد كل تلك المشاق ، واحتمالات الخطر المحتملة ؟ ونكمل أيضًا بقية الإجابة لنقول إن في اختطافه على مرأى من رجال الموساد والعودة به إلى القاهرة، إظهار لقوة مخابراتنا وذكاء رجالها في التخطيط والنفاذ، ورادع لكل من تسول له نفسه خيانة وطنه واللجوء للأعداء .. ! !

وفي بوينس آيرس عندما عثروا على سيارته في الأحراش كانت أثار الأقدام الواضحة ، تدل على انه غادر السيارة بمفرده . وكان لغزًا محيرًا بحق استدعى النشر على صفحات الجرائد هناك:

- « إختفاء مهندس أردني فجأة في ظروف غامضة » .

- « العثور على سيارته خارج بوينس آيرس .. وأثار أقدامه بجانبها » .

- « السفارة الأردنية تصرح بأن المهندس المختفي ليس أردنيًا ، وتؤكد أن جواز سفره مزيفًا » .

- « لغز كبير وراء اختفاء المهندس الشاب » .

- « صديقته توكد بأنه اختطف » .

كان هناك سباق محموم للكشف عن الحقيقة في بوينس آيرس . تلك الحقيقة لا يعرفها سوى المخابرات المصرية التي استردت عميلاً خائنًا لمحاكمته، والمخابرات الإسرائيلية التي صعق كبراؤها ، وأضيرت سمعة « كفاءتها » بين أجهزة المخابرات الدولية، فقد سبق أن تباهت الموساد كثيرًا

بعملية خطف آيتشمان من الأرجنتين، ووضعت بذلك على رأس سائر أجهزة المخابرات ، لكن هاهى الاستخبارات المصرية تحت سمع وبصر رجال الموساد – ووسط نصف مليون يهودى – تقوم بعملية استخباراتية جريئة وماهرة من حيث التخطيط والأداء ، تفوق كثيرا ولأسباب متعددة ما فعله الإسرائيليون .

فرجال الموساد عندما قاموا بعمليتهم لم يكن هناك سوى السلطات الأرجنتينية التى قد تكشف العملية التى جرى التخطيط لها سنوات طويلة . أما رجال المخابرات المصرية، فقد كانوا حريصين على ألا يراهم عملاء الموساد الذين يراقبون عباس حلمي، إلى جانب السلطات المحلية ، وأنهوا العملية خلال زمن قياسي يعد معجزة بحق .

لذلك ، جاءت الصفعة عنيفة على « قفا » الاستخبارات الإسرائيلية وأدت إلى تخبطها فى البداية ، وعدم ثقتها فى قيام المخابرات المصريين بهذه الخبطة الناجحة الذكية ، لكن الدلائل كانت واضحة ، برهنت على عبقرية ضابط المخابرات المصرى ، الذى بدأت تحذره إسرائيل وتعمل له ألف حساب . وفى النهاية ، أحيل الخائن إلى المحكمة العسكرية التى أصدرت حكمها بإعدامه رميًا بالرصاص .

رصاصة الرحمة

قبع الخائن بين جدران زنزانته بالسجن الحربى ينتظر نهايته التى كان يعرفها ، فقد كان من المستحيل ألا يصدق وزير الحربية أو القائد الأعلى للقوات المسلحة على حكم الإعدام الذى صدر بحقه ، فالجريمة التى اقدم عليها كانت جريمة بشعة أرتكبها فى حق وطنه وفى حق الجيش المصرى الذى قال رسول الله ﷺ عن جنوده أنهم خير أجناد الأرض .

كان يعلم أن التصديق على الحكم لن يستغرق فترة طويلة ، لذلك طلب من مدير السجن أن يسمح له بقلم وأوراق ليكتب رسائل إلى أسرته ، فاستجيب إلى طلبه ، وحوت رسائله استعطافًا لأهله لكى يراهم . وأثناء انتظاره المؤلم زاره فى

زنزانته مدير السجن الحربى ، تحمل قسمات وجهه الصارمة ما كـان يترقبـه. وسأله الضابط :

- هل أنت بخير يا عبـاس .. ؟ وهـل لديـك أى شـكوى تريـد أن تعرضـها علىّ؟؟ .

لكن عباس الذى أرتجف بدنه وهوت به ساقاه قال متلعثمًا :

-هل تحدد الموعد يا سيدى .. ؟ أهو غدًا .. ؟

وبذات الوجه الجامد الذى يحمل فى أعماقه روح الإنسان، أجابه الضابط :

- إن زيارتى لك روتينية لا علاقة لها بشـئ .. فقـط أردت أن أطمئـن علـى أحوالك ، مذكرًا إياك بأن من حقك أن تطلب ما تريد .

كانت الأمور قد التبست بعقله ولم يعـد الطيـار الخـائن يسـتوعب مـا يـدور حولـه بشـكل صحيـح . فالخطابـات المفتوحـة التـى سـطرها لأهلـه لم تذهـب بالبريد، بل حملها بنفسه مندوب عسكرى إضافة إلى تصريح عسكرى بالزيارة، وكانت محددة ساعة وتاريخًا ، بمـا يفـهم منـه أن تنفيـذ الحكـم بـالإعدام قـد تحددت ساعته .

وطوال الليل فقد عباس رغبته فى النوم ، حيث بقى ملتاعًا تسمع فـى الممـر همهمات نشيجه ، مكتومًا فى أحد أركان زنزانتـه تـارة يشـرد بعقلـه ، وتـارة أخرى يفيق ليضرب رأسه فى الحائط الصخرى الأملس البارد ، أو يلطم نائحًـا نادمًا يلسعه الخوف من الساعات القادمة .

وما إن اخترق ظلام زنزانته شعاع الصبح ، حتى هب واقفًا وقد الصـق أذنـه بالباب يصغى لصدى خطوات الحرس ، ويخمن اتجاهاتها ، حتى اختلط عليه الأمر عندما سمع خطوات أقدام غفيرة تقـترب ناحيتـه ، فضـرب البـاب واهنًـا هلعًا ويأسًا ، ومع توقف الخطوات أمام الباب وسماع شخشخة المفـاتيح ، صـرخ بكل قوته المتهالكة وهو يتراجع إلى الوراء محتميًا بالوهم ، عندئذ انفتـح البـاب عن جمع من الضباط والحرس ، وأقترب منه جنديان أمسكا بمنكبيه فــى بـأس قبلما يسقط خائرًا ، وجَرَّاهُ جرًا وهو يردد فى وهن :

- أبويا .. أبويا .. أسف يا أبويا .. ! !

تقدم منه رجل الدين بوقار أشعره بالسكينة ، وربت على كتفه بحنان ثم حثه على أن يتوضأ ويصلى ، لكنه نسى كيف يتوضأ .. بل كان يهذى بكلمات غير مفهومة تنطلق من بين زبد تجمع حول زاويتى فمه وعجز تماما عن الصلاة خلف الإمام .

تليت عليه لائحة الاتهام وحيثيات الحكم ومصادقات الموافقة على إعدامه ، وسئل عما يطلبه بشرط ألا يؤخر التنفيذ ، فألح أن يرى أهله ، لكن قيل له بأنهم فعلوا الكثير لكى يقنعوهم بالمجئ لرؤيته ، إلا أنهم ، وبلا استثناء ، رفضوا أن يروه عند ذلك طلب راجيا العمل على إقناع أهله باستلام جثته ودفنها فى مقابر العائلة ، فتلقى وعدا بذلك .

وعندما اقتيد إلى الساحة الخاصة بتنفيذ الحكم ، كان ما يزال يتلفت حواليه لعله يراهم فى أخر لحظة . لكن الكيس الأسود الذى ألبس أياه حجب عنه رؤية أى شئ .. فانهارت بقاياه وجرّوه من جديد إلى عمود التنفيذ مكبل اليدين ، ووضعت قماشة التنشين على صدره ، وهى بمقاس ٨ × ٦ سنتيمتر ، بينما كانت صرخاته الخائرة لا تتوقف ، حتى أنه بال على نفسه فى ذات اللحظة التى أشار فيها قائد الفريق لجنوده بإطلاق النار .. واختفى الصراخ عندما مالت الرأس إلى الأمام ، وانهمد الجسد مع زخات الرصاص التى خرجت باتجاهه .

كان يشهد عملية الإعدام حشد من المسئوليين العسكريين ، إضافة إلى بعض الضباط من أفرع الجيش المختلفة الذين تمت دعوتهم ، ورأوا جميعًا قائد فريق التنفيذ وهو يحمل مسدسه ويقترب من عباس حلمى ، فيوجه فوهته ناحية راسه المنكفئة مطلقاً رصاصة الرحمة التى اخترقت جمجمته واستقرت بالداخل . ومن بعده أقترب طبيب السجن من المحكوم عليه لقياس النبض ، وعند إعلانه الوفاة المؤكدة ، ينصرف الجميع ليدخل فريق آخر مسئوليته استلام الجثة لإتمام إجراءات ما بعد الموت.. ! !

(٢) المقدم فاروق الفقى

النموذج الغريب للحب والخيانة والموت

بسبب الحب تحول إلى عميل ناشط للموساد، يبث رسائله باللغة السرية عن القواعد العسكرية والمطارات ومنصات الصواريخ. وإذا كانت نهاية حبيبته عجيبة ومثيرة، فإن نهايته كانت الأعجب .. !!

منذ أن كتب الأستاذ صالح مرسى قصة « عبلة كامل » فى « الصعود إلى الهاوية » وصورة هذه الخائنة مرتسمة فى خيالنا.. وحفظنا تفاصل تجنيدها وخيانتها حتى سقطت فى قبضة المخابرات المصرية هى وخطيبها.

والجديد هنا فى قصة عبلة كامل.. أو « هبة سليم » الحقيقية.. معلومات جديدة تمامًا كشف عنها مؤخرًا.. كانت خافية حتى بضع سنوات خلت.. عن شريكها الضابط العسكرى المقدم فاروق الفقى.

إنها قصة مثيرة وعجيبة لأول جاسوسة عربية.. عملت لصالح الموساد ليس لأجل المال أو الجاه أو أى شىء سوى الوهم.. الوهم فقط..

فكانت بذلك أول حالة شاذة لم تماثلها حالة أخرى من قبل.. أو بعد.. ! ![1]

حقائق ثابتة

لم تدخر المخابرات الإسرائيلية وسيلة عند تجنيدها للجواسيس إلا وجربتها. وأيضًا – لم تعتمد على فئة معينة من الخونة بل جندت كل من صادفها منهم واستسهل بيع الوطن بثمن بخس وبأموال حرام وكان أشهر هؤلاء على الإطلاق – هبة عبد الرحمن سليم عامر – وخطيبها المقدم فاروق عبد الحميد الفقى.

إنها إحدى أشرس المعارك بين المخابرات الحربية المصرية والمخابرات الإسرائيلية. معركة أديرت بذكاء شديد وبسرية مطلقة، انتصرت فيها المخابرات المصرية فى النهاية وأفقدت العدو توازنه، وبرهنت على يقظة هؤلاء الأبطال الذين يحاربون فى الخفاء من أجل الحفاظ على أمن الوطن وسلامته.

لقد بكت جولدا مائير حزنًا على مصير هبة التى وصفتها بأنها « قدمت لإسرائيل أكثر مما قدم زعماء إسرائيل » . وعندما جاء هنرى كيسنجر وزير

---

(١) نشرها المؤلف تحت عنوان : (القصة الحقيقية للملكة الجاسوسية المتوجة)، بجريدة اللواء العربى الأسبوعية الحلقة رقم (٣٠) فى سلسلة حلقات (المخابرات والجاسوسية فى القرن العشرين) بتاريخ ١١ مارس ١٩٩٨. جاءت القصة أيضًا بكتاب : (جواسيس الموساد والعرب) الذى صدر للمؤلف .

الخارجية الأمريكي ليرجو السادات تخفيف الحكم عليها، كانت هبة تقبع في زنزانة انفرادية لا تعلم أن نهايتها قد تحددت بزيارة الوزير الأمريكي.

هكذا تنبه السادات فجأة إلى أنها قد تصبح عقبة كبيرة في طريق السلام، فأمر بإعدامها فورًا ليسدل الستار على قصة الجاسوسة التي باعت مصر ليس من أجل المال أو الجنس أو العقيدة.. إنما لأجل دافع أيديولوجي محض، أزكى الوهم الذي سيطر على عقلها وصور لها بأن إسرائيل دولة عظيمة لن يقهرها العرب، وأن جيشها من المستحيل زحزحته عن شبر واحد من سيناء، وذلك لأن العرب أمة متكاسلة أدمنت الذل والفشل. فتفرقت صفوفهم ووهنت قوتهم.. إلى الأبد !!

آمنت هبة بكل هذه الخرافات، ولم يستطع والدها ،رئيس البعثة التعليمية المصرية في ليبيا، أن يمحو أوهامها أو يصحح لها خطأ هذه المفاهيم.

ولأنها تعيش في حي المهندسين الراقي وتحمل كارنيه عضوية في نادي « الجزيرة » – أشهر نوادي القاهرة – اندمجت في وسط شبابي لا تثقل عقله سوى أحاديث الموضة والمغامرات. وبرغم هزيمة ١٩٦٧ الفادحة والمؤلمة للجميع.. إلا أن هبة انخرطت في « جروب» من شلة أولاد الذوات تسعى خلف أخبار الهيبز، وملابس الكاوبوي وأغاني ألفيس بريسلي.

وعندما حصلت على الثانوية العامة ألحت على والدها للسفر إلى باريس لإكمال تعليمها الجامعي في السوربون. فالغالبية العظمى من شباب النادي من أبناء الهاي لايف، كانوا لا يدخلون الجامعات المصرية ويفضلون جامعات أوروبا المتحضرة[١].

وأمام ضغوط الفتاة الجميلة وحبات لؤلؤ مترقرقة سقطت على خديها، وافق الأب وهو يلعن هذا الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ولابد من مسايرة عاداته وتقاليده.

حتى وهي في باريس لم تنبهر الفتاة كثيرًا. فالحرية المطلقة التي اعتادتها

---

(١) تردد أيضا أنها ذهبت إلى باريس في منحة دراسية بجامعة السوربون بعد حصولها على مؤهل جامعي من جامعة القاهرة .

فى مصر كانت مقدمة ممتازة للحياة وللتحرر فى باريس عاصمة النور.

ولأنها درست الفرنسية منذ طفولتها، فقد كان من السهل عليها أيضًا أن تتأقلم بسرعة مع هذا الخليط العجيب من البشر. وفى الجامعة كانت تختلف كل الصور عما ترسب فى مخيلتها.. إنها الحرية بمعناها الحقيقى، الحرية فى القول والتعبير وفى اختيار المواد الدراسية بل وفى مواعيد الامتحان أيضًا، فضلا عن حرية العلاقة بين الجنسين التى عادة لا تقتصر على الحياة الجامعية فحسب، بل تمتد خارجها فى شمولية ممتزجة باندفاع الشباب والاحتفاء بالحياة.

وجمعتها مدرجات الجامعة بفتاة يهودية من أصول بولندية، دعتها ذات يوم لسهرة بمنزلها، وهناك التقت بلفيف من الشباب اليهودى الذى تعجب لكونها مصرية جريئة لا تلتفت إلى الخلف، إنما تنطلق فى شراهة تمتص رحيق الحرية غير مبالية بحالة الهزيمة العسكرية التى تخيم على بلدها، وتهيمن على الحياة بها.

لقد أعلنت صراحة فى شقة البولندية أنها تكره الحرب، وتتمنى لو أن السلام عم المنطقة. وفى زيارة أخرى أطلعتها زميلتها على فيلم يصور الحياة الاجتماعية فى إسرائيل، وأسلوب الحياة فى « الكيبوتز»[1] وأخذت تصف لها كيف أنهم ليسوا وحوشًا آدمية كما يصورهم الإعلام العربى، بل هم أناس على درجة عالية من التحضر والديمقراطية.

وعلى مدار لقاءات طويلة مع الشباب اليهودى والامتزاج بهم بدعوى الحرية التى تشمل الفكر والسلوك.. استطاعت هبة أن تستخلص عدة نتائج تشكلت لديها كحقائق ثابتة لا تقبل السخرية. أهم هذه النتائج أن إسرائيل قوية جدًا وأقوى من كل العرب، وأن أمريكا لن تسمح بهزيمة إسرائيل فى يوم من الأيام بالسلاح الشرقى. ففى ذلك هزيمة لها.

آمنت هبة أيضًا بأن العرب يتكلمون أكثر مما يعملون. وقادتها هذه النتائج

---

(١) كيبوتز: Kibbuts : مستوطنة جماعية تقوم فى الأساس على الزراعة، ثم تحولت تدريجيا صوب الصناعة.

إلى حقد دفين على العرب الذين لا يريدون استغلال فرصة وجود إسرائيل بينهم ليتعلموا كيفية اختزال الشعارات إلى فعل حقيقي. وأول ما يبتدأون به هو نبذ نظم الحكم التى تقوم على ديمقراطية كاذبة وعبادة للحاكم. كما وثقت هبة في أحاديث ضابط الموساد الذى التقت به في شقة صديقتها وأوهمها باستحالة أن ينتصر العرب على إسرائيل وهم على خلاف دائم وتمزق خطير، في حين تلقى إسرائيل الدعم اللازم فى جميع المجالات من أوروبا وأمريكا.

الشك المجنون

كانت هذه الأفكار والمعتقدات التى اقتنعت بها الفتاة سببًا رئيسيًا لتجنيدها للعمل لصالح الموساد دون إغراءات مادية أو عاطفية أثرت فيها، مع ثقة أكيدة في قدرة إسرائيل على حماية « أصدقائها » وإنقاذهم من أى خطر يتعرضون له في أى مكان من العالم.

هكذا عاشت الفتاة أحلام الوهم والبطولة، وأرادت أن تقدم خدماتها لإسرائيل طواعية ولكن.. كيف ؟ الحياة فى أوروبا أنستها هواء الوطن والنيل وأغانى عبد الحليم حافظ الوطنية وبرج القاهرة الذى بناه عبد الناصر من أموال المخابرات الأمريكية.

فقط تذكرت فجأة المقدم فاروق الفقى الذى كان يطاردها فى نادى الجزيرة، ولا يكف عن تحين الفرصة للانفراد بها وإظهار إعجابه الشديد ورغبته الملحة فى الزواج منها. لقد ملت كثيرًا مطارداته لها فى النادى وخارج النادى، وكادت يومًا ما أن تنفجر فيه غيظًا فى التليفون وذلك عندما تلاحقت أنفاسه اضطرابًا وهو يرجوها أن تشعر به. مئات المرات قال لها: أعبدك.. أحبك.. أهواك يا عصفورتى ، لكنها كانت كحدأة قاسية.

تذكرت هبة هذا الضابط الولهان، وتذكرت موقعه الحساس فى القوات المسلحة المصرية[1]، وعندما أخبرت ضابط الموساد عنه.. كاد أن يطير بها

---

(١) تردد أن أصوله من بنها، وأن والده كان أستاذًا للغة الفرنسية. وهو ضابط مهندس شغل مركزًا هامًا بالجيش، وكان على اطلاع كامل بكل ما يتصل ببناء حائط الصواريخ أيام حرب الاستنزاف، كذلك كان على=

فرحًا، ورسم لها خطة اصطياده.

وفى أول إجازة لها بمصر.. كانت مهمتها الأساسية تنحصر فى تجنيده.. وبأى ثمن. وكان الثمن خطبتها له. وفرح الضابط العاشق بعروسه الرائعة التى فاز بها أخيرًا. وبدأت تدريجيًا تسأله عن بعض المعلومات والأسرار الحربية وبالذات مواقع الصواريخ الجديدة التى وصلت من روسيا فكان يتباهى أمامها بأهميته ويتكلم فى أدق الأسرار العسكرية.

ولما تبينت إسرائيل خطورة وصحة ما تبلغه هذه الفتاة لهم.. اهتموا بها اهتمامًا يفوق الوصف. حيث بدأوا فى توجيهها إلى الأهم فى تسليح ومواقع القوات المسلحة وبالذات قواعد الصواريخ، والخطط المستقبلية لإقامتها.

وسلمتهم هبة مرة ثانية عدة صفحات دونت بها معلومات غاية فى السرية والأهمية للدرجة التى حيرت المخابرات الإسرائيلية. فماذا سيقدمون مكافأة للفتاة الصديقة ؟

سؤال كانت إجابته عشرة آلاف فرنك فرنسى حملها ضابط الموساد إلى الفتاة مع وعد بمبالغ أكبر وهدايا ثمينة وحياة رغدة فى باريس.

رفضت هبة النقود بشدة وقبلت فقط السفر إلى القاهرة على نفقة الموساد بعد ثلاثة أشهر من إقامتها بباريس.

كانت الوعود البراقة تنتظرها فى حالة إذا ما جندت خطيبها ليمدهم بالأسرار العسكرية التى تمكنهم من اكتشاف نوايا المصريين تجاههم. ولم يكن المقدم فاروق بحاجة إلى التفكير فى التراجع. فالحبيبة الرائعة كانت تعشش بقلبه وتستحوذ على عقله، حتى أنه لم يعد يملك بالأصل عقلاً ليفكر، بل طاعة عمياء سخرها لخدمة إرادة حبيبته.

وعندما أخذها فى سيارته الفيات ١٢٤ إلى صحراء الهرم.. كان خجولاً لفرط

= علم بمنظمة سيناء وأفرادها وتحركاتها خلف خطوط العدو فى سيناء للقيام بعمليات محددة، فزعزعت استقرار العدو ونسفت الكثير من خطوط إمداده ومخازنه وقواعده ومطار العريش أيضًا، وكان لهذه العمليات الأثر الكبير فى رفع معنويات الجيش المصرى بعد الهزيمة التى منى بها فى ١٩٦٧.

جرأتها معه، لكنها ادعت بين ذراعيه أنها لم تصادف رجلاً قبله أبدًا، مبدية رغبتها فى قضاء يوم كامل معه فى شقته. ولم يصدق أذنيه، فهو قد ألح عليها كثيرًا من قبل لكنها كانت ترفض بشدة. الآن تعرض عليه ذلك بحجة سفرها. وفى شقته بالدقى تركت لعابه يسيل. وجعلته يلهث ضعفًا وتذللاً. فطار عقله، وصرخ كطفل فقد أمه فى لحظة الجوع، ولكنها.. هيهات أن تمنحه كل ما يريد. إذ حجبت عنه رعشة الوطر وأحكمت قيدها حول رقبته، فمشى خلفها ككلب يتبع سيدته أينما سارت..

وهكذا سقط ضابط الجيش المصرى في بئر الشهوة، ووقَّع منذ تلك اللحظة وثيقة خيانته، ليصير فى النهاية عميلاً للموساد.. وتتسلم هبة وثائق وخرائط عسكرية موضحًا عليها منصات الصواريخ « سام ٦ » المضادة للطائرات، تلك التى كان الجيش يتسعى ليل نهار لنصبها لحماية أجواء مصر من غارات العمق الإسرائيلية.

بعدها، لاحظت القيادة العامة للقوات المسلحة، أن مواقع الصواريخ الجديدة تدمر أولاً بأول بواسطة الطيران الإسرائيلى حتى قبل أن يجف الأسمنت المسلح بها، وحدوث خسائر جسيمة فى الأرواح، وتعطيل فى تقدم العمل وإنجاز الخطة التى وضعت لإقامة حائط من الصواريخ المضادة للطائرات. تزامنت تلك الأحداث أيضًا مع وصول معلومات لرجال المخابرات المصرية بوجود عميل قام بتسريب معلومات سرية جدًا إلى إسرائيل. وبدا شك مجنون فى كل شخص ذى أهمية فى القوات المسلحة، وفى مثل هذه الحالات لا يستثنى أحد بالمرة بدءًا من وزير الدفاع.

فى أحد أعداد روزاليوسف، يقول عيسى سراج الدين سفير مصر فى كوبنهاجن.. ووكيل وزارة الخارجية بعد ذلك :

(اتسعت دائرة الرقابة البريدية والتليفونية لتشمل دولاً كثيرة، مع رفع نسبة المراجعة والرقابة إلى مائة فى المائة من الخطابات وغيرها، كل ذلك لمحاولة كشف الكيفية التى تصل بها هذه المعلومات إلى الخارج. كما بدات رقابة قوية وصارمة على حياة وتصرفات كل من تتداول أيديهم هذه المعلومات من القادة،

وكانت رقابة لصيقة وكاملة. وقد تبينت طهارتهم ونقاءهم.

ثم أدخل موظفو مكاتبهم فى دائرة الرقابة ومساعدوهم ومديرو مكاتبهم وكل من يحيط بهم مهما صغرت أو كبرت رتبته).

فى تلك الأثناء كانت هبة سليم تعيش حياتها بالطول وبالعرض فى باريس. عرفت الخمر والتدخين وعاشت الحياة الأوروبية بكل تفاصيلها. وكانت تشعر فى قرارة نفسها بأنها خلقت لتعيش فى أوروبا. حتى أنها كانت تكره مجرد مرور خاطرة سريعة تذكرها بمصريتها.

لقد نزفت عروبتها نزفًا من شرايين حياتها، وتهللت بشرًا عندما عرض عليها ضابط الموساد رحلة خاصة لزيارة إسرائيل .

لم تصدق هبة سليم ما سمعته، ومدى اهتمام الإسرائيليين بها إلى هذه الدرجة. ووصفت هى بنفسها تلك الرحلة قائلة :

(طائرتان حربيتان رافقتا طائرتى كحرس شرف وتحية لى. وهذه إجراءات تكريمية لا تقدم أبدًا إلا لرؤساء وملوك الدول الزائرين. حيث تقوم الطائرات المقاتلة بمرافقة طائرة الضيف حتى مطار الوصول.

وفى مطار اللد جنوبى تل أبيب كان بانتظارى عدد من الضباط بجوار سيارات ليموزين سوداء تقف أسفل جناح الطائرة، وعندما أدوا التحية العسكرية لى تملكنى شعور قوى بالزهو. واستقبلنى « زيفى زامير » رئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية وأقام لى حفل استقبال ضخم ضم نخبة من كبار ضباط الموساد، وعندما عرضوا تلبية كل « أوامرى » طلبت مقابلة جولدا مائير رئيسة الوزراء، حيث وجدت على مدخل مكتبها صفًا من عشرة جنرالات إسرائيليين أدوا لى التحية العسكرية، وقابلتنى مسز مائير ببشاشة ورقة وقدمتنى إليهم قائلة : (إن هذه الآنسة قدمت لإسرائيل خدمات أكثر مما قدمتم لها جميعًا مجتمعين).

وبعد عدة أيام فى إسرائيل عدت إلى باريس لا أصدق أن هذه الجنة « إسرائيل» يتربص بها العرب ليدمروها). ! !

وفى القاهرة.. كان البحث لا يزال جاريًا على أوسع نطاق، والشكوك تحـوم حول الجميع، إلى أن اكتشف أحد مراقبى الخطابات الأذكياء « من المخـابرات المصريـة » خطابًـا عاديًـا مرسـلاً إلى فتـاة مصريـة فـى بـاريس سـطوره تفيـض بالعواطف من حبيبها. ولكن الذى لفت انتباه المراقب الذكى عبارة كتبها مرسل الخطاب تقول إنه قام بتركيب إيريال للراديو الذى عنده. ذلك أن عصر إيريـال الراديـو كـان قـد انتـهى. إذن.. فالإيريـال يخـص جـهازًا لاسـلكيًا للإرسـال والاستقبال.

وانقلبت الدنيا فى جهازى المخابرات الحربية والعامة فى سباق مـع الزمـن. فالخطاب يحمل توقيع « فورمة » لا يمكن الاستدلال من خلاله على شخصية المرسل. أما الفتاة التى بباريس فكان من المستحيل إشعارها بـأى شـىء، حيـث تلازمت التحريات السـرية حولهـا فـى فرنسـا ومصـر فـى الوقـت نفسـه الـذى اتخذت فى القاهرة إجراءات أخرى صارمـة، حيـث تشـكلت علـى الفـور عـدة لجان من ضباط المخابرات، ومع كل لجنة وكيـل نيابـة ليصـدر الأمـر القـانونى بفتح أى مسكن وتفتيشه. وكانت الأعصاب مشدودة حتى أعلى المسـتويات فـى انتظار نتائج اللجان، حتى عثروا على الإيريال فوق إحدى العمـارات، واتصـل الضباط فى الحال بـاللواء فـؤاد نصـار مديـر المخـابرات الحربيـة وأبلغـوه باسـم صاحب الشقة، فقام بإبلاغ الفريق أول أحمـد إسمـاعيل وزيـر الدفـاع (قبـل أن يصبح مشيرًا) فقام بدوره بإبلاغ الرئيس السادات، وكان الضابط الجاسـوس فـى ذلك الوقت فى مهمة عسكرية بعيدًا عن القاهرة.

وعندما اجتمع اللواء فؤاد نصار بقائد الضابط الخائن – (قيل بعـد ذلـك أنـه ضابط كبير لـه دور معروف فـى حـرب أكتوبر واشـتهر بخلافـه مـع الرئيـس السادات حول الثغرة) – رفض القائد أن يتصور حدوث خيانة بين أحـد ضبـاط مكتبه[1]. خاصة وأن المقدم فاروق يعمل معه منـذ تسع سـنوات، بـل وقـرر أن يستقيل من منصبه إذا ما ظهر أن رئيس مكتبه جاسوس للموساد.

---

(١) قيل أيضًا أن المعلومة التى حصل عليها عميل لمصر فى إسرائيل، تضمنـت الاسم الأول للضـابط الخـائن، فتم حصر كل الضباط المصريين فى القوات المسلحة الذين يبدأ اسمهم بـ: فـاروق، ثـم حصرهـم والـتركيز على من له صلة منهم ببناء حائط الصواريخ ومنظمة سيناء، حتى تم الإيقاع بالجاسوس..!!

وعندما دخل الخائن إلى مكتبه بعد انتهاء مأموريته.. كان اللواء حسن عبد الغنى نائب مدير المخابرات الحربية ينتظره جالسًا خلف مكتبه بوجه صارم وعينين قاسيتين، فقال الخائن الذى انهار فى الحال: « هو أنتم عرفتوا » ؟؟.

ألقى القبض عليه فاستقال قائده على الفور ولزم بيته حزينا على خيانة فاروق والمعلومات الثمينة التى قدمها للعدو.

وفى التحقيق اعترف الضابط الخائن بأن خطيبته التى بباريس جندته بعد قضاء ليلة حمراء معه، وأنه رغم اطلاعه على أسرار عسكرية كثيرة إلا أنه لم يكن يعلم أنها ستفيد العدو، كما أرشد عن جهاز اللاسلكى.

وفى سرية تامة، قدم سريعا للمحاكمة العسكرية التى أدانته بالإعدام رميًا بالرصاص. واستولى عليه ندما شديدا عندما أخبروه بأنه تسبب فى مقتل العديد من العسكريين من زملائه من جراء الغارات الإسرائيلية، وأخذوه فى جولة ليرى بعينيه نتائج تجسسه، فأبدى استعداده مرات عديدة لأن يقوم بأى عمل يأمرونه به قبل إعدامه ووجدوا – بعد دراسة الأمر بعناية – أن يستفيدوا من المركز الكبير والثقة الكاملة التى يضعها الإسرائيليون فى معلومات الضابط الخائن، وذلك بأن يستمر فى نشاطه كالمعتاد، خاصة والفتاة لم تعلم بعد بأمر القبض عليه والحكم بإعدامه.

وفى خطة بارعة من مخابراتنا الحربية، أخذوه إلى فيلا محاطة بحراسة مشددة، وبداخلها نخبة من أذكى وألمع رجال المخابرات لمصرية، حيث تولوا « إدارة » الجاسوس وتوجيهه، وإرسال الرسائل بواسطة جهاز اللاسلكى الذى أحضرته له الفتاة ودربته عليه. وكانت المعلومات التى ترسل من صنع المخابرات الحربية، وهى معلومات استراتيجية تم توظيفها بدقة متناهية فى تحقيق خطة الخداع، حيث كانت حرب أكتوبر قد اقتربت.

كان من الضرورى أيضًا الإبقاء على هبة فى باريس والتعامل معها بواسطة خطيبها، الذى قادته إلى الإعدام بالرصاص. إذ استمر الاتصال معها بعد القبض عليه لمدة شهرين، ولما استشعرت القيادة العامة أن الأمر أخذ كفايته، وان القيادة الإسرائيلية قد وثقت بخطة الخداع المصرية وابتلعت الطعم، تقرر

استدراج الفتاة إلى القاهرة بهدوء لكى لا تهرب إلى إسرائيل إذا ما اكتشف أمر خطيبها المعتقل.

وفى اجتماع موسع - وضعت خطة القبض على هبة وعهد إلى اللواء حسن عبد الغنى ومعه ضابط آخر بالتوجه إلى ليبيا لمقابلة والدها فى طرابلس حيث كان يشغل وظيفة كبيرة هناك. وعرفاه على شخصيتهما وشرحا له أن ابنته هبة التى تدرس فى باريس تورطت فى عملية اختطاف طائرة مع منظمة فلسطينية، وأن الشرطة الفرنسية على وشك القبض عليها وما يهم هو ضرورة هروبها من فرنسا لعدم تورطها، وعدم الزج باسم مصر فى مثل هذه العمليات الإرهابية. وطلبا منه أن يساعدهما بأن يطلبها للحضور لرؤيته حيث إنه مصاب بذبحة صدرية.

وبالفعل أرسل الوالد برقية لابنته، فجاء ردها سريعًا ببرقية تطلب منه أن يغادر طرابلس إلى باريس، حيث إنها حجزت له فى أكبر المستشفيات هناك وأنها ستنتظره بسيارة إسعاف فى المطار، وأن جميع الترتيبات للمحافظة على صحته قد تم اتخاذها.

ولكى لا تترك المخابرات الحربية ثغرة واحدة قد تكشف الخطة بأكملها.. أبلغت السلطات الليبية بالقصة الحقيقية، فتعاونت بإخلاص مع الضابطين من أجل اعتقال الجاسوسة المصرية. وتم حجز غرفة فى مستشفى طرابلس وإفهام الأطباء المسئولين مهمتهم وما سيقومون به بالضبط.

وبعدما أرسل والدها ردًا بعدم استطاعته السفر إلى باريس لصعوبة حالته.. صح ما توقعه الضابطان، إذ حضر شخصان من باريس للتأكد من صحة البرقية وخطورة المرض، ثم اتصلا فى الحال بالفتاة التى ركبت الطائرة الليبية فى اليوم التالى إلى طرابلس.

وعلى سلم الطائرة عندما نزلت هبة عدة درجات كان الضابطان المصريان فى انتظارها، وصحباها إلى حيث تقف الطائرة المصرية على بعد عدة أمتار من الطائرة الليبية، فسألتهما فى فزع وارتياب:

- إحنا رايحين فين؟ .

فرد أحدهما :

- المقدم فاروق عايز يشوفك .

فقالت :

- هو فين ؟!

فقال لها :

- فى القاهرة .

صمتت برهة ثم سألت :

- أمال إنتم مين؟ .

فقال اللواء حسن عبد الغنى:

- إحنا المخابرات المصرية !

وعندما أوشكت أن تسقط على الأرض.. أمسكا بها وحملاها حملاً إلى الطائرة التى أقلعت فى الحال، بعد أن تأخرت ساعة عن موعد إقلاعها فى انتظار الطائرة القادمة من باريس بالهدية الغالية.

لقد تعاونت شرطة المطار الليبى فى تأمين انتقال الفتاة لعدة أمتار حيث الطائرة المصرية، وذلك تحسبًا من وجود مراقب أو أكثر صاحب الفتاة فى رحلتها بالطائرة من باريس، قد يقدم على قتل الفتاة قبل أن تكشف أسرار علاقتها بالموساد.

وبلا شك.. فاعتقال الفتاة بهذا الأسلوب الماهر جعلها تتساءل عن القيمة الحقيقية للوهم الذى عاشته مع الإسرائيليين. فقد تأكدت أنهم غير قادرين على حمايتها أو إنقاذها من حبل المشنقة. وهذا جعلها تعترف بكل شىء بسهولة وبالتفصيل منذ أن بدأ التحقيق معها فى الطائرة بعد إقلاعها مباشرة. وبعد أيام قليلة من اعتقالها تبين لها وللجميع عجز الإسرائيليين عن حماية إسرائيل نفسها وعدم قدرتها على إنقاذها.

فقد جاءت حرب أكتوبر وتدمير خط بارليف بمثابة الصدمة التى أذهلت أمريكا قبل إسرائيل. فالخداع المصرى كان على أعلى مستوى من الدقة والذكاء. وكانت الضربة صائبة إذ أربكت العدو وأشلته، لولا المدد العسكرى الأمريكى

والأسلحة المتطورة والصواريخ السرية والمعونات، وإرسال الطيارين والفنيين الأمريكان كمتطوعين.

ويذكر السفير عيسى سراج الدين أن صديقًا له « دانماركى » أخبره بأن ثلاثة أفواج.. كل فوج مكون من ٣٥٠ طيارًا وفنيًا أمريكيًا.. وصلوا إلى كوبنهاجن وقضى كل فوج ليلة واحدة فى فندق "اسكندنافيا" على أطراف المدينة وذلك فى الفترة من ١٠ : ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ فى طريقهم إلى إسرائيل.

لقد خسرت إسرائيل فى ذلك الوقت من المعركة حوالى مائتى طائرة حربية. ولم تكن تلك الخسارة تهم القيادة الإسرائيلية بقدر ما خسرته من طيارين ذوى كفاءة عالية قتلوا فى طائراتهم، أو انهارت أعصاب بعضهم ولم يعودوا صالحين للقتال. ولقد سبب سقوط الطائرات الإسرائيلية بالعشرات حالة من الرعب بعد عدة أيام من بدء المعركة، إلى أن وصلت المعونات الأمريكية لإسرائيل فى شكل طيارين وفنيين ووسائل إعاقة وتشويش حديثة.

لا أحد يعرف

تبخرت أوهام الجاسوسة هبة سليم - وايقنت أنها كانت ضحية الوهم الذى سيطر على فكرها وسرى بشرايينها لمدة طويلة وظنت أنها تعيش الواقع من خلاله.. ولكن.. ها هى الحقائق تتضح بلا رتوش أو أكاذيب.. لقد حكم عليها بالإعدام شنقًا بعد محاكمة منصفة اعترفت أمامها بجريمتها وأبدت ندمًا كبيرًا على خيانتها. وتقدمت بالتماس لرئيس الجمهورية لتخفيف العقوبة ولكن رفض التماسها.

وكانت بالسجن تنتظر تنفيذ الحكم عندما وصل هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى - اليهودى الديانة - لمقابلة الرئيس السادات فى أسوان فى أول زيارة له إلى مصر بعد حرب أكتوبر. وحملته جولدا مائير رسالة إلى السادات ترجوه تخفيف الحكم على الفتاة.

ومن المؤكد أن كيسنجر كان على استعداد لوضع ثقله كله وثقل دولته خلف هذا الطلب. وتنبه الرئيس السادات الذى يعلم بتفاصيل التحقيقات مع الفتاة وصدور الحكم بإعدامها.. إلى أنها ستصبح مشكلة كبيرة فى طريق السلام. فنظر

إلى كيسنجر قائلاً: تخفيف حكم؟.. ولكنها أعدمت.. !!".

ودون أن ينظر لمدير المخابرات الحربية قال السادات كلمة واحدة:

ـ النهاردة .

وفهم مدير المخابرات إشارة السادات وفعلاً.. تم تنفيذ حكم الإعدام شنقًا فى هبة سليم فى اليوم نفسه فى أحد سجون القاهرة.

أما الضابط العاشق – المقدم فاروق عبد الحميد الفقى – فقد استقال قائده من منصبه أثناء الإعداد لحرب أكتوبر لأنه اعتبر نفسه مسئولاً عنه بالكامل. ولما طلبت منه القيادة العامة سحب استقالته، رفض بشدة . وعندما أصرت القيادة العامة على ضرورة سحب استقالته خاصة والحرب وشيكة، اشترط القائد للموافقة على ذلك أن يقوم هو بتنفيذ حكم الإعدام فى الضابط الخائن.

ولما كان هذا الشرط لا يتفق والتقاليد العسكرية وما يتبع فى مثل هذه الأحوال، فقد رفع طلبه إلى وزير الدفاع « الحربية » الذى عرض الأمر على الرئيس السادات « القائد الأعلى للقوات المسلحة » ، فوافق فورًا ودون تردد:

ـ ما فيهاش حاجة أبدًا.. ده ضابط خاين وباع بلده.. وخد حكم بالإعدام.. خللى القائد بتاعه يعدمه بمسدسه.. ، ما عنديش أى مانع يا أحمد !!

وعندما جاء وقت تنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص فى الضابط الخائن.. لا أحد يعرف ماذا كان شعوره قائده وهو يتقدم ببطء مخفيا مسدسه خلف ظهره.. يتذكر تسع سنوات مرت عليهما فى مكتب واحد.. تسع سنوات كانت بعضها فى سواد الليل وبعضها تتلألأ خلاله ومضات الأمل قادمة من بعيد.. الأمل فى الانتصار على اليهود الخنازير القتلة السفاحين.. لكن كان بمكتبه هذا الخائن الذى باع الوطن والأمن وقتل بخيانته أبرياء..

لا أحد يعرف ماذا قال القائد له، وماذا كان رد الضابط عليه.. لا أحد يعرف.

هل طلب منه أن ينطق بالشهادتين. وأن يطلب المغفرة من الله ؟.. لا أحد يعرف.. ولكن المؤكد أنه سحب مسدسه من الخلف وصوبه على رأس الضابط مطلقا الرصاص عليه. فى واحدة من أندر وأشهر حالات الإعدام رميًا بالرصاص فى مصر..!!

(٣) محمد أحمد حسن ..

ضحية نزواته

تصيده عميل الموساد
جان ليون توماس
لاحتياجه إلى المال..
وسيطر عليه بجسد امرأة..
فارشا له دروب الأمل
والثراء حتى أوصله إلى
فرقة تنفيذ الإعدام رميا
بالرصاص.. !!

محدودة جــدًا.. شـبكات الجاسوسـية الإسـرائيلية فـى مصـر، قياسًـا بعـدد الجواسيس الذى يعملون بمفردهم. وأشهر هـذه الشـبكات التـى نعرفـها ولاقـت شهرة واسعة.. شبكة التخريب التى تألّفت من يهود مصر، وفجّرت « فضيحــة لافون » عام ١٩٥٤ ، فأحدثت أزمة طاحنة فى إسرائيل حينذاك.

أما شبكة توماس – التى لم تأخذ ولو قدرًا ضئيـلاً مـن الشـهرة – فتعـد مـن أكبر الشبكات التى ضُبطت، وحجّمت كثيرًا من شـأن الموسـاد، وألقـت الضـوء مبهرًا على براعة المخابرات المصرية.

وخطورة هذه الشبكة تكمن فى تنوع أنشطتها وأهدافها، وكثرة عدد أعضاءها من المصريين والأجـانب، وكثافـة المعلومـات الحيويـة التـى نقلتـها لإسـرائيل، وأيضًا.. عمرها القصير جدًا الذى يقابله انتشار شرس محموم فى أكثر من دولة.

إنها بحق.. أشهر شبكات الجاسوسية التـى سـقطت فـى مصـر.. ولا يكـاد يعرفها أحد.. ! !

الصــياد والفريســة

فى فبراير عام ١٩٥٨ دخلت سوريا مع مصر فى اتحاد اندمــاجى، وعرفـت الدولتان باسم « الجمهورية العربية المتحدة» وكانت سوريا هى الإقليم الشمالى، ومصر هى الإقليم الجنوبى. ورأت إسرائيل فى هذا الاتحاد خطرًا عظيمًا يتــهدد أمنها فى الشمال والجنوب ومن الشرق أيضًا.

وحوصرت الدولة اليهودية بـالجيوش العربيـة ، ولم يتبـق لهـا سـوى البحـر الأبيض المتوسط – المنفذ الوحيد الآمن، فحصنته بالسـفن وبـالمدمرات، وزرعـت غواصاتـها بطـول السـاحل خوفًـا مـن حصـار هـذه الجبهـة بـالقوات البحريــة العربية، وأصبحت إسرائيل تعيش فى حالــة طـوارئ دائمـة لا تـدرى مـن أيـة جهة تأتيها الضربة الفجائية القاضية.

لذلك حرص ساستها – بواسطة أجهزة المخـابرات – علـى عرقلـة نمـو هـذا

التطويق العربى من الشمال والجنوب، ولعبت على كل الأوتار لإفشاله والقضاء عليه. ولم يكن بمستطاعها وقف الزحف العربى لإنقاذ فلسطين المغتصبة، سوى باللجوء إلى كل الحيل القذرة والتصرفات الوحشية لإرهاب العرب، وبث الدعايات المسمومة لإخافتهم، وتصوير الجندى الإسرائيلى والعسكرية الإسرائيلية كأسطورة فى الأداء والمهارة والقوة.

لذا فقد عمدت إلى ترسيخ هذا الاعتقاد لدى العرب بمحو ما يقرب من « ٢٩٣ » قرية فلسطينية وإزالتها من فوق الأرض والخريطة، وارتكاب أبشع المذابح فى التاريخ دموية وبربرية ضد العرب العزل فى فلسطين. هذا بجانب التكثيف الإعلامى والنشاط الدبلوماسى للحد من يقظة روح الجهاد، التى جاهدت قوى الاستعمار على إسكاتها بالضغط على العرب وسد أفواههم.. ومنع السلاح عنهم وإغراقهم فى مشاكل داخلية معقدة. كالجهل والتخلف والفقر والمرض.. وإثارة الثورات الداخلية طمعًا فى شهوة الوصول إلى الحكم.

كل ذلك أدى إضعاف الجيوش العربية فى حين كانت إسرائيل تتشكل وتقوى، وتغدق عليها الدول الاستعمارية الكبرى الأسلحة المتطورة الحديثة التى صنعت إسرائيل، وزرعتها فى قلب المنطقة العربية لتقسمها إلى نصفين - أفريقى وآسيوى - لا أمل فى التقائهما إلا بفناء إسرائيل.

من هنا كان الرعب الأكبر لإسرائيل حينما قامت الوحدة فى فبراير ١٩٥٨ بين الشطرين المنفصلين فى الشمال والجنوب، وربطهما اتحاد اندماجى وحكومة واحدة على رأسها الزعيم جمال عبد الناصر، خاصة بعدما فشل زعماء اتفاق « سيفر » بفرنسا فى العدوان الثلاثى الغاشم على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦، والذى انتهى بخيبة أمل إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، وانسحابهم يملأهم الخزى والعار أمام المجتمع الدولى.

لذلك كان على إسرائيل أن تراقب اتحاد الشطرين، بل وتسعى إلى معرفة أدق الأسرار عنهما.. لكى تحتاط إلى نفسها من مغبة تقويضها واجتياح الأرض السليبة فجأة.

وكان أن أرسلت إلى مصر وسوريا بأمهر صائدى الجواسيس.. للبحث عن خونة يمدونها بالمعلومات وبالوثائق السرية، فجندت مصريًا خائنًا من أصل أرمنى اسمه « جان ليون توماس » استطاع تكوين شبكة تجسس خطيرة فى مصر، وأرسلت إلى سوريا - إيلياهو كوهين - داهية الجواسيس على الإطلاق، وأسطورة الموساد الذى ظل جسده معلقًا فى المشنقة لأربعة أيام فى ميدان المرجة بدمشق.

والأرمن.. جالية أقلية استوطنت مصر هربًا من الاضطهاد والتنكيل الذى تعرض له الشعب الأرمنى.. وتعدادهم بالآلاف فى مصر.. امتزجوا بنسيجها الاجتماعى وتزاوجوا فيما بينهم فى البداية.. ثم اختلطت دماؤهم بالمصريين فى مصاهرة طبيعية تؤكد هذا الامتزاج والاستقرار، واحتفظوا فيما بينهم بعاداتهم وتقاليدهم وبلغتهم الأصلية.

وتشير بعض المصادر أن تعدادهم فى مصر يصل إلى مائة ألف أرمنى، يتمتعون بالجنسية المصرية وبكامل الحقوق، وسمحت لهم السلطات بإصدار صحيفة باللغة الأرمينية، تدعم ترابطهم وتذكرهم بجذورهم.

اشتهر عن الأرمن أنهم أناس درجوا على العمل والكفاح والاشتغال بالتجارة، لذلك.. فأمورهم الحياتية والمادية ممتازة.. خاصة بعدما هيأ لهم المناخ المستقر فى مصر فرص الانطلاق والنجاح.

وكان « جان ليون توماس » أحد أبناء هذه الجالية، وقد عمل بالتجارة والاستيراد والتصدير، واستطاع بعد عدة سنوات أن يجمع ثورة طائلة تؤمن له مستقبلاً رائعًا.. تدفعه إليه زوجته الألمانية « كيتى دورث » فتغلغل داخل أوساط المجتمع الراقى يزهو بثمرة كده واجتهاده.. ولظروف عمله وقرابته تعددت سفرياته إلى ألمانيا (الغربية) لإنجاز أعماله.

هناك.. اقترب منه أحد صائدى الجواسيس المهرة، واشتم فيه رائحة ما، غالبًا هى نقطة ضعف من خلالها يستطيع الالتفاف حوله.. وتجنيده، لاسيما

بعد تأكده من أن له علاقات واسعة فى مصر.

ولم تخب حاسة الشم لدى ضابط المخابرات الإسرائيلى الذى يتستر وراء شخصية رجل أعمال. إذ اكتشف هواية خاصة جدًا عند توماس.. وهى عشقه للجنس مع الأطفال الصغار. ففى غمرة مشاغله وأعماله، سرعان ما ينقلب إلى ذئب شره يبحث عن فريسة تشبه نهم شذوذه.

كان توماس بالفعل يعانى من هذا الداء[1]، ويصاب أحيانًا بتوترات عصبية وتقلبات مزاجية حادة، تظهر عادة فى صورة ثورة على زوجته الجميلة.. التى لم تكن تدرك السبب الحقيقى فى هروب الخادمات صغيرة السن من بيتها، ولا يعدن إليه مرة ثانية ؟ وفشلت كثيرًا فى الوصول إلى إجابة منطقية لذلك.

بياتريشيا اللذيذة

ولكى يزجوا به داخل دائرة الجاسوسية من أوسع الأبواب.. قذفوا إليه بطفلة يهودية يتيمة فى العاشرة من عمرها، طرقت باب شقته فى فرانكفورت، ولأنهم زرعوا الكاميرات والأجهزة السرية بها واتخذوا من الشقة المجاورة مكمنًا لتسجيل ما سيحدث.. أذهلتهم أغرب مطاردة بين جدران الشقة الصغيرة، بين توماس الذئب الجائع.. والطفلة الضعيفة التى كانت تبكى متوسلة إليه، فيتوسل هو إليها ألا تتركه يعانى أكثر من ذلك.

كان عارى الصدر، يتصبب منه العرق الغزير وترتجف خلجات وجهه، وبدا فى قمة ضعفه عندما هجم على الطفلة، وصفعها فى عنف فانخرست من الخوف، وشرع فى الحال فى تجريدها من ملابسها ثم تحرر بسرعة من ملابسه كأنه لا يصدق أن فريسة بين يديه، واحتضنها فى لهفة الجائع وهو يأمرها ألا تصده، أو تعترض على سلوكه معها.

---

(١) عشق الأطفال Pedophilia – تعنى حب مجامعة الصغار من الجنسين، وهذا المرض يظهر غالبًا فى الضعاف من الناس والعاجزين جنسيًا.

عندئذ فوجئ برجال غرباء يبدو الشر واضحًا على وجوههم، انتزعوا الطفلة « الطعم » من بين يديه فانزوت ترتجف.. بينما أخذ يرجوهم ألا يصحبوه عاريًا للشرطة. وأطلعوه، بالصوت والصورة، على أدلة شذوذه، فانهار.. ووقع فى لمح البصر على عقد يقر فيه بتعاونه مع الموساد، وأنه على استعداد تام لتنفيذ ما يكلف به.

هذه هى الموساد.. تتبع أقذر الحيل للسيطرة على عملائها وإخضاعهم، وهذا ليس بأمر جديد على المخابرات الإسرائيلية، فلا شئ يهم طالما ستحقق مآربها وتجند ضعاف النفوس فى كل زمان ومكان.

ففى قمة مذلته وضعفه لم تكن لدى توماس القدرة على أن يفكر أو يقرر شيئًا إذ إن إرادته قد شلت.. وانقلب إلى شخص آخر بلا عقل.. غلفته المحنة وأرهقته الصدمة . وبسهولة شديدة استسلم لضباط خبراء يتحكمون بأعصابه.. حيث اجتهدوا فى تدريبه وإحكام سيطرتهم عليه، وكتب فى عدة صفحات بيده كل ما لديه من معلومات اقتصادية يعرفها بحكم عمله وعلاقاته، وأحاطوه بدائرة الخوف فلم يستطع الإفلات، مهددين بقتل أفراد أسرته إذا ما عاد إلى مصر وأبلغ السلطات.. فقد كان من السهل إقناعه بوجود أعوان لهم فى مصر ينتظرون إشارة منهم ليقوموا باللازم مع عائلته هناك.

وتأكيدًا لذلك.. أرسلوا باقة زهور إلى منزله بمناسبة عيد ميلاد ابنته.. وكم كان فزعه شديدًا عندما اتصل بالقاهرة فتشكره ابنته على باقة الزهور التى أرسلها.. وأصيب رجل الأعمال المذعور بصدمة عنيفة، حتى أنه صرخ فى هلع مؤكدًا بأنه سيقوم بالعمل لصالحهم.. وتركوه يسافر ملتاعًا مرعوبًا، يحمل تكليفات محددة وأسئلة مطلوب إجاباتها، فقد كانوا على يقين أنه سقط فى شباكهم ولن يمكنه الإفلات أبدًا.

وفى الطائرة استغرقه تفكير عميق فيما صار إليه حاله، وهل يستطيع النجاة من هذا المأزق أم لا ؟ واتصل فور وصوله بصديقه محمد أحمد حسن الذى يشغل منصبًا حساسًا فى مدرسة المدفعية بالقاهرة، حيث أهداه بعض الهدايا الثمينة

وسأله بأسلوب لا يثير الشك عدة أسئلة تتصل بعمل جهاز المخابرات المصرى. وهل بالإمكان حماية شخص ما تورط ومع المخابرات الإسرائيلية فى الخارج ؟ وكانت إجابات محمد حسن إجابات قاطعة، تؤكد أن المخابرات المصرية من أنشط أجهزة المخابرات فى العالم بعد استحداثها وتدريب كوادرها بأقسامها المختلفة، وحسبما يقال فهى تحمى المتورطين إذا ما تقدموا بالإبلاغ عما وقع لهم بالخارج.

لكن توماس الغارق حتى أذنيه مع الموساد لم يثق بكلامه، وظن أن ما ذكره عن حماية المتورطين مجرد دعاية يروجها لا أكثر.. فتملكه الخوف من الانسياق وراء دعاية لن تفيد، وحرص على المضى فى طريق الخيانة حتى آخره، بينما انشغل صديقه محمد حسن بالهدايا الثمينة التى جلبها له ولم يسأله عن تفاصيل الأمر، أو حتى عن ذلك الشخص المتورط مع الموساد.

لم يضيِّع توماس وقته فى إثارة أعصابه بالتفكير والقلق.. وشرع كما دربوه فى دراسة أحوال المحيطين به، ليستكشف نقاط ضعف تمكنه من النفاذ إليهم، وكان أول من صب شباكه حوله، محمد أحمد حسن، الذى كان يدرك جيدًا أن المخابرات المصرية أضافت اختصاصات وتكنولوجيا حديثة تمكنها من تعقب الجواسيس والخونة.

تناسى الرجل العسكرى كل ذلك وعاش فى وهم ابتدعه، ولم يعد يفكر سوى فى نفسه فقط[1] .. وقد طغت هدايا صديقه على أنسجة عقله. كان ذلك فى شهر أكتوبر عام ١٩٥٨ عندما نام ضميره نوم الموات بلا أدنى حياة أو رعشة من شعور.. وأسلم مصيره بل حياته كلها لمغامرة طائشة قادته إلى الهلاك. وكانت "بياتريشيا" خطوة أولى فى سلم الهلاك الذى لا مهرب منه ولا منجى على الإطلاق..

---

(١) يقول صلاح نصر فى كتابه الأول عن تاريخ المخابرات وحرفة التخابر، إن عدم الاكتفاء بالدخل المشروع، واتباع أقصر الطرق وأسهلها للثراء مع الاستهتار بجميع القيم، السبب الرئيسى فى تجنيد محمد أحمد حسن باشكاتب إحدى وحدات سلاح الدفعية عام ١٩٦٠. حيث تعتمد المخابراتت الإسرائيلية فى تجنيد عملائها إلى حد بعيد على نقاط الضعف التى يتصف بها أولئك العملاء ضعاف النفوس.

وبياتريشيا هذه راقصة ألمانية مقيمة بالقاهرة.. كانت تربطها بتوماس علاقة قديمة قبل زواجه من كيتي، وفي حين انشغل بعمله الجديد، اضطر لتجديد علاقته بها بمجرد عودته، لتساعده ، وهي التي تجيد اللغة العربية ، في تجنيد محمد حسن الذي كان يعرف عنه ميله الشديد للخمر وللنساء ، وباتالي كان في حاجة دائمة إلى المال للإنفاق على نزواته.

فرحت الراقصة المثيرة بعودة توماس إليها وتقابلت الأغراض والنوايا.. وبعد سهرة ممتعة بأحد النوادي الليلية.. ارتسمت بخيالات محمد حسن صور متعددة لعلاقته ببياتريشيا، أراد ترجمتها إلى واقع فعلي لكن راتبه الضئيل لم يكن ليكفي للإنفاق على بيته.. وعلى راقصة مثيرة تجتذب من حولها هواة صيد الحسناوات.

تكررت السهرات الرائعة. التي أصبحت تشكل شبه عادة لديه لم يكن من السهل تبديلها أو الاستغناء عنها. وأغرقته الراقصة في عشقها فازداد اندفاعًا تجاهها، ولم يوقفه سوى ضيق ذات اليد.

عند ذلك لم يكن أمامه سوى الالتجاء إلى توماس ليستدين منه، وتضخم الدين كثيراً حتى توترت حياة محمد حسن.. فانتهزها توماس فرصة سانحة لاستغلاله والضغط عليه، حتى رضخ له في النهاية وسقط مخمورًا في مصيدة الجاسوسية.. مستسلمًا بكامل رغبته مقابل راتب شهري – خمسين جنيهًا – خصصه له توماس لينفق على الفاتنة التي أغوته وأسكرته حتى الثمالة.

في المقابل، لم يبخل محمد حسن بالمعلومات الحيوية عن مدرسة المدفعية.. كأعداد الطلاب بها، وأسماء المدربين، والخطة الاستراتيجية للتدريب، وتسليح وحدات سلاح المدفعية. كل ذلك من أجل عيون الفاتنة الحسناء العميلة.

فيا لها من سقطة.. ويا لها من مأساة وخيبة !!

وفي الوقت الذي نشط فيه توماس كجاسوس يقوم بمهمته، تراءت له فكرة تجنيد عملاء آخرين تتنوع من خلالهم المعلومات التي يسعى للوصول إليها.

فكـان أن نصب شباكه حـول مصـور ارمنـى محـترف اسمـه جريـس يعقــوب تانيليان، ٤٣ عامًا، حتى استطاع أن يسيطر عليــه هـو الآخـر بواسـطة إحـدى الساقطات وتدعى - كاميليا بازيان - أوهمته كذبًا بفحولة لا يتمتع بها سواه.

وفى غضون عدة أشهر استنزفته كاميليا ماديًا.. فـاتبع مسـلك محمـد حسـن باللجوء إلى توماس ليقرضه مالاً، فجنده فى لحظات ضعفه وحاجته.

ولما اتسع نشاطه.. استأجر توماس شقة بمنطقة روكسى باسـم محمـد حسـن، كانت تزخر بأنواع فاخرة من الخمور، وتقام فيها الحفـلات الماجنـة التـى تدعـى إليها شخصيات عامة، تتناثر منها المعلومات كلما لعبت الخمر بـالرءوس فمـادت على صدور الحسان وتمرغت بين أحضانــها. وفـى إحـدى حجـرات الشـقة أقـام جريس تانيليان معملاً مصغرًا لتحميض الأفلام، وإظهار الصور والخرائـط، حيـث كان يجلبها محمد حسن من مقر عمله ويعيدها ثانية إلى مكانها.

وذات مـرة.. عـرض تومـاس علـى محمـد حسـن فكـرة السـفر إلى السـويس بالسيارة.. ثم إلى بورسعيد لتصوير المواقع العسكرية والتعرف عليــها مـن خـلال شروحه. فوافق الأخير ورافقتهما كيتــى التـى اطلعـت علـى سر مهنـة زوجـها وشاركته عمله. وخلال هذه الرجلات الحيوية ،كان محمـد حسـن دليـلاً لهمـا يشرح على الواقع أمـاكن الوحـدات العسـكرية.. فيقـوم تومـاس بتصويرهـا مـن النافذة وتسجيل موقعها على خريطة معه بينما تقود كيتى السيارة.

المشهد العجيب

وعندما تعثرت أحوال الأرمنى « جورج شفيق دهاقيان» - ٤٥ عامًا - تـاجر الملابس، تدخل صديقه توماس بطريقته الخاصة لإنقاذه. وكـان المقـابل تجنيـده للعمل معه فى شبكة الجاسوسية.

لم يعترض جورج كثيرًا فى البداية.. فهو يعلم أنه لا يملك معلومات حيويـة هامـة تسـاوى مئـات الجنيـهات التـى أخذهـا مـن تومـاس مقـابل إيصـالات ورهونات. وقد كان توماس الخائن ينظر إلى بعيد.. إلى ضـابط كبير يقيم أعلـى

شقة جورج وتربطهما علاقات وطيدة، وكان له دور فعال فيما بعد.

هكذا مضى توماس يصطاد ضعاف النفوس.. فيمدهم بالمال الذى يتحصل عليه من الموساد، ويغرقهم في الخمر والجنس ويحصل على مبتغاه من خلالهم.. وانتعشت بذلك شبكة توماس في جمع المعلومات، لا يوقفها خوف من السقوط أو من حبل المشنقة. فالمخابرات الإسرائيلية كانت تؤكد له في كل مرة يزور فيها ألمانيا أن المخابرات المصرية خاملة ضعيفة. نشأت منذ سنوات قليلة ولم تنضج بعد، ومهما أوتيت من علم وخبرة فمن المستحيل كشفه.

هذا الاعتقاد سيطر عليه فأظهر وفاءه لإسرائيل وكراهيته للعرب ولكل ما هو عربى. حتى أنه كلما سافر إلى ألمانيا كانوا يعدون له وليمة يعشقها من الفتيات الصغيرات أو الغلمان. ولم يعد يهمهم تصويره فى أوضاعه الشاذة مع الصغار بعد ذلك.. فلقد سقط حتى أذنيه وتوسعت شبكته توسعًا مذهلاً حيَّر خبراء الموساد أنفسهم، إذ تعدت الشبكة حدود مصر إلى أقطار عربية أخرى.. وما كان ذلك ليتأتى إلا عندما ازداد توماس حرفية بأدق فنون التجسس.. مع كيفية السيطرة على شركائه بواسطة نقاط ضعفهم التى استغلها بمهارة، وبالأموال الطائلة التى ينفقها عليهم، وقد اشتدت حاجتهم إليها، حيث عرفوا أن لكل معلومة ثمنًا وقيمة.

كيرلس الوطنى الشريف

ونعود مرة أخرى إلى جورج شفيق دهاقيان.. التاجر الذى أنقذه توماس من الإفلاس. لقد كانت ترطبه جيرة وصداقة بضابط كبير بالقوات المسلحة اسمه « أديب حنا كيرلس » . لاحظ كيرلس تردد جاره دهاقيان على منزله كثيرًا فى مناسبات عديدة وبدون مناسبات أيضًا. وكان فى كل مرة يناقشه فى أمور عسكرية حساسة ويحاول الحصول على إجابات لاستفساراته.. بل وإطلاعه على لوحات ووثائق عسكرية تؤكد شروحه.

لاحظ كيرلس أيضًا أن جاره يعيد طرح أسئلة بعينها سبق أن أجابه عليها.

وشك الضابط في الأمر، فهذا التاجر يريد إجابات تفصيلية لأمور عسكرية حساسة.. وكلما أعرض عنه يزداد إلحاحًا عليه.. عندئذ.. انقلب شكه إلى يقين.. وبلا تردد حمل شكوكه إلى جهاز المخابرات المصرية وأطلعهم على كل ما دار من حوارات.

وبعد مراقبات دقيقة لدهاقيان.. أمكن التعرف على توماس والمترددين عليه. وكانت مفاجأة غاية في الغرابة. إذ تكشفت شبكة جاسوسية خطيرة كان لابد من معرفة كل أعضائها. وفي خطة بالغة السرية والحذر.. أمكن الزج بعناصر مدربة إلى الشبكة فاتضح أن لها أذرعًا أخطبوطية تؤلف شبكة جاسوسية تمتد لتشمل دولاً عربية أخرى.. تكونت بها خلاليا على اتصال بفروع للموساد في كل من ألمانيا وفرنسا وسويسرا وهولندا وإيطاليا.. وكلها تعمل في تناسق مدهش، وتكوّن في مجملها ست شبكات للجاسوسية في القاهرة والإسكندرية ودمشق.

وبالقبض على الخونة في ٦ يناير ١٩٦١ اتضحت حقائق مذهلة.. فغالبة الجواسيس سقطوا في بئر الخيانة بسبب المال والانحراف والشذوذ. وكانت أدوات التجسس التي ضبطت عبارة عن خمس آلات تصوير دقيقة، وحقيبة سفر ذات قاع سري، وعلبة سجائر جوفاء تخبئ بها الوثائق والأفلام، وجهاز إرسال لاسلكي متقدم وجد سيفون الحمام بشقة خاصة بتوماس في جاردن سيتي إضافة إلى نوتة خاصة بالشفرة.

وبموجب القرار الجمهوري رقم ٧١ لسنة ١٩٦١ شكلت محكمة أمن دولة عليا.. يشمل اختصاصها كل وقائع التجسس في مصر وسوريا (كانت الوحدة بين البلدين لازالت قائمة) وخلال ستة أشهر بلغت جلسات المحاكمة ٨٣ جلسة، وبلغ عدد صفحات ملف القضية حوالي ستة آلاف صفحة، وأدلى ٩٥ شاهدًا بأقوالهم منهم الخبراء والفنيون والمختصون، أما عدد المتهمين من المصريين فكان ١١ متهمًا ومن الأجانب ٦ ودافع عنهم ٣٣ محاميًا، وجرى ندب طابور طويل من خبراء مصلحة التزييف والتحليل بالطب الشرعي،

وخبراء اللاسلكى والإلكترونيات، بالإضافة إلى عدد كبير آخر من الفنيين الذين انتدبوا بمعرفة المحكمة، وعدد من المترجمين بالجهات الرسمية.

وفى ٢٥ أكتوبر ١٩٦١ أصدرت المحكمة حكمًا بإعدام جان ليون توماس شنقًا، ومحمد حسن رميًا بالرصاص، وبالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة على الآخرين.

أما كيتى دورث فقد أفلتت من العقاب فى مصر لأنها سافرت لألمانيا قبل القبض على أفراد الشبكة بعدة أيام، لكن عقاب السماء كان أسرع. إذ صدمتها سيارة مسرعة وقتلت فى الحال بأحد شوارع فرانكفورت.. بينما بياتريشيا التى عوقبت بالسجن لمدة عامين، فقد أصيبت بسرطان فى الثدى امتد إلى صدرها النافر المثير.. والتهم هذا الجمال الرائع الذى استغل أسوأ استغلال فى اصطياد الخونة والجواسيس.

وفى إسرائيل تشكلت لجنة « قعادات » وهو اختصار لاسم « قعادات راشيل هاشيرو تيم » والمؤلفة من رؤساء أجهزة المخابرات فى إسرائيل ومستشارى رئيس الوزراء.. لدراسة أسباب سقوط هذه الشبكة.. التى كانت تمثل مصدرًا حيويًا يتدفق بالمعلومات الاستراتيجية فى الجمهورية العربية المتحدة.

لقد كان هذا السقوط المفاجئ سببًا فى صدمة عنيفة لكبار قادة الاستخبارات الإسرائيلية. إذ تبين لهم بشكل قاطع أن هناك عقولاً مصرية تستطيع إرباكهم.. وتدمير مخططاتهم القذرة فى المنطقة العربية، بحيث يجدُّون دائمًا فى البحث عن أساليب جديدة متطورة، تذكى ذلك العالم السرى الغامض.. عالم المخابرات والجاسوسية..!!

وعن نهاية عميل الموساد محمد أحمد حسن ، تردد أنه حاول الانتحار عدة مرات داخل السجن العسكرى الذى أمضى فيه أيامه الأخيرة ، وكان يصحو فى الليل ويصرخ بصوت مرتفع جدًا يوقظ جميع المساجين الذين كانوا يقذفونه

بالشتائم والسباب طيلة أيام سجنه ، حتى أنه منع من الخروج إلى « حـوش » السجن فترة خروجهم المخصصة خشية أن يفتكـوا بـه. لذلـك كـان يخـرج فـى حراسـة مشـددة إلى الحـوش الخـالى للتعـرض قليـلاً للشـمس والـتريض لتليـين العضـلات، وقبيـل إعدامـه بأيـام أعـرض عـن الطعـام فـى محاولـة للانتحـار بالإضراب احتجاجًا على منع زوجته وذويه من زيارته .

هكذا تصور جاسوس الموساد فأحجم عن الطعام ، لكـن مجـيء أحـد أقاربـه كشف الغمة عن عقله ، عندما أخبره الرجل أن لا زوجتـه ولا أى شـخص مـن أهله يريد زيارته أو رؤيته .. فـالكل تـبرأ منـه .. وللتـأكيد علـى أقوالـه سلمه خطابات تحمل المعنى نفسه ، كتبها أهله . وجاء بالخطابات أنهم لن يتسـلموا جثته ولن يدفنوه فى مدافن الأسـرة ، ممـا ضـاعف مـن حزنـه وتصميمـه علـى الانتحار إلا أن محاولته فشلت نتيجة المراقبة اللصيقة التى تعرض لها .

وفجر يوم تنفيذ الحكم ، ارتجت جدران السجن على هتافات المساجين :

- الله أكبر .. الله أكبر .. يحيا العدل.

كان هذا فيما صرخات الخائن لا تكاد تسمع لهـول صيحـات الفرحـة التـى عمت السجن .

وقبيل ربطة إلى العمـود الخشـبى سـئل عـن آخـر طلباتـه، فطلـب سـيجارة يدخنـها. وأثنـاء ذلـك كـان يرتجـف ارتجافًـا شـديدًا اسـتدعى جلوسـه أرضًـا للحظات ، ثم سحبت السيجارة مـن فمـه وربـط وسـط صرخاتـه إلى العمـود ثـم أدخلت رأسه فى الكيـس الأسـود ، وظـل يتلـوى فـى تشـنج حتـى لا تصيبـه الرصاصات فى القلب . لكن فريق الإعـدام لم يبـال بحركـات جسده العصبيـة السريعة، ومع انطلاق الرصاصات انكفأت رأسه إلى الأمام .. فتقدم قائد الفريـق مطلقـا رصاصـة الرحمـة ليؤكـد وفـاة جاسـوس الموسـاد الـذى خـلا قلبـه مـن الرحمة..!

(٤) سليمان سلمان

جاسوس الأرقام القياسية

حدا (بير المغارة) ماجه
غراب البين، ولا حجلن
إجبالى ودار أبو لحصين.
الحين أنا مغلول بين
الحيطان بأجضى، من شان
رخصت حالى وبعت حصى
أرضى، وجريت ورا
هواجيس اتشلج لها
عرضى.. !!

خـونة على كل لـون

جاسوس هذه الحالة أغرب من صادفني، ويستحق النظر والدراسة بحق. فهو الجاسوس الأمي **الوحيد** من بين الخونة، الذين جندتهم المخابرات الإسرائيلية حتى قبل أكتوبر ١٩٧٣، **والوحيد** الذى كان عمله راعٍ للإبل. **والوحيد** الذى ضبط يمارس الجاسوسية مقابل كمية من المخدرات. **والوحيد** الذى جرى تعليمه القراءة والكتابة في معسكر إسرائيلى بسيناء . **والوحيد** الذى ابتكروا له شفرة خاصة تعتمد على الحروف الأبجدية والأشكار والصور. **والوحيد** الذى اعترف على الرصيف وقبل أن يركب سيارة المخابرات بأنه جاسوس لإسرائيل. إنه خائن متفرد في كل شئ.. وحالة غريبة حقًا فى عالم المخابرات والجاسوسية.. ! !

يقول (أفرايم ليفى)[1] رئيس المخابرات الإسرائيلية السابق فى مقال نشرته صحيفة (يديعوت أحرونوت):

(إن العمل بالاستخبارات هو أمر عالمى، وكل الدول أقامت لنفسها أذرعًا طويلة من أجل جمع المعلومات عن خصومها، وحقًا نجد أن الوسائل المستخدمة فى ذلك آخذة فى التطور والتعقيد مع تطور العلم والتكنولوجيا، لكن فى الأساس ظل العمل الإنسانى - أى الاهتمام بالجاسوس - أهم الأمور فى هذه المهنة، فمنذ قيام إسرائيل بل قبل تحولها إلى دولة مستقلة، وضعت الاستخبارات الخارجية كحجر أساس لنشاطها الرسمى. وقد اعتمد زعماؤها وما زال هذا هو رأيهم أن ضمان وجود مخابرات جيدة تتمكن من جمع معلومات متواصلة عن العدو، هو شرط ضرورى لتضييق الفجوة الكبيرة بين إسرائيل وأعدائها.

وفى غياب مثل هذه المخابرات لكان الأمر قد تطلب إقامة جيش نظام

---

(١) تولى رئاسة الموساد عام ١٩٩٨ خلفاً لدانى ياتوم الذى أقيل من منصبه عقب فضيحتى محاولة اغتيال خالد مشعل بعمان، والتجسس على حزب الله فى سويسرا .

بحجم لا يستطيع المجتمع ولا الاقتصاد الإسرائيلى الوفاء بـه أكثر من ذلك، فإن تخصيص مخصصات كبيرة للأمن كان سيضر بشدة ربما ضررًا لا يعوض بنوعية الحياة فى إسرائيل التى لم تنشأ لكى تتشابه مع (إسبرطة) القديمة، لذا سنجد أن المخابرات الإسرائيلية ليست فقط شرطاً ضرورياً لقيام إسرائيل الطبيعى، وإنما أيضًا لحصانتها الثقافية والاجتماعية).

ومن هذا المنطلق.. نستطيع بوضوح أن نؤكد أن إسرائيل ذات البنيان البشرى الضعيف والنطاق المكانى ذى العمق الاستراتيجى المحدود ، ما كان لها أن تزرع زرعًا على أرض فلسطين بالاغتصاب ، ما لم تتسلح قبل المدفع بجيش جرار من العملاء والجواسيس المدربين. ونستخلص من كلمة هاليفى أن قيام إسرائيل كان مرهونًا بقوة أجهزة استخباراتها ، وأن ذراع إسرائيل « الصغيرة » قد طالت بفضل استخبارات قوية تتلقى الدعم الكبير وتنفذ سياسة الدولة الصهيونية وتوجهاتها.

فلا عجب إذن عندما تستغل المخابرات الإسرائيلية ظروف السلام مع دول الجوار، وتمارس أعمالها المخابراتية بلا حياء، ذلك لأنها تعلم جيدا أن السلام مرحلة مؤقتة لن تستمر طويلاً، فالأرض مغتصبة بالقوة، والشعب الفلسطينى المشرد يمثل صورة حية لمظاهر هذا الاحتلال. فلا أمان لإسرائيل إذن ولا أمن تشعه معاهدات سلام مع محتل متعنت. فالصحوة لابد آتية فى لحظة ما سيشهدها التاريخ، ويقف لها إجلالاً واحترامًا. ولأن إسرائيل تدرك هذه الحقيقة - وتعى صدقها - تجهزت تسليحيًا، واستغلت ضعاف النفوس على كل لون وشاكلة.

وسنؤكد على ما قلناه بسرد قصة جاسوس لا يقرأ ولا يكتب ولا يفقه فى أى شئ. إنه مجرد بدوى من سيناء عاش حياته بين الجبال والوديان يرعى الإبل ويعيش على لبنها ولحمها، حيث كانت أعظم أحلامه أن يمتلك جهاز راديو ترانزستور صغير يحمله فى جيبه، ويشترى علبة سجائر مغلقة، وينتعل حذاءاً جديدًا.

أمال متواضعة تراود سليمان سلمان سليمان، وتداعب خياله الخصب الذى صقل بين شواهق الجبال ومنحدراتها فى منطقة جبل المغارة على بعد حوالى ٥٠ كيلومترًا جنوب بحيرة البردويل، وهى منطقة منعزلة فى صحراء التيه بسيناء تتميز بجبالها المرتفعة . إذ يبلغ ارتفاع جبل المغارة ٧٥٠ مترًا وطوله يمتد لمسافة ٤٥ كيلومترًا وعرضه يقارب نصف طوله تقريبًا.

وعلى منحدرات الجبل عاش سليمان سنوات طويلة من حياته بين أشجار الليناريا والسادوم والبكريز، وبالقرب من بير المغارة انتشرت آثار إبله تسعى فى مراعيها القاحلة الشاسعة.

وعندما تزوج من إحدى فتيات البدو لم تتبدل حياته كثيرًا. بل أخذته خيالات الوحدة وأوهام السراب إلى حيث لا يعلم. وكان شروده الدائم سببًا من أسباب شقائه . فبدلاً من الجلوس إلى شجيرة صحراوية يعزف على نايه، عزفت التخيلات برأسه خطوات حياة مستقبلية رسم خطوطها بدقة ، متخذاً لنفسه مسارًا مختلفًا عما يراه بين صخور الجبال والمدقات الوعرة. منصباً من نفسه ملكًا يحكم ويملك ويسيطر. وكلما أشرقت شمس جديدة تضخمت لديه ملكة الخيال فيستمر فى نسج قصص الوهم وأحلام اليقظة.

هكذا تبدل حال البدوى راعى الإبل، وحدث بداخله انقلاب مروع واحتجاج على حياته ونشأته، على خيمته المغزولة من وبر الإبل . فهجر حياة البدو والصحراء والرعى، وطارد أحلامه الأشد وعورة من حاضره، معلناً راية العصيان فى وجه أهله وعشيرته، ثم حمل الرحال وحده إلى القاهرة، حيث الأضواء والزحام ونبض الحياة فى شرايينها يعلو، فتتنفض الشوارع والميادين بأعاصير من البشر لا تنقطع.

إنه سيلان الحرية الخالصة بلا قيود أو مراسم.. حيث بهرته المدينة فأسلم قياده لها مستجلباً من الأعماق خيالات الماضى وأحلام اليقظة المختزنة، وغاص لآخره بين نسيج الوهم الذى بنى منه قصورًا رائعة، لكن صدمته كانت قاسية عندما صفعته ضربات الواقع الفعلى. إذ اكتشف عجزًا كبيرًا فى خبرة زائفة

وأيقن جيدا أنه كان يحلم، فالواقع أقسى وأقسى من القسوة ذاتها.

تاه سليمان وسط ركب الحياة السريع فى القاهرة إلى أن قامت حرب يونيو ١٩٦٧ وحوصر فى مسكنه المتهالك فى منطقة الأميرية بين بعض معارفه. فلا هو فى سيناء يمارس مهنته فى رعى الإبل، أو يقف على أرض صلبة فى القاهرة.

التلميذ النجيب

وفى ذات يوم زاره بدوى يعرفه أشفق كثيرًا على حاله وهو الموسر،فأعاره جلبابًا جديدًا وأخذه إلى سهرة فى أحد الملاهى ، وهناك رأى سليمان بعينيه حياة أخرى لم يألفها ولم تخطر بباله، واندهش كثيرًا للأموال الوفيرة التى ينفقها صاحبه على الراقصات وبنات الليل.

استمرت هذه السهرات لعدة ليال غرق فيها سليمان فى حب إحدى الراقصات. ممنياً نفسه لو انه ملك الأموال ليفوز بقلب معشوقته، لكن ما باليد حيلة.

استشف صاحبه ما يدور بخلده، فانتهزها فرصة سانحة وطرق على الحديد وهو ساخن كما يقولون، ولما سأله سليمان عن مصدر الأموال التى يبعثرها بسخاء وترف، أجابه أن بإمكانه أن يحصل عليها هو الآخر بسهولة.

حينئذ ـ هجمت أحلام راعى الإبل الوردية من جديد. والتصق بصاحبه البدوى يرجوه أن يدله على كيفية الحصول على المال. فأخذه إلى سيناء المحتلة بعد الحصول على التصاريح اللازمة بحجة زيادة زوجته وعشيرته. وهناك فوجىء سليمان بما لم يتوقعه. إذ دهش عندما وجد صديقه يستقبل بحرارة من أحد الضباط الإسرائيليين. ويتسلم منه آلاف الجنيهات. وعندما سال سليمان صديقه عن سبب منحه هذه الأموال ، ضحك العميل الخائن وقال له إنه يحكى لهم عما رآه فى القاهرة لا أكثر. وتدخل الضابط الإسرائيلى قائلاً لسليمان بالعربية: (أنت الآخر تستطيع أن تتعاون معنا لننتشلك من الفقر الذى أنت

فيه) قال له سليمان:

- وماذا بيدى لأقدمه لكم؟

أجابه:

- كلام .. كلام. نريدك فقط أن تتكلم عن أى شيء، فكل شيء عندنا له قيمة ومعنى.

ومارس صديقه ضغوطه بتذكيره بمدى حاجته إلى المال الوفير، لتحقيق أحلامه وطموحاته ببضعة أخبار ومعلومات عامة.

وللمرة الألف - تهاجمه أحلامه الموءودة وتراوده آمال المستقبل، فيعلن قبوله وموافقته بينما الضابط يبتسم فى زهو واعدا إياه بعدة (طرب) من المخدرات. فتكسب المخابرات الإسرائيلية بذلك جاسوسًا جديدًا وعينًا لها فى القاهرة، وأيضًا ، تاجر مخدرات ينشر الإدمان بين المصريين.

إنها الحالة الأولى المعروفة فى عالم المخابرات والجاسوسية التى تشترى فيها إسرائيل الجواسيس بالمخدرات التى تزرعها فى وديان سيناء المحتلة.

والحالة الوحيدة أيضًا التى تجند فيها إسرائيل جاسوسًا بإغراءات الثراء بواسطة ترويج المخدرات. ومن بعده جاء فراش مدرسة سيناوى أيضًا اسمه عامر سليمات أرميلات - والذى جندته المخابرات الإسرائيلية مقابل ستة كيلو جرامات من الهيروين ، كما يعد ، حسبما تردد ، أول من أدخل نبات البانجو إلى مصر، السبب الأول فى انتشار هذا البلاء بين الشباب .

عاد سليمان إلى مصر خائنا باع عروبته بكمية مخدرات[1] سعى بمجرد وصوله إلى القاهرة لبيعها لأحد التجار الكبار. ولما كان « الصنف » من الدرجة الممتازة – فقد دفع فيه مبلغًا كبيرًا استغله سليمان فى السهر مع إيناس الراقصة الساحرة. لكن سرعان ما نفدت نقوده فعاد مسرعًا إلى سيناء ليستقبله ضابط

---

(١) بديهى أن عملية نقل المخدرات كانت تتم بأساليب مختلفة ، حيث لا يعقل أن تتم بواسطة (العملاء) الذين يتحركون بشكل قانونى بين مصر وسيناء عبر الصليب الأحمر وفق خطوات متبعة.

الاستخبارات بالترحاب، ثم ألحقه بدورة تدريبية مكثفة في أحد المعسكرات بالقرب من شرم الشيخ ، حيث كانت البداية محو أميته وتعليمه القراءة والكتابة، ويبدو أن استعداده كان قويا للتعليم، كمثل استجابته لهذا الدور الخطير في ممارسة الجاسوسية.

عاش سليمان حياته بين الملذات والخمور، واستبدل ملابسه البدوية بملابس حديثة مودرن، كما أنه استأجر شقة فخمة في مصر الجديدة، واشترى السيارة الفاخرة، ثم تزوج من إيناس وبدأ بالفعل يعيش الحلم الذى طالما راوده طوال حياته الفائتة، طارداً من ذاكرته كل ما يذكره بماضيه، وبجبل المغارة وبير المغارة وقطيع الإبل وحياة البداوة. فقد كان لا يريد أن يتذكر أيام الحرمان، وإن كان لا ينسى أن أحلامه كلها نسجت وهو نائم يقظ في ظل أشجار السادوم والبكريز المتقزمة.

وعندما زاره فوزان سليمان حسين – شقيق زوجته البدوية والمجند بالقوات المسلحة أخذه سليمان إلى أحد الملاهي الليلية، وأغدق عليه المال بنية استغلاله كجندى في الجيش المصرى ليعرف من خلاله معلومات عسكرية يربح الكثير من ورائها.

وفي زيارته الثالثة لسيناء المحتلة، استكملوا معه دورة التجسس. وأعدوا له برنامجا مشحونًا لإعداده واستغلال المعلومات التى سيحصل عليها من فوزان، فعلموه كيفية استعمال الحبر السرى في الكتابة، وعلموه شيفرة خاصة تعتمد على الأشكال والصور، لكل منها معنى ترمز له. إنها وسيلة سهلة بالنسبة لأمثاله من الأميين الذين لا يجيدون الكتابة والتعبير.

أجاد سليمان الحرفة الجديدة وعرف قيمة كل معلومة. ولأن فوزان كان بحاجة دائمة إليه وإلى سهراته ، بدأ سليمان يوقعه شيئاً فشيئاً في دائرة الجاسوسية. هكذا استمر تدفق المعلومات الغاية في السرية والتى كانت ترسل أولاً بأول إلى عنوان في أثينا. وعندما تكشف الأمر لفوزان، لم يعترض أو يتوقف أو يبلغ الجهات المسئولة. فالنقود التى يحصل عليها باستمرار أثقلت

لسانه فلم يتكلم، وأعمت عيناه فلم ير نتائج خيانته فى ضرب المواقع العسكرية ومنصات الصواريخ التى يجرى إنشاؤها. ومع انغماسه فى التجسس سعى لسرقة خرائط عسكرية هامة من مكتب قائده ليسلمها إلى أستاذه سليمان.

تعددت الرسائل المرسلة إلى أثينا تحوى معلومات هامة بالحبر السرى بين سطور الرسالة، وعندما وقع أحد هذه الخطابات فى أيدى خبير المخابرات المصرية، جرى مسح شامل لجميع صناديق البريد فى مصر الجديدة. وتم عمل أكمنة مستمرة لضبط هذا الجاسوس الخطير الذى يبعث بمعلومات لا تقدر بثمن إلى الموساد. ولأن سليمان أولاً وقبل كل شيء جاسوس غير مدرب جيدًا على حيل ومكر الجواسيس، سقط فى قبضة رجال الأمن متلبسًا بجريمته عندما كان يبعث بإحدى رسائله إلى العدو الصهيونى .

الرسالة الأخيرة

كان سقوطه فى قبضة السلطات المصرية بسبب جهله أيضًا وارتباكه، إذ تصادف تواجد أحد المرشدين السريين لمراقبة صندوق البريد الذى اعتاد أن يرسل من خلاله أغلب رسائله ، وبخبرته لاحظ ارتباكًا خفيفًا على وجه سليمان ونظرة خائفة صدرت عنه، فاقترب منه بوجه صارم وسأله عن وجهة الرسالة، فشحب وجهه وتفصد عرقه، ولم يستطع الجواب. فما كان من المرشد إلا أن أمسك به وأبلغ رؤساءه .

فى تلك الأثناء حاول الجاسوس الخائف أن يقدم للمرشد رشوة كبيرة ليطلق سراحه، لكن الرجل لم يكن ساذجًا إلى هذه الدرجة. فالرشوة الكبيرة كانت تدل على أن هناك جريمة كبرى، وفى هذه الحالة فالمكافأة التى سيتحصل عليها، إلى جانب سقوط مجرم خطير، أمران مهمان للغاية.

لذلك تشبث المرشد بالمشتبه به حتى جاء رجال الأمن وأخرجوا الخطاب من صندوق البريد، عندئذ انهار سليمان سلمان واعترف على الفور بخيانته، وقال فى ذعر:



(أنا جاسوس جهلان « جاهل » غويت المال وجفانى) .

وأخذا يلعن حظه باللهجة البدوية

بذلك كان سليمان سلمان سليمان هو أول جاسوس للموساد يعترف بخيانته لحظة ضبطه على الرصيف، وفي غرفة التحقيقات أدلى باعترافات تفصيلية مثيرة عن كيفية تجنيده، وعن كمية المخدرات التى روجها فى مصر والتى تزيد عن مائة كيلو جرام من الحشيش والأفيون ، كما أرشد عن فوزان شريكه ومصدر معلوماته الذى كان فى وحدته العسكرية يمارس مهمته التجسسية باطمئنان وسط الضباط والجنود. ويحصد الأخبار حصدًا من أفواههم.

وبينما المخابرات العسكرية تصحب سليمان إلى شقته لتفتيشها كان فوزان قد ألقى القبض عليه، ووجد رجال المخابرات الزوجة الحسناء تنتظر زوجها فى قلق فألقوا القبض عليها وعثروا على أدوات التجسس .

تم الإفراج عن الزوجة بعدما تأكدت براءتها وقدم الاثنان إلى المحكمة العسكرية فى القاهرة التى حكمت عليهما بالإعدام رمياً بالرصاص، نظراً لما تردد أن سليمان كان قد ألحق بالقوات المسلحة فى الفترة الأخيرة كمجند. ولم تمر عدة أيام إلا وصدق جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية على الحكم، وكانت من بين الأوراق التى ضمنها ملف القضية، رسالة غريبة سطرها قبل إعدامه الجاسوس سليمان تحوى ٧٢ شطرًا ينعى فيها حاله ويقول فى بعضها (الذى فهمناه) :

(حدا بير المغارة ما جه غراب البين)

(ولا حجلن[١] اجبالى ودار أبو لحصين[٢])

(من وين جانى منحوس العيض[٣] يا ماى من وين؟)

---

(١) حجلن (قبالى): رقص أمامى.

(٢) الثعلب.

(٣) الوجه والخلقة.

(ياماى جِزِّى[1] عروج[2] الشر من حالى" .

(من يوم ركبنى الشر وأنا اتعرج حالى) .

(دَرِّيت[3] بدور الخير ونضرت[4] فى العالى) .

(تحجل بيا الناجة[5] بين شواشى السادوم) .

(أنوح تنوح فوجى (فوقى) الطيور تبْكِى النجوم) .

(صوتى عم يحنجل وجع مغروج (مغروق) فى السهوم) .

(الحين أنا مغلول [مكبل – مقيد] بين الحيطان بأجضى [أقضى][6]) .

(من شان رخَّصت حالى وبعت حصى أرضى) .

(وجريت ورا هواجيس اتشلج[7] لها عرضى) .

---

(١) من : جز. أى القص.

(٢) عروق.

(٣) دريت :بعثرت فى الهواء .

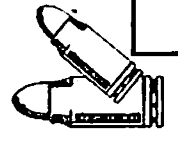
(٤) نظرت.

(٥) تتراقص الناقة بين الأعشاب.

(٦) أموت مكبل بين الجدران.

(٧) كناية عن التفريط فى الشرف.

(٥) روبرت هاتواى



ضحى بزوجته ليحيا

ضــابط الاســتخبارات البريطانى فــى القــاهرة. ســرقت منــه مســتندات عسكرية هامة. ولكى ينقذ نفســه دفــع زوجتــه إلى الانتحــار بدعــوى أنــها جاسوســة ألمانيــة. لكنــه برغــم ذلــك أعــدم رميًــا بالرصــاص فــى ســاحة قوشلاق قصر النيل. !!

بنات المهراجا

أثناء الحرب العالمية الثانية، كانت القاهرة مرتعًا للجاسوسية بين أجهزة استخبارات الدول المتحاربة. وحدث للمرة الثالثة فى أوائل يناير من سنة ١٩٤٢ حين كانت الغارات الجوية تتوالى على القاهرة، أن لاحظ مراقب الدفاع المدنى أن هناك شعاعًا ينبعث فى خلال فترة الإظلام التام التى تعقب صفارات الإنذار. وبالمتابعة تبين أن هذا الشعاع المتجه إلى الفضاء، ينبعث من نافذة غرفة فى الطابق الثالث بأحد فنادق القاهرة الكبيرة. كما لاحظ المراقب أيضًا أن هذا الشعاع لا يظهر إلا متقطعًا، ويكون فى الوقت نفسه الذى تحلق فيه الطائرات المغيرة فوق وسط القاهرة بالقرب من منطقة الفندق[١].

ومع تكرار انبعاث شعاع الضوء ذهب المراقب إلى المستر ادوارد مدير الفندق المسئول، حيث أخبره بتفاصيل ما لاحظه، ثم اصطحبه إلى الشارع وأراه ذلك الشعاع المتقطع، فأبدى الرجل دهشته وذكر أن كل ما يعرفه أن الغرفة التى ينبعث منها الشعاع هى الغرفة رقم ٢٤٥، ويقيم بها منذ شهور أحد كبار أثرياء الهنود المعروفين مع أسرته، وهو المهراجا « تابا جوبال بابو » .. وقد تعودوا النزول إلى خندق الفندق للاحتماء به من أخطار الغارات مع بقية النزلاء.

وعلى أثر هذا صعد الاثنان إلى الغرفة المذكورة لاستطلاع الأمر فلما وجدا بابها مغلقًا، طرقه المدير، وسرعان ما ارتفع من داخلها صوت المهراجا نفسه يسأل من الطارق، فى لغة إنجليزية سليمة. وهنا عرفه المدير بنفسه، وتلطف متسائلاً عما دعاه إلى عدم النزول إلى الخندق !. فأجاب المهراجا، دون أن يفتح الباب. بأنه متعب لا يستطيع مبارحة الفراش!

وعاد مدير الفندق يقول :

- لقد لاحظ مراقب المنطقة ضوءا ينعكس من نافذة غرفتك يا سيدى فجئنا نستطلع الأمر.

---

(١) محمد رفعت : الجاسوسية فى مصر، سلسلة كتب للجميع، شركة التوزيع المصرية، أبريل ١٩٥١.

ولم يجبه المهراجا مباشرة بل انتظر لحظة ثم قال :

– لعله ضوء القمر ينعكس على زجاج النافذة، حسنا سأغلق خشب النافذة الآن.

وما هى إلا لحظة حتى سمع المراقب والمدير صوت النافذة والمهراجا يغلقها فشكره الأخير، ثم انصرفا... وانقطع انبعاث تلك الانعكاسات الضوئية.

كان المهراجا « ناب جوبال بابو » كهلا جاوز الخمسين، ولكنه مكتمل الصحة موفور النشاط. وقد نزل بالفندق منذ أربعة أشهر ومعه أسرته المكونة من زوجته الفرنسية الأصل والتى تحمل اسما هنديا « أكشاى » وبناتهما الثلاث « فيهارى » و « جيان » و « براجا » .

وكانت الأم وبناتها على حظ كبير من الرشاقة والجمال، يجمعن بين جمال الغرب وسحر الشرق، تبدو عيونهن الزرقاء الواسعة كالماسات الكريمة تضفى على وجوههن السمراء هالة من الفتنة والروعة.

وقد صرح المهراجا عقب قدومه بأنه يقوم مع أسرته بسياحة فى أنحاء الشرق الأوسط ، وأن فى نيته الإقامة فى مصر إلى أجل طويل، بعد أن أقام وأسرته قبل ذلك وقتًا غير قصير فى فلسطين.

وما أن ظهرت بنات المهراجا الفاتنات فى شرفة الفندق وأبهائه، حتى أحاط بهن الضباط الإنجليز الذين كان الفندق يزخر بهم وقتذاك، وأخذوا يتنافسون فى التقرب منهن وكثيرًا ما كان هذا التنافس ينتهى بهم إلى منازعات خطيرة مما كانت لتنتهى على خير، لولا لباقة الفتيات وبراعتهن فى إرضاء الجميع.

وإذا كانت صغراهن « براجا » تمتاز إلى جانب جمالها الفتان بروح شاعرية وعاطفة مرهفة رقيقة وإيمان بالحب، فإنها ما لبثت أن أحبت ضابطًا شابًا برتبة « كابتن » اسمه « روبرت هاتواى » من ضباط إدارة المخابرات البريطانية، وكان يقيم فى نفس الفندق. وقد بادلها الشاب حبًا بحب، ولم يطل بهما الوقت حتى تزوجها وأقاما فى نفس الفندق.

وجاءت محنة العلمين، ، أخذت جيوش المحور تسير من نصر إلى نصر. واستيقظ « روبرت » من نومه قبيل أحد الأيام، فإذا به يفاجأ بأن غرفة صهره المجاورة قد خلت منه ومن (فيهارى) و « جيان » وأمهما. ولم تكن زوجته أقل دهشة لرحيل أسرتها المفاجئ، وبادرت معه يسألان مدير الفندق وخدمه عن جلية الأمر.

فإذا بكل ما لدى هؤلاء أن الأسرة قد غادرت الفندق بعد أن سددت حسابها، واستقلت سيارة أجرة عند فجر اليوم، إلى مكان غير معلوم!

وعاد « روبرت » مع زوجته إلى غرفتهما وأخذا يتهيآن للخروج. فما كاد يفتح خزانة ملابسه حتى دهمته مفاجأة أخرى أدهى وأمر، فاصفر وجهه، وتخاذلت ساقاه !

لقد فقدت حقيبته الصغيرة التى كانت محشوة بالوثائق الحربية والتقارير السرية الخطيرة المرسلة من قيادة الشرق الأوسط إلى وزارة الحرب البريطانية فى لندن. وكان رؤساؤه قد اختاروه ليطير بها إلى لندن فى مساء ذلك اليوم ليسلمها بيده إلى إحدى الجهات المختصة العليا هناك.

وعبثًا حاول المسكين أن يجد الحقيبة فى أى مكان بالغرفة. وأكدت زوجته أنها لا تعلم عنها أى شئ. فأسقط فى يده وانكفأ على صدر زوجته يبكى ويندب حظه ويخاطبها فى فيض من الدموع قائلا:

– براجا.. أيتها الحبيبة.. إن ضياع تلك الحقيبة معناه إعدامى رميًا بالرصاص !.

وارتاعت « براجا » كما لو كانت لا تتوقع لزوجها هذا المصير المفجع.

وأردف روبرت قائلا :

– ولكننى سأجنبك هذا العار، وسأقتل نفسى بيدى.

وشهقت « براجا » وضمت روبرت إلى صدرها فى تشبث وإصرار وهى تقول:

- لا.. لن تفعل ذلك.. بل أنا الذى سأقتل نفسى بين يديك وأكفر عن ذنبى الذى لا يغتفر.. سأعترف لك بكل شئ.. ولكنى أقسم لك بأننى أحببتك مذ عرفتك حبًا خالصًا مجردًا عن أى غاية من الغايات !.

ولم يفطن روبرت أول الأمر لما تعنيه فوقف يحدق فيها كالمذهول، ثم ما لبث أن بدت له الحقيقة المرة البشعة جلية واضحة حين بدأت تسرد اعترافاتها الخطيرة على مسامعه قائلة فى همس حزين :

- (إننا جميعا - أنا ووالدى ووالدتى وأختاى - جواسيس نعمل لصالح المحور. ولقد طفنا ببلدان الشرق الأدنى، ثم بلدان الشرق الأوسط. وكنا نغرى الضباط البريطانيين بجمالنا. وعلى موائد الخمر والميسر كنا ننتزع منهم الأسرار الحربية، ثم نبلغها إلى والدنا فيبلغها بدوره على الفور إلى سلطات المحور بواسطة آلة إرسال لاسلكية دقيقة فى حيازته.

وفى أثناء الغارات الجوية كان والدى يتصل بطائرات المحور المغيرة من نافذة غرفته بالفندق ويرسل إليها إشارات ضوئية بواسطة مرآة عاكسة على طريقة (مورس) وعندما افتضح أمره كان يصعد إلى سطح الفندق فى فترة الغارة الجوية ويختبئ فى مكان أمين ليرسل إشارته الضوئية إلى الطائرات المغيرة من هناك.

ولقد أخبرنى مساء أمس بأنه سيرحل فجر اليوم مع والدتى وأختى، إلى صحراء الفيوم حيث تنتظرهم طائرة خاصة تقلهم إلى بنى غازى. وطلب منى فى إلحاح أن أرافقهم فرفضت فى إصرار لشدة حبى لك وتعلقى بك.

أما الحقيبة.. فلا أعلم عنها شيئًا، ولكنك أشرت إليها فى حديثك أمس مع والدى بعد أن لعبت الخمر برأسك، وما كان صعبًا عليه أن يسرقها قبل رحيله وهو يحمد حظه العجيب فى الحصول على مثل هذا الصيد الثمين وتقديمه هدية نادرة فاخرة إلى سلطات المحور فى بنغازى).. !!

ثم ختمت براجا اعترافها بأن احتضنت زوجها الشاب، وقالت له ودموعها تفيض :

- (أقسم لك بحبنا يا روبرت، أنني لم أشترك معهم في أي نشاط منذ تزوجتك... وإنما لم أصارحك بحقيقتهم من قبل لأنني أقدس الرابطة التي تربطني بهم، كما أحبك وأقدس الرابطة التي تجمعني بك).

ودون أن يجبها روبرت، تسلل إلى شرفة الغرفة، وأخرج مسدسه من جيبه ولكنه قبل أن يرفعه إلى رأسه كانت يد براجا قد امتدت إليه وانتزعته منه وصوبته إلى رأسها، ثم ضغطت على زناده فانطلقت منه الرصاصة واخترقت جمجمتها. فسقطت جثة هامدة!

وعندما أفاق روبرت من ذهوله العميق، وجد نفسه جالسًا على أرض غرفته بجانب جثة براجا، ومن حولها حشد من الضباط البريطانيين.

ولما اقتاده الضباط إلى المصير الذى ينتظره ودع جثة براجا بقوله :

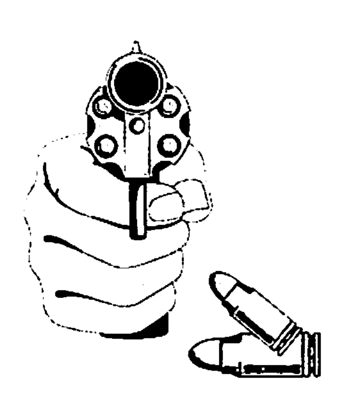
- براجا.. إنني أحبك بالرغم من كل شئ.. وسوف لا أغيب عنك طويلاً.

وحوكم « روبرت هاتواى » أمام مجلس عسكرى بريطانى بتهمة الخيانة العظمى، وحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص، ونفذ الحكم بعد بضعة أيام في ساحة قوشلاق قصر النيل بالقاهرة. وذلك أن حقائق جديدة كانت قد ظهرت، وأكدت اتصال روبرت بالألمان، وتردد أنه عاون صهره عن قصد في الاستيلاء على الحقيبة التى كانت تحمل أوراقًا محرزة، كان من المستحيل فض أختامها وإعادتها كما كانت.

أما زوجته براجا، فلم تكن تعلم شيئًا عن ضلوع زوجها فى الجاسوسية، لذلك أطلقت النار على نفسها عندما هدد بالانتحار « تمثيلاً »، من أجل دفعها إلى الانتحار لإبعاد شبهة التجسس عن نفسه. لكن سلطات التحقيق اكتشفت ما كان يريد ستره وإخفائه.. !!

الفصل الثانى

فى العراق .. !!



« إن دولة إسرائيل مفتوحة أمام الهجرة اليهودية وجمع الشتات .. فالهجرة إلى إسرائيل حق مقدس لكل يهودى فى أى بقعة من العالم.. حيث تمنح الجنسية آليًا لكل يهودى يهاجر إليها.. »

قانون (العودة) الذى تبناه الكنيست
فى ٥ يوليو ١٩٥٠

الجـذور الأولـى

يمكن للباحث المدقـق أن يسـتخلص بسـهولة، اختـلاف منـهج الجاسوسـية الإسرائيلية فى العراق عنه فى سائر الدول العربية الأخرى. ذلـك أن مخـابرات إسرائيل ابتعدت تمامًا عن اللجـوء إلى جواسـيس « غربـاء » مـن داخـل القطـر العراقى.. بل استثمرت - وبذكاء شديد - وجود الآلاف من اليهود العراقيـين، فى « تخريج » كوادر قادرة على تنفيذ أهدافها وسياساتها، مسـتغلة فـى ذلـك تغلغلهم داخل نسيج المجتمـع العراقـى كلـه، مـن البصرة جنوبًـا، إلى الموصـل شمالاً.

فمنذ قيام الدولة اليهودية، حرص حكام إسرائيل على كسب تعـاطف يـهود العراق، وبناء جسور من الود والتواصل بينهم لتحقيق هدفين أساسيين :

أولهـما: لتشجيعهم على الهجرة إلى إسرائيل، لسد الفراغ الناشئ عن فـرار السكان العرب بسبب المذابح الوحشية، وخلو قرى عربية بكاملها من سكانـها.

ثانيهما: التجسس إلى العراق، جيشًا، وسياسة، واقتصادًا.

ولكى تضمن إسرائيل ولاء يـهود العـراق الكـامل لهـا، والسـعى إلى الهجـرة إليها، عمدت إلى استخدام أساليب شـيطانية مـاكرة لإرهابـهم، وتفجـير بعـض معابدهم، وقتل العديد منهم لإلقاء التبعية علـى السـلطات العراقيـة، فنجحـت بذلك فيما سعت إليه.

لقد كان اليهود فى العراق لأحقاب طويلة خلت، ينعمون بـالأمن وبالأمـان، ويمارسون حياتهم وأعمالهم وطقوسهم فى حرية بلا منغصات أو أحقـاد. إلا أن خطط حكام إسرائيل، صورت لهم الحياة فى العراق على أنها جحيم مـا بعـده

جحيم.. ورسمت فى أذهانهم صورة مثالية للحياة فى « الوطن » الجديد.

ولأننا لسنا بصدد دراسة تاريخ وأحوال اليهود فى العراق، فإنه يلح علينا السؤال:

– لماذا تتجسس إسرائيل على العراق الذى لا يشترك معها فى الحدود ؟ ولا يعد من دول الواجهة ؟

وللإجابة على ذلك تقول:

إن العراق – قبل سقوط بغداد – كان يمثل بالنسبة لإسرائيل العدو المبين، والمطمع الثمين، الذى فشل تيودور هرتزل – أبو الصهيونية – فى تحقيقه، منذ كتب فى ٤ يوليو ١٩٠٣ إلى عزت باشا العابد – رئيس الوزراء العثمانى – يذكره بمقترحات سبق أن بعث بها إليه فى مارس ١٩٠٢، حول قروض يهودية للإمبراطورية العثمانية، مقابل تحقيق الوعد الذى قطعه على نفسه للمنظمة الصهيونية، بالسماح بإقامة مستعمرات يهودية فى العراق، وفى لواء عكا، عن طريق فتح الباب أمام الهجرة اليهودية.

فمنذ تحركت العصابة الصهيونية العالمية فعليًا، بعد مؤتمر بال فى سويسرا سنة ١٨٩٧، رسمت مخططات شرسة للسيطرة على الاقتصاد العراقى، وإحكام القبضة اليهودية عليه، بواسطة أعداد اليهود الضخمة فى العراق، التى اتجهت الغالبية العظمى منها – كما فى بقية الدول العربية والعالم – إلى العمل بالتجارة والاستثمار، والاستحواذ على أنشطة بعينها، تحكم من خلالها السيطرة على عصب الحياة الاقتصادية فى الدولة.

ونظرًا للمناخ الآمن الذين كانوا يعيشون فيه، تغلغلوا ببطه شديد داخل البنية الأساسية للحياة على العراق، وصاروا بالفعل جزءًا حيويًا مهمًا فى عجلة اقتصاده.

وبرغم ابتعادهم عن الزراعة، إلا أنهم إمعانًا فى الامتزاج والتداخل، اشتروا مساحات شاسعة من الأراضى، وشغلوا قرى وإقطاعيات بكاملها، حتى امتدت أراضيهم للمناطق الشمالية فى نينوى، فتمركزوا بكثافة كبيرة فى "دهوك" شمالى الموصل، وانتشر الآلاف منهم فى بغداد. يمتهنون الحرف المختلفة، ويتبوأون المراكز الاقتصادية الهامة بصبر وسعى عجيبين. بعض هؤلاء كانوا هم الركيزة الأساسية للجاسوسية الإسرائيلية فى العراق.

من ناحية أخرى، بذلت الدولة الصهيونية جهودًا جبارة منذ قيامها، لكسر الطوق العربى المحيط بها، عن طريق الدخول فى علاقات مصالح متشابكة مع إيران وتركيا، والدول الأفريقية الأخرى، لتطويق الدول العربية، وحصارها من الشمال والجنوب والشرق.

ففى الشمال والشرق، وهو ما يهمنا الآن، أسست المخابرات الإسرائيلية أواخر عام ١٩٥٨، منطقة ثلاثية تسمى (ترايدانت Traidant) بالاتفاق مع جهاز الأمن الوطنى التركى (المخابرات)، والمنظمة الوطنية للاستخبارات (السافاك)[1] فى إيران. وبتوقيع هذه الاتفاقية، توفرت للموساد علاقات حميمة إضافية بهذين الجهازين، حيث نصت بنود الاتفاق على تنظيم تبادل مستمر للمعلومات، بالإضافة إلى اجتماعات شبه دورية على مستوى رؤساء الأجهزة الثلاثة. وأيضًا نص الاتفاق الأصلى مع تركيا، على إضفاء الشرعية على الارتباط

---

(١) السافاك – SAVAC – جهاز الاستخبارات الإيرانى، قريب الشبه من SAVAGE أى التوحش والبربرية، أنشئ عام ١٩٥٣ لساندة حكم الشاه وتعضيده، بعد ثورة مارس التى قادها الدكتور محمد مصدق رئيس مجلس الوزراء، واعتصامه بمبنى البرلمان (بالبيجاما) هربا من اغتياله. وحكم الشاه إيران بالحديد والنار، حيث اتبع السافاك كل أساليب الوحشية مع الشعب الثائر من أجل تثبيت حكم الشاه بالقوة.. وطارد السافاك المعارضين بالخارج والداخل، وتحت هذه المزاعم أباد عشرات الآلاف من الإيرانيين لقوا حتفهم فى سراديب السجون وتحت وطأة التعذيب .. وكان رئيس السافاك الثالث والأخير، نعمت الله نصيرى، يلقب بالمكروه الأول، ووصف بالسادى المتوحش، وكانت ميزانية الجهاز تتعدى المليار دولار، وبلغ عدد موظفيه أكثر من مليونين موظف وعميل، وأما عدد المعتقلين خلال عام ١٩٧٥ فبلغ مائة ألف داخل السجون. وبعد ثورة الخومينى عام ١٩٧٩ ظهرت حقائق بشعة عن السافاك، واعتقل رئيسه (نصيرى) وحكم عليه بعد محاكمة سريعة، بالإعدام رميا بالرصاص، ونفذ فيه الحكم فوق سطح المبنى الذى كان يشغله الإمام الخومينى فى مدينة (قم).

الاستخباراتى بين البلدين، على أن تقدم الموساد معلومات حول نشاط عملاء السوفييت فى تركيا، وكذا العملاء الذين يعملون ضد الأتراك فى الشرق الأوسط، مقابل إمداد الإسرائيليين بمعلومات حول ما يمكن أن يؤثر على أمن الدولة اليهودية من النوايا السياسية والعسكرية للدول العربية، وحول نشاط وشخصيات عملاء « الجمهورية العربية المتحدة » - « هكذا فى النص » - الذين يعملون ضد إسرائيل.

إن الغرض الأساسى للعلاقة الاستخباراتية بين إسرائيل وتركيا، يكمن فى تطويق سوريا من الشمال، وأيضًا، تطويق العراق من جهتى الشمال والشرق، بإقامة علاقة وطيدة بالنظام فى إيران.

هكذا عملت الدولة اليهودية على تنمية سياساتها مع الإيرانيين لمعاداة العرب، ودخلت فى « عمليات » مشتركة مع السافاك الدموى منذ أواخر الخمسينيات، ودعمت أكراد العراق لزعزعة استقرار الحكم فى بغداد.

ولكى ترتكز الموساد على أرض صلبة فى إيران، قدمت للسافاك معلومات وافية عن اتجاهات السياسة فى العراق، والنشاط الشيوعى فى البلاد العربية المؤثرة على إيران.

لقد تصاعدت علاقة التنسيق الاستخبارى بين الجهازين، لتصل على القمة فى منتصف الستينيات، خاصة بعدما ازداد التوغل السوفييتى فى المنطقة العربية، مما اضطر شاه إيران لفتح الأبواب السرية المغلقة لرجال الموساد، وإسباغ صفة الشرعية على عملياتهم الاستخبارية ضد العراق، إذ جعل من المناطق المتاخمة للحدود العراقية نقاط انطلاق، ومراكز لتجنيد وتدريب الجواسيس العراقيين على اختلاف الملل والاتجاهات، بل وكانت توجد بهذه المناطق محطات استقبال لاسلكية للمعلومات المتدفقة من بغداد.

لكل ذلك، أمكن لضباط المخابرات الإسرائيليين، أن ينعموا بالأمن والانتشار

والتحرك، بمعاونة ضباط من السافاك، فاستطاعوا تكوين شبكات جاسوسية خطيرة ومتشبعة، تمد الموساد بما يشبه خريطة سير العمل اليومي، وسجل للحياة المختلفة في العراق، كما تقوم بتنفيذ المهام والأوامر التي تكلف بها، لرسم خطط السياسة الإسرائيلية واستراتيجيتها لكل مرحلة.

إن أهم ما كانت تسعى إسرائيل إليه هو العمل على هجرة يهود العراق. لذلك، اعتمدت وبشكل أساسي على عملائها في بغداد لضرب اليهود أنفسهم، والقيام بعمليات إرهابية ضدهم، تشككهم في نوايا العراقيين، فيندفعون وبقوة إلى الهجرة ومغادرة مواطنهم الأصلية غير آسفين.

هذه كانت خطة الموساد ضد الهيود الآمنين، الذى استقروا وامتزجوا بالحياة بشتى صورها، حيث كان الإصرار على جلب اليهود يرتبط ارتباطًا قويًا بالرغبة العارمة في اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه، وتشريده، إما في الداخل كما حدث لمسيحيي قريتي « أقرت » و « كفر برغم » وإما إلى خارج الحدود كما هو الحال بالنسبة للفلسطينيين النازحين إلى الدول العربية المجاورة، هربًا من المذابح الجماعية الإرهابية، الى اتخذها اليهود دستورًا لإقامة دولتهم.

لقد أرادوا « صهينة » فلسطين ونزع طابعها العربي عنها، وذلك بزرع المستوطنين الآتين من كل بقاع الأرض – ولا صلة بينهم إلا الدين ولا رابطة إلا العنصرية – مكان سكان البلد الأصليين.

لهذا السبب، لجأوا إلى الإرهاب الذى لم يقتصر على الشعب الفلسطيني وحده، بل تعداه ليشمل كل العرب، والبريطانيين، والأمم المتحدة، حتى اليهود أنفسهم. ولأن العشرات من القرى العربية خلت من سكانها، فكان المطلوب، والهدف، هو إعمار هذه القرى المهجورة باليهود الجدد.

لقد وقع على الاستخبارات الإسرائيلية عبء هذا الأمر.. ومن أجل ذلك، تأسست في العراق عام ١٩٤٢ منظمة سرية عرفت باسم : « حركة الرواد

البابليين » ، مهمتها تعليم الشباب اليهود كيفية استعمال الأسلحة وصنع المتفجرات، فتكون بذلك منظمة مستقلة لها أسلحتها ومجنودها، ومستعدة للعمل فى أية لحظة طبقًا لبرنامج محدد مدروس. إلا أن ظهور معارضة شديدة بين يهود البلاد العربية ضد الحركة الصهيونية، أدى لانزعاج قادة الفكر الصهيونى وأداة سياساته.

وخوفًا من انتشار موجة المعارضة، كان اللجوء للإرهاب هو أقصر الطرق وأفضلها لوأد أية أصوات مضادة، تعرقل مسيرة الاستلاب والاحتلال.

من هنا.. تحركت المخابرات الإسرائيلية سريعًا، وأوكلت إلى أحد عملائها فى العراق مهمة تشكيل شبكة جاسوسية، تأخذ على عاتقها مسئولية تهجير اليهود.

فماذا فعل العميل الإسرائيلى ؟.

إنها قصة عجيبة من قصص المخابرات والجاسوسية فى العراق.. ! !

(١) خـزام .. وعـبد الجـبار

جمعهما اللهـو والمـوت

الصدفـة العـابرة، أحيانـا، قـد ترسـم مصـير إنسـان عندمـا تقـوده إلى حيـاة هانئـة، أو تقـذف بـه إلى حـالك الظـلام والنهايـة المفجعة. وهذا ما حدث مـع الدكتور عيزرا خزام وعبد الجبـار.. حيـث انتـهيا إلى الإعدام رميًا بالرصاص.

قديمًا قالوا « الحب يصنع المعجزات » ، وفى هذا القول حقيقة تنطبق على أبطال هذه القصة. ففى حى الكاظمية ببغداد ولد عيزرا خزام عام ١٩٢٤ لأسـرة ثرية تعمل بتجارة المجوهـرات والمشـغولات الثمينـة. ونشـأ منـذ طفولتـه نشأة يهوديـة تقليديـة ، منكبًـا علـى كتبـه الدراسية بعيـدًا عـن مـهاترات الشـباب وطيشهم، إلى أن التحق بكلية الطب فى بغداد وتخرج منها عام ١٩٥٣ ، ليعمل طبيبًا بالمستشفى المركزى، مرتقيًا السلم الوظيفـى والمـهنى سـريعًا نظـرًا لمهارتـه الفائقة فى عمله.

وفى المستشفى تقابل مع إحـدى المرضـات اليـهوديات وتدعـى « جنـة » التى تسلمت عملها حديثًا، فانبهر بجمالها الفتـان وأنوثتـها الفتاكـة ، وغـرق فى حبها دون أن يدرى .. أو يقاوم. ففى ذلك الوقت، كـانت ضغـوط أسـرته ليتزوج تزداد يومًا بعد يوم .. واختار له والده ابنه تاجر يهودى ثـرى، رآهـا عيزرا عدة مرات فى المناسبات الدينية والعائلية، لكنــها لم تـترك لديـه أثـرًا يدعوه ليتقرب إليها، فصارح والده بمشاعره تجاه ابنة صديقه، وانشغل بعمله وبحبه لمرضته الحسناء.

وحدث ذات مـرة أن تجـرأ وأعلنـها بحبـه، فاسـتكثرت منـه ذلـك للفـروق الشاسعة بينهما، فهى ابنة يهودى فقير، يمتهن النحت والنقش على النحـاس، ولا قبل لأسرتها به. لكنه تناسى كل الفروق بينهما، غير عـابئ بفقرهـا، فـهى غنية بالجمال الوفير .. وهذا يكفيه.

استجابت جنة لعواطفه، وانقادت هى الأخرى تجاهه، مانحة إياه مشاعرها وقلبها عن قناعة، لكن حبه لها كان أضعاف ما تكنه هى من حب. لذلك كـان شديدة الغيرة، يطاردها فى ردهات المستشفى، وفـى كـل مكـان. ولما صارحتـه بأنها لم تعد تطيق تصرفاته، عرض عليـها الـزواج فـى أسـرع وقـت، فرفضـت بإصرار دون أن توضح لذلك سببًا.

تحير الدكتور عيزرا فـى أمـر حبيبتـه، وسـاورته الشـكوك والريـب، لكنـها

قطعت عليه الطريق، واعترفت له بأنها قررت ألا تتزوج فى بغداد، مهما امتد بها العمر، إذ هى تحلم بالحياة فى إسرائيل، والزواج هناك بمن يحبها، ويريدها.

اسقط فى يده، ولم يسعفه عقله ليقول أى شيء. فلما طال صمته، همت بالانصراف، لكنه جذبها بشدة وبعينيه شعاعات من تحد، وقال إنه يوافق على زواجها فى بغداد ثم يسعيان معًا بعد ذلك للهرب إلى إسرائيل. رفضت جنة ما أبداه من رأى .. ذلك لأن أسرته لن توافق على زواجهما، وبالتالى سيخسر الكثير وهو الذى اعتاد الحياة الناعمة بما يغدقه عليه والده من أموال.

وتمر الأيام وحبيبته فى تبدل مستمر تجاهه، فينفطر قلبه، ويسير كطفل رضيع يسعى لحضن أمه الدفئ، يتلمس بين أحضانها الأمن والحنان. فكانت ترقب حبه الطاغى لها فى تدلل، حريصة على ألا تمنحه ولو جرعة قليلة من أمل فى زواجهما ببغداد.

لقد بدَّد إصرارها على الهجرة أمنه، وأحال ليله إلى كابوس مقيم خوفًا من صدمة اختفائها المفاجئ. لذلك أسرع بتأجير شقة جديدة بشارع السعدون كعيادة، ورجاها أن تقبل العمل معه لتكون بقربه طوال اليوم. فوافقت واثقة من شدة تعلقه بها، وكانت تضمر له أمرًا.

لقد تحينت الوقت المناسب، وصارحته بأنها تعمل لصالح الموساد الإسرائيلى منذ مضى العام، وتنتظر انتهاء المهام التى كلفت بها فى بغداد ليتحقق حلمها بالهجرة.

هزه الأمر وبعثر عقله، مما اضطربت له قسمات وجهه وحياته كلها، ولأنه يحبها لدرجة الجنون، لم يشأ أن يرفض مسلكها فيخسرها. لحظتئذ.. عانقته فى امتنان، وأذاقته قبلة كالبركان أذهبت بإرادته، فكبلته معها بسلاسل من إثارة أنثوية فضحت ضعفه وخضوعه.

وبعد مرور عدة أيام – كانت أثناءها تختلى به كثيرًا لتمنحه المزيد – طلبت منه أن يستقبل رئيسها فى العمل. ومثله.. مغيب العقل والإرادة، لم يستطيع أن يرفض هذا الأمر.

شرح له العميل الإسرائيلي في اللقاء الأول بينهما، الكثير عن معاناة السواد الأعظم من اليهود في العراق، ورغبة الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة في العمل على تهجير أكبر عدد منهم، إشفاقًا لحالهم أولاً، ولحاجة الدولة اليهودية إليهم ثانيًا.

هكذا تم اللقاء بينهما في هدوء.. ولم يغادر « الرئيس » العيادة إلا وأقنع الدكتور عيزرا، بضرورة الانضمام للمنظمة السرية الصهيونية، التي تنتشر فروعها في كل العراق.

لقد كان للحب أثره العجيب.. إذ رحب الدكتور عيزرا بالعمل مع المنظمة، بل واتخاذ عيادته مقرًا للقاءات السرية، بعيدًا عن أعين رجال المخابرات، الذين ينقبون عن الخونة من اليهود في كل مكان.

يا إلهي.. ماذا فعل العراق بهؤلاء لينتقموا منه هكذا ؟

جيوش من الخونة تفتك بأمنه، ويعملون فيه مباضعهم بلا رحمة، كأنهم رضعوا الخيانة متوارثة في جذورهم البعيدة المتوغلة في التاريخ السحيق.

باع الدكتور عيزرا وطنه بخسًا للصهيونية، وكأنه ما ولد وعاش وتعلم على أرضه، وشرب من مائه، وتنسم هواءه. وأخضع لدورة تدريبية على أعمال التجسس، بواسطة ضابط إسرائيلي تسلل خصيصًا عبر شط العرب لتدريبه، ثم سافر إلى البصرة للحصول على دورة أخرى في استعمال جهاز اللاسلكي، ورجع إلى بغداد يحمل حقيبته الطبية، بداخلها الجهاز الثمين.

لقد اشتد إيمانه - كيهودي - بمهمته، وتعاظم حبه لإسرائيل متوازيًا مع حب جنة، قانعًا بضرورة الهجرة اليهودية لتشتد الدولة، وتقوى أمام الجبروت العربي والجيوش التي تتسلح سرًا لتدميرها.

ثم انقلب اهتمامه بقضية التهجير، إلى البحث في خبايا القوة العسكرية العراقية. هذا الأمر شغله تمامًا واستحوذ على تفكيره. فقد كان يرى أن لديه قدراته هائلة، للعمل في مجال الأسرار العسكرية، التي تتنامى في الخفاء. أما مسألة التهجير فبإمكان آخرين أقل حرفية منه القيام بها.

كانت جنة توافقه الرأى، وتؤيده، وتدفعه دفعًا بغريزة الخيانة التى ولد بها اليهود. فأقنعته بضرورة استخدام جمالها الفتاك معبرًا للوصول إلى معرفة نوايا العراقيين، وكذا خطط التسليح التى يضعونها للجيش، ومواقعه الأكثر سرية، بالسيطرة على أعصاب عدد من الضباط، يتم الإيقاع بهم فى حبائلها.

إن تعدد الانقلابات العسكرية للوصول إلى الحكم، منذ الإطاحة بالملكية عام ١٩٥٨، جعل من الجيش العراقى لغزًا يصعب التكهن به. فكل رئيس جديد - وهو عسكرى بالطبع - له بعده السياسى وقراءته الخاصة لخريطة الجيش وتضاريسها. ولقصر مدد الحكم، أصبح من العسير وضع رؤية محددة تترجم السياسات والنوايا. فالعراق يأتى فى المرتبة الثانية بعد سوريا، فى عدد مرات الانقلابات التى وقعت منذ استقلاله، حتى وصول صدام حسين إلى الحكم.

من هنا، ولهذه الأسباب، انشغل الدكتور عيزرا بأسرار السياسة والجيش فى العراق، بعدما تبين له أن هناك دلائل قوية، تشير إلى مساع جادة لتسليح الجيش بأحدث الأسلحة السوفيتية، لمساندة دول المواجهة فى صراعها ضد إسرائيل من جهة، وللوقوف ضد أطماع إيران من جهة أخرى.

فسياسة التخويف التى اتبعها الشاهنشاه محمد رضا بهلوى فى المنطقة، كانت سببًا مهمًا للبحث عن مصادر السلاح، وتدريب الجيش، ورفع درجة كفاءته واستعداده وتأهبه.

فكيف طوع الدكتور عيزرا جسد حبيبته لخدمة الجاسوسية ؟

ثور آشور

البداية كانت بطريق الصدفة البحتة، عندما لاحظت جنة نظرات ذات مغزى تفهمها الأنثى، لأحد المترددين على مكتب المحامى المواجه للعيادة! لم تعر جنة الأمر انتباهًا فى البداية. لكن، بعدما شاهدت الشخص نفسه بعد عدة أيام، وهو يرتدى البزة العسكرية برتبة عقيد، رمقته بسهم من لحاظها فأردته قتيلاً، وفوجئت به يدلف إلى العيادة كالمنوم التائه، يطلب منها مستأذنًا استعمال التليفون. كانت حجة واهية تفضحها نبرات صوته ونظراته العطشى،

أزادتها ثقة فى مواهبها وطغيان أنوثتها.

ولأنه صيد ثمين لا يقاوم، تعاملت معه برقة متناهية، مبديَّة إعجابها بزيه العسكرى المهندم، فأذكت غروره، وأيقظت لديه روح المغامرة، والشوق إلى العشق واندفاعات الشباب، فداوم على الاتصال بها تليفونيًا يسمعها كلمات الإطراء، بينما هى تصده فى دلال جاذب ساحر.

كانت جنة قد أطلعت عيزرا على ما تنويه للإيقاع بالعقيد عبد الجبار النحلاوى، فوافقها معربًا عن سعادته بإخلاصها للعمل، ورسما معًا خطة اصطياده المحكمة.

أعدت إحدى حجرات العيادة إعدادًا جيدًا، كمصيدة عسل[1]، حيث زودت بأحدث كاميرات التصوير والأجهزة اللاقطة للصوت. ولما اتصل بها العقيد عبد الجبار ذات مساء أنبأته أنها بمفردها بالعيادة لسفر الطبيب. فابتلع الطُعم، وعرض عليها أن يتناولا العشاء سويًا بأحد المطاعم فأجابته باستحالة ذلك لأنها تنتظر مكالمة هامة من الدكتور عيزرا. حينئذ عرض عليها أن يحمل العشاء إلى العيادة ليتناولاه معًا، فرحبت بعد تمنع ودلال. وهكذا ذهب برجليه إلى مصيره.

فبعد العشاء وكئوس « العرق » العراقى شديد المفعول، سحبته إلى الحجرة « الملغمة » ، واكتشفت بعد وقت ضئيل أن العقيد الفارع الطول، ذو الوجه العسكرى الصارم والشارب الكث، يعانى ضعف رجولته. إلا أن العميلة المحنكة، أشعرته بأنه فحل من فحول « نينوى »[2] ، وثور من ثيران « آشور » القديمة. فأقبل عليها نهمًا كالجائع المُجَوَّع، لا يمل مذاقها أبدًا ولا يشبع.

ولأنه يعرف « قدر » نفسه جيدًا، أراد تعويض هشاشة رجولته بالظهور

---

(١) مصيدة العسل – Honey Trap – مصطلح مخابراتى لعملية الإيقاع بأحد الضحايا بغرض السيطرة عليه، من خلال عميلة مدربة وشقة مجهزة فنيًا بأجهزة التصوير وتسجيل الصوت، وتفوقت الوساد فى هذا الأسلوب فى أغلب عمليات تجنيد العملاء والجواسيس، حيث يكون الجنس هو مفتاح السقوط السريع والاستسلام.

(٢) نينوى Nineveh عاصمة للمملكة الآشورية فى أزهى عصورها فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

بمظهر الضابط الكفء المسئول. لذلك استجاب لتساؤلاتها، متباهيًا بأهميته وعلمه بأمور الجيش وأسراره، تندفع منه المعلومات العسكرية كالشلال المحبوس، لا شئ يصده، أو يمنعه، للدرجة التى جعلت الدكتور عيزرا يستغيث برؤسائه فى « عبادان » ، أن يبعثوا بمن يتسلم عشرات التقارير الغاية فى الأهمية، والتى لا يستطيع اختزالها وبثها لاسلكيًا.

لقد تحول العقيد عبد الجبار النحلاوى إلى كلب طيع أليف، أوهمته جنة بفحولته فعوضها بأدق الأسرار العسكرية، وحمل إليها خرائط تفصيلية لقواعد الصواريخ، والدفاع الجوى، والمطارات العسكرية، ليستعين بها فى شروحه. فكانت تبدو متغابية أمامه ليسترسل أكثر فى إخراج ما برأسه من خبايا الجيش، وتتضاعف بذلك أشرطة التسجيل والأفلام التى تحمل إلى إيران، ثم تنقل فورًا لإسرائيل.

اتسعت عضوية شبكة الدكتور عيزرا، بفضل جسد الحبيبة المثير، لتشمل فئات أخرى عديدة فى المجتمع الراقى ببغداد.

خمس سنوات كاملة اكتسب خلالها الطبيب اليهودى خبرات واسعة فى فنون التجسس، وكيفية تجنيد العملاء والسيطرة عليهم، ملتزمًا بالحس الأمنى العالى، والسرية المطلقة لتحركاته. فتجاوز نشاطه التجسسى نطاق الجيش، والتسليح، وانشغل بكل ما يخدم مصالح إسرائيل فى العراق.

وبفضل علاقاته وتشعب مهامه، أمكن له تهريب أكثر من مائتى يهودى عبر « الفاو » وشط « العرب » إلى ميناء عبادان، وتسريب تقارير اقتصادية وعسكرية لإسرائيل لا تقدر بثمن، فأغدقت عليه مخابراتها بالمال الوفير الذى ينفق منه بسخاء على أعوانه، ويشترى به ذمم الضعفاء فى كل موقع يريد اقتحام أسراره.

هكذا استمر عيزرا يعمل فى الخفاء، ملتزمًا بمبادئه كيهودى يعمل لصالح وطنه الجديد، مشجعًا لحبيبته فى استدراج ضعاف النفوس إلى فراشها، حيث تُنزف الرجولة، وتنسل مع غياب العقل كافة أسرار الدولة سهلة بلا ضوابط.

لقد سخر نفسه ووقته وحياته للجاسوسية، ونسى فى خضم التزاحم أمر

الحب والغرام، على العكس من جنة التى التصقت به، ولم تنس للحظة أن هناك اتفاقًا بينهما على الزواج فى تل أبيب.

كانت تحس أحيانًا كثيرة بأن آمالها مجرد سراب كاذب. فبعد سنوات فى الجاسوسية، لا شئ يتحقق، ولا أحد يحس بمعاناة خوفها. فالعمر يجرى وتذبل فيه أوراق الشباب، وتنطفئ رويدًا.. رويدًا، أغاريد الجمال وروعة الأنوثة.

تساءلت كثيرًا : ما النهاية.. ؟ ما المصير.. ؟ وهل تحدث معجزة ويتحول الوهم إلى واقع ؟

السنوات الطويلة فى انتظار الأمل أرهقتها، ودمرت بداخلها البهجة، وقطعت حبال الصبر والثقة، فتزعزع إيمانها العميق بالعمل الذى كان مقدسًا، إذ تملكها إحساس مقيت بأنها تحولت إلى مجرد داعرة حقيرة، تخلع ثيابها تلقائيا لكل عابر فى سبيل ماذا ؟

إسرائيل ؟

تساءلت فى ألم :

هل يحس من تعمل لصالحهم بمعاناتها.. ؟

بامتهانها لذاتها.. ؟

بجسدها الرخيص المنهك.. ؟

بالقرف الذى يصيبها بالغثيان وهى تشم رائحة الأفواه النتنة، والعرق اللزج المتعفن الذى يزيد التصاق الأجساد العارية كل ليلة ؟

أعداد من البشر لا تستطيع حصرها، من كل لون وحجم، هتكوا ستر أنوثتها، وذبحوها ضحية لأمزجتهم الشاذة.

كل ذلك من أجل من ؟ الأمر المنتظر بعيد المنال؟ عيزرا الحبيب ابتعد هو الآخر. لم تعد تشغله أو تثيره كما كانت من قبل.. فقد فترت غيرته ورغبته فيها، ولم تعد تمثل لديه أى شئ. فقط.. تحولت فى حياته إلى مجرد «معاونة» تساعده فى خدمة الموساد، وامرأة تستجيب له بلا تمنع كلما أرادها.. ونادرًا ما كان يفكر بذلك طوال الفترة الأخيرة.

قتامة بشعة عششت بأفقها، وطحنتها رحى الفكر بعدما أضحت هشيم امرأة تتعذب، تتشقق ألمًا، لكنها آمنت بألا تخسره.

حساباتها المعقدة أوصلتها إلى تلك النتيجة، فتمنت أن يرجع إليها الحبيب، العاشق، الغيور، وأن يعاود عرض رغبته بالزواج. لو فعلها ونطق.. لوافقت في الحال، لقبلت يديه ورأسه وقدميه فرحة مطمئنة، لكن.. هل ينطقها بعد سنوات من الصمت ؟ إذن.. فلتحاول هى، فلا زالت تملك قدرًا من جاذبية، وسحر، بل هى تملك ينابيع من حنان.

كان عليها أن تهدأ قليلاً لكى تستعيد توازنها وتتكلم معه، فتستريح.

لكن.. يا لسخرية الأقدار، فعندما تتعارض الرغبات وتتصادم الأمانى، فالخسائر عندئذ بالقطع فادحة. والنتائج، قد تكون مهلكة.. ! !

هدم المعبد

حوادث بسيطة للغاية تمر بحياتنا.. لكن لا أحد يتصور أنها قد تجرفنا إلى طريق آخر، ربما نجد فيه سعادتنا، أو ينتهى بنا إلى كارثة لا نتوقعها.

بديهيات فشل الفيلسوف فردريك نيتشه فى تعرية مشاعره والتسليم بها، إذ أضاع عمره كله مؤمنًا بفلسفة « القوة » ، والدعوة لمجتمع « السوبر مان » ، بمعنى أن تعمل الحكومات على التخلص من الضعفاء والمرضى، وتبقى فقط على الأقوياء الأصحاء لكى ترتقى وتزدهر. فالضعفاء يستهلكون جهد الأقوياء. ووقتهم، وفى هذا استنزاف لثروات المجتمع.

وعندما كان فى زيارة لشمال إيطاليا، رأى حوذيًا يضرب حصانه بلا هوداة لأنه عجز عن جر العربة فى طريق صاعد. فأشفق نيتشه على الحصان، وأسرع بدفع العربة مع المارة، صابًا جام غضبه على الحوذى غليظ القلب، ثم اكتشف فجأة فداحة خطئه، فندم ندمًا شديدًا، وتراجع عن فلسفته التى أذهبت بعقله.. وقتلته.

أما الدكتور عيزرا خزام، فلم يكن يشك للحظة أن « جنة » التى تعشقه لدرجة العبادة قد تسعى لتدميره، وقتله. لذلك.. استعذب تلهفها عليه وتذللها

له.. وفى أعماقه كان يغمره انتشاء محبب كلما رآها خاضعة مستسلمة.. خائرة أمام حبها.. وخوفها من ذلك المجهول المتوثب المنذر بالخطر.

كان طوال خمس سنوات قد مل حبها وزهد مذاقها، واصبح هاجسه الأكبر هو السعى بإخلاص لخدمة إسرائيل. لهذا.. نبذ حبه القديم منذ اقتحم عالم الجاسوسية، متخطيا فيه خطوات تفوق ما كان يعتقد فى نفسه، وقدراته. إلا أن حادثًا عابرًا بدل فجأة كل شئ، وعجل بالنهاية.

لقد توقف ذات نهار بسيارته فى إحدى إشارات المرور ببغداد. وبينما ينتظر الإشارة الخضراء، لمح فتاة ساحرة تعبر الشارع، كانت قسماتها تفوق الإلهة «عشتروت»[1] جمالا، خطواتها الرشيقة كظبى أملود، يحجل طربًا فيزداد حسنًا. فتسمر عيزرا مكانه يتابعها بناظريه منجذبًا مفتونًا. وطاردها من بعدها بإصرار صياد عنيد لا يهمد.

كانت الفتاة وهى مسيحية تدعى « زهيرة »، صبية فى ريعان شبابها، غضبة بضة، تسلب العقل والفؤاد. تقدم الدكتور عيزرا لخطبتها باذلاً أمواله لاسترضاء أهلها، مستعدًا للتخلى عن يهوديته فور إعلان الموافقة.

انتابت جنة مشاعر متعاظمة بنفوره منها، برغم مشاعر الحب الفياضة التى تغدقها عليه. وبحاستها الأنثوية أدركت بأن هناك امرأة. وبدأت رحلة البحث عنها حتى وقفت على الحقيقة المرة، فصعقتها الصدمة، وزلزلت ما بقى عندها من أمل ضعيف. ولما طالبته بأن يقطع علاقته بزهيرة ويتزوجها، سخر منها قائلاً :

– وكيف لى أن أثق بك..؟ إن المرأة التى اعتادت كل الرجال يشق عليها أن تكتفى برجل واحد.

صرخت فى حدة :

– عيزرا.. ماذا تقول ؟ أنت تعرف بالقطع إنه صميم « عملى » .. وليس حبًا فى الرجال.

---

(١) عشروت : ربة الجمال والأنوثة عن البابليين

قال فيما يشبه التهكم :

– نعم.. أعرف ذلك.. وأعرف أيضًا أن « عملك » انقلب إلى « هـوس » مـا له من علاج.

صارخة وقد تحشرج صوتها:

– هوس ؟ أتسمى ما يحدث بيننا هوسًا ؟

– جنة..

تقاطعه :

– خمس سنوات وأنا أمنحك نفسى.. أتظننى « مريضة » لا حل لى ؟.. ماذا.

قال فى حدة :

– جنة.. أرجوكى..

– ألأنى أحبك أكثر من نفسى.. وأعمل كل ما يرضيك ويسـعدك توصمنـى بالشذوذ والهوس؟ إذن.. ماذا كنت تظننـى أفعـل مـع طوابـير أتبـاعك وزبـائنك ؟ أكـون الداعرة المهذبة؟ هم يريدوننى مهووسة.. فكنت أفتعل ولا أنفعـل.. كنـت أمنـح ولا أمنح.. أنت بنفسك طلبت منى مرات ومرات أن « أمثل » جميـع الأدوار.. أنسيت ذلك.. ؟ أم أنك زهدت فىَّ ؟

– أحببتك يومًا ما وطلبتك للزواج فتمنعت.

– (يومًـا مـا) ؟ أكنـت تكرهنـى طوال السـنوات الفائتـة ؟ لمـاذا إذن كنـت تعاشرنى حتى شهر مضى ؟

– كفى.. كفى.. جنة..

– لا.. أريـد أن أعـرف يـا عـيزرا.. أرجـوك، لا تخجـل مـن مصـارحتى.. أرجوك قلها لأستريح.

– لا وقت للحديث الآن.. وراءنا عمل ينتظرنا..

– عيزرا.. سأنسى كل ما قلته لى الآن.. سأنسـى تجريحـك وطعنـاتك لأنـك حبيبى . لكن، عاهدنى أن تكون لى.. وستجدنى دائماً خادمة لك.. أنـا أحبـك

فلا تذبحنى بسكين بارد أكثر من ذلك..

- جنة.. قلت لك كفى الآن. فما عساك تريدين ؟

- نعم يا عيزرا.. هذا يكفى !! ، لكن عليك أن تعلم أننى متعبة وبحاجة للراحة بالمنزل، فلا تطالبنى بأى عمل الآن على الأقل.

ومصدومة، محطمة، منكسرة، لملمت بقاياها، وذهبت إلى السلطات تطلب السماح لها بالسفر إلى إيران للعلاج[1]. وبعرضها على القومسيون الطبى، تبين أنها سليمة من الأمراض التى تستدعى السفر إلى الخارج.

لزمت جنة بيتها فى محاولة لتجميع ذاتها المهترئة، إلى أن حدثت كارثة يناير ١٩٦٦ فى بغداد، عندما ألقى القبض على (زالة) العميلة اليهودية، أثناء اقتحامها مقر إحدى شركات الإنشاءات ليلاً، بقصد الحصول على صور لرسومات المواقع العسكرية التى تقوم الشركة بإنشائها فى قاعدة الرشيد الجوية ببغداد.

لقد اعترفت « زالة » بحداثتها فى عالم الجاسوسية، وبأن شريكها الذى مات بالسكتة القلبية فى الشارع لحظة القبض عليه، هو رئيسها المسئول عنها « ضابط الحالة ». وأن التكليفات بالمهام تجئ من عبادان لباقى أعضاء الشبكة الذين لا تعرفهم.

ومع إعادة التحقيق معها عدة مرات والضغط على أعصابها، أوضحت بأن هناك طبيبًا يهوديًا لا تعرف اسمه الحقيقى كان يأوى رئيسها الذى مات.

قامت أجهزة الأمن فى الحال بالقبض على عدد كبير من الأطباء اليهود المشكوك فى تصرفاتهم وولائهم، ووضعتهم رهن التحقيق والاستجواب. وكان من بينهم الدكتور عيزرا خزام.

ولما علمت جنة بأمر اعتقال عيزرا، سيطر عليها الرعب والهلع، وفكرت فى نهايتها المؤلمة إذا ما اعترف بنشاطهما التجسسى، وباتت تنتظر فى كل لحظة

---

(١) حتى وقت قريب كان السفر إلى الخارج، فى العديد من الدول العربية، سواء للعلاج أو السياحة أو الزيارة، يتطلب تصريحاً من الجهات الأمنية بالموافقة.

طرقات رجال الأمن على بابها. فانضوت هلوعة، ذابلة، زائغة البصـر ترتجـف كورقة يابسة فى مهب الريح.

وبينما تقلب الصحف بحثًا عن أخبار تهمها، قرأت تصريحًـا لمسئول كبير تعهد فيه بمكافأة سخية لكـل مـن يـدلى بأيـة معلومـات، تـؤدى للقبـض علـى جاسوس، وحماية أى عراقى يبلغ عن تورطه فى أعمال الجاسوسية، مهما كان حجمها[1].

قـامت جنـة علـى الفـور وبدلـت ملابسـها، ثـم غــادرت منزلهـا إلى وزارة الداخلية، وطلبت مقابلة المسئول الكبـير لأمـر هـام فسـمح لهـا.. وأثنـاء اللقـاء شعرت بصدق نبرته وهو يعيد تأكيد ما صرح بـه للصحـف. فاعـترفت تفصيليًـا بأمر الدكتور عيزرا، وقصتها مع الخيانة.

هكذا كشفت كل الأسرار والخبايا، وهدمت المعبـد علـى مـن فيـه، إذ ألقـى القبض على اثنى عشر جاسوسًا فى شبكة عـيزرا وتكشـفت حقـائق مذهلـة عـن تورط العديد من اليهود العراقيين، وانخراطهم فى عمليات تجســس ليـس بنيـة العمل على تهجير اليهود فحسب، إنما طالت الأسرار العسـكرية وكـل نواحـى الجيش فى العراق.

وكانت وقائع المحاكمة عجيبة.. والأحكام التى صدرت أعجب.. فقد صــدر الحكم بإعدام الدكتور عيزرا وعبـد الجبـار رميًـا بالرصـاص، والشـنق والحبـس للباقين الأحد عشر.. لكن جنة المصدومة، فقد حكم عليها، رأفة، برغم فداحــة الجرم، بالسجن خمسة أعوام.

أما زهيرة، فقد عادت من جديد تجوب شوارع بغداد كغزال شارد، تطاردها الأعين الجائعة، فلا تلتفت أو تنصت، خوفًا من الوقــوع فـى غـرام جاسـوس.. آخر.. [2]!!

---

(١) هذا ما تعهد به جمال عبد الناصر أيضاً بعد نكسة ١٩٦٧، عندما تفشى وبـاء الجاسوسية الإسـرائيلية فى مصر، وتورط العديد من المصريين تحت التهديد فى التعاون مـع الأعداء. فكان من نتيجـة ذلك أن تقدم عددا كبيرا ممن قدموا من الخارج ببلاغات عما تعرضوا له، ولم تتخذ ضدهم أدنى عقوبات.

(٢) القصة جاءت بكتابنا: (جواسـيس الموساد العرب، قصة سقوط ٢٥ جاسوساًعربياً للموساد) ،ص٢٩٩:٣١١

المثير .. أن العقيـد عبد الجبـار النحـلاوى أثنـاء اقتيـاده إلى سـاحة تنفيذ الحكم، التفـت إلى فريـق الإعـدام الـذى كـان متأهبـاً، وبصـوت جـهورى قـال لأفراده: (ضعوا فى بنادقكم جميعاً رصاصات حية.. فأنا خائن مجرم أرجـو ألا تأخذكم بى شفقة وأنتم تطلقون النار..)

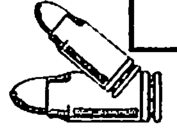
ومشى إلى عمود التنفيذ رافضًا أن يكبلـوا يديـه، أو يقومـوا بتغميتـه، مـردداً بأنه لن يهرب من مصيره.. وسيقف فى ثبات عارى الصدر أمام فريق الإعـدام. وبدون أدنى انتظار أعطيت الإشارة فانطلقت الرصاصات وسـقط الخـائن أرضـاً، فاتجه إليه قائد الفريق غاضباً وهو يقول : (هذا الكلب يريـد إظـهار الشـجاعة أمام الموت.. وكان أضعف من الضعف نفسه أما نزواتـه) .. ثـم أفـرغ رصاصـة الرحمة التى اخترقت داخل جمجمته من الناحيتين.

هذا بينما أصيب عيزرا بما يشبه الجنـون، وانتابتـه هيسـتريا عنيفـة عندمـا أدخل إلى ساحة التنفيذ.. فبال على نفسـه ورفـض طلبـه الأخـير بـأن يُبَنِّجُـوُه بمخدر ذكر اسمه، وصرخ للحاخام اليهودى الذى كان يتلو صلاته قائلاً:

(قل لهم فى إسـرائيل إن استطعت أننـى خدعـت فـى وعودهـم .. هـؤلاء الكلاب أكدوا لى كثيرًا بأننى فى مأمن.. ولـن يمسنى أى سـوء .. فصـف لهـم حالى بأمانة وانقل لهم احتقارى وأسفى لأننى صدقتهم وضحيـت بنفسـى بينمـا هم تخلوا عنى..)

بعدها أخذ ينتفض ويصرخ بكلمات غير مفهومة، ثم ارتفع صراخه بعد ما تم ربطـه إلى العمـود وتقييـد حركتـه، وظـل يصـرخ ملتاعًـا هكـذا حتـى أسـكتته الرصاصات التى أخترقت صدره .. وعندما همس الطبيـب بـأن النبـض لا يـزال يعمل اقترب الضابط بمسدسـه فـابتعد الطبيـب، وارتجـف الجسـد هـامداً مـع الرصاصة الأخيرة التى مزقت فصى المخ، تقتل فيـه الحيـاة .. وتطمـس خلايـا ذاكرة الطبيب الخائن..!!

(٢) فــرزاد بازوفــت



جاسوس مدفع صدّام

إيرانـى معــارض، لجـأ إلى بريطانيـا وعمـل مراسـلاً صحفيًـا. جندتـه الموسـاد وبعثـت بـه إلى بغـداد لاسـتطلاع أخبـار مدفـع صدام العملاق. لكنه سـقط فى قبضة العراقيين وأعدم رميًا بالرصاص فى ساحة الاستخبارات العسكرية.. !!

المراسل اللص

في إبريل سنة ١٩٨٨ وصل إلى بغداد الإيراني الأصل فرزاد بازوفت (Farzad Bazoft) الذى سجل اسمه في استمارة فندق ميريديان فلسطين ككبير المراسلين للشئون الخارجية في صحيفة الأوبزرفر القومية في لندن، ولم يكن في الأصل سوى عميل للموساد[1].

هاجر بازفت إلى لندن عام ١٩٨٥ بعدما جعلت أراؤه الصريحة المعادية لنظام آية الله الخميني حياته عرضة للخطر. وكغيره ممن سبقوه، شعر بازوفت بالغربة في لندن، لكنه شيئًا فشيئًا انخرط داخل المجتمع الإيراني في المنفى. وبالرغم من ذلك تملكه الضجر والزهق، وبدأ يبحث لنفسه عن دور في أوساط العراقيين.

جرى هذا في وقت كانت فيه الحرب بين العراق وإيران في ذروتها، حتى وجد بازوفت نفسه محل ترحيب في الحفلات العراقية، إذ كان مضيفوه الجدد أكثر اطمئنانًا واستعدادًا للاسترخاء من الإيرانيين، ففتنهم بأخلاقه الكريمة، وإطلاعه الواسع على البنية السياسية في طهران، ونكاته الساخرة الحاضرة دائمًا عن الحكومة الإيرانية، حتى أنه كان يصرح لهم كثيرًا برغبته في الإطاحة بآية الله الخميني.

في تلك الأثناء كان بازوفت يسعى إلى العمل في الصحافة، كمصدر دخل أولاً، وانتقاد الثورة الإسلامية في إيران ثانيًا. ونشر بالفعل مقالات في صحيفة إيرانية محدودة الانتشار موجهة إلى الإيرانيين في المنفى البريطاني. لكن طموحه كان أكبر بكثير من ذلك، وكان بحاجة إلى معجزة ليتم تعيينه بإحدى الصحف البريطانية الكبرى في لندن، مما يتيح له هامش الأمان الاقتصادى

---

(١) جوردون توماس : انحطاط الموساد.. اغتيالات وأكاذيب وارتزاق. ترجمة محمد معتوق - دار بيسان، بيروت. الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م.

الذى كان يصبو إليه.

هكذا قرأ عملاء الموساد فى لندن رغبة الإيرانى المعارض، الذى يعانى ضنك العيش فى عاصمة الضباب ، فقاده أحدهم[1] إلى هيئة الإذاعة البريطانية (بى. بى. سى)، حيث كان من بين العاملين فى الهيئة عدد من المتطوعين لخدمة الموساد، ممن يتضمن عملهم رصد البرامج المعدة للبث عن إسرائيل، ومراقبة الموظفين بالقسم العربى فى الإذاعة. وسرعان ما عمل بازوفت باحثًا ومحللاً للأخبار الإيرانية، معتمدًا على فهمه لمكائد طهران.

ولما حان الوقت للقيام بالخطوة التالية فى تجنيد بازوفت، استغلت الموساد تزايد الاهتمام بأسرار عملية (إيران جيت) فى الولايات المتحدة، وزودت عميلها فى لندن بتفاصيل وافية حملها إلى بازوفت الذى نشرها فى صحيفة الأوبرزفر مع إشارات إلى إسرائيلى غامض يدعى نمرودى، متورط فى فضيحة إيران جيت. وما لبث بازوفت أن اصبح يكتب بانتظام فى الأوبزرفر (Observer) وحظى بوظيفة قلما يتحصل عليها صحفى بسهولة، حيث أصبح له مكتبه الخاص، وسكرتارية تنظم مواعيده ومقابلاته، مما منحه القدرة على الاطمئنان معيشيًا ومهنيًا.

لكن بازوفت بقى لا يتقاضى أجرًا سوى عما ينشر فى الصحيفة. وكان هذا مدعاة لأن يفتش عن أخبار جديدة دائمًا، وبذل أقصى الجهد للذهاب إلى الشرق الأوسط للتنقيب عن أسرار مثيرة.

ففى مثل هذه الظروف فقط تسدد الصحيفة كامل نفقاته، ويتمكن، كحال جميع المراسلين أمثاله، من التلاعب بفواتير النفقات لتحصيل مبالغ من المال تزيد عما أنفقته بالفعل. فقلة الدخل المادى كانت دائمًا إحدى أهم مشاكل بازوفت المعقدة..

وخلال هذه السفريات المتعددة إلى العواصم العربية، لم يشك أى من زملائه

---

(١) جاء فى المصدر السابق أن هذا العميل يدعى (عبد الحميد) وهو رجل أعمال عراقى فى لندن متسع العلاقات.

فى الأوبزرفر، أن زميلهم المراسل الذى كان يمضى الساعات وهو يتحدث بالفارسية مع مصادر أخباره، كان سارقًا أدانته المحكمة فى لندن من قبل، حيث أمضى ثمانية عشر شهرًا فى السجن بعد عملية سطو قام بها للاستيلاء على أموال مؤسسة مالية للتمويل العقارى.

ولدى نطقه بالحكم، أمر القاضى بترحيل بازوفت بعد نهاية مدة سجنه. فاستأنف بازوفت الحكم متزرعًا بأنه سيواجه الإعدام إذا أعيد إلى إيران. وقد رُفض الاستئناف، لكنه منح « إذنًا استثنائيًا » للبقاء فى بريطانيا لمدة غير محددة. وهذه خطوة غير مألوفة بقيت دواعيها سرًا محفوظًا لدى وزارة الداخلية البريطانية.

فهل تنبه ضباط الموساد إلى إمكانيات بازوفت ومواهبه لذلك تدخل مسئول بريطانى رفيع المستوى لإنقاذه وتسهيل أمر إقامته فى لندن.. ؟

مهمة سرية فى بغداد

بعد خروجه من السجن بدأ بازوفت يصاب بنوبات من الاكتئاب، عالجها بتناول الأدوية المهدئة. ثم تصادف والتقى بعميل الموساد: (عبد الحميد)، الذى يدير أعمالاً تجارية فى لندن، وبواسطته التحق بالعمل فى هيئة الإذاعة البريطانية، ثم انتقل للعمل فى الأوبزرفر، فى ذات الوقت الذى كان يقوم فيه بمهام صحفية بتكليف من شبكة تليفزيون (إندبندنت تى. فى. نيوز) المستقلة، ومؤسسة ميرور الصحفية الشهيرة، التى كان يمتلكها الصهيونى عميل الموساد روبرت ماكسويل[1].

وفى أحد أيام شهر إبريل سنة ١٩٨٨، جلس بازوفت وحده يتناول الشاى

---

(١) اغتالت الموساد رجلها روبرت ماكسيول بحقنه بفقاعة هواء أثناء وجوده فوق سطح يخته الخاص. وجاءت تفاصيل اغتياله ص ٣٣٧ : ٣٥٦ بكتابنا : (حراس الهيكل - عمليات الموساد الخارجية فى نصف قرن - الجزء الثانى : الاغتيالات) عن دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى بالقاهرة.

بفندق ميريديان – فلسطين بوسط بغداد، واعتذر عن عدم قبول دعوة الصحافيين الآخرين للانضمام إليهم قائلاً إنه يحتاج إلى (التفكير ببرنامج زيارته) للعراق. وأثناء تناوله الشاى، نودى عليه ليرد على مكالمة هاتفية فى البهو. ولما عاد بعد بضع دقائق بدا مستغرقًا فى التفكير. ثم غادر المكان فجأة برغم أنه كان قد طلب بعض الفاكهة والحلوى.

اختفى بازوفت ولم يظهر إلا فى اليوم التالى. لكن لوحظ أنه كان أكثر توترًا عما كان عليه من قبل، وقد أمضى معظم وقته فى ذلك اليوم ما بين بهو الفندق وجناحه تبدو عليه علامات القلق.

وعصر ذلك اليوم غادر بازوفت الفندق مرة أخرى، وكالمعتاد تعقبه أحد رجال الأمن العراقيين. لكنه عندما عاد كان متذمرًا مهتاجًا بسبب تعقبه فى كل مكان.

يومها قال لعدد من المراسلين البريطانيين إنه لن يعود إلى لندن. وبصوت غامض أضاف :

– استجد أمر مهم.

فعلق أحدهم :

– يبدو أنك تبحث عن موضوع تخلق منه فضيحة مدوية. لكن يجدر بك أن تحاذر، فأنت هنا فى العراق ولست فى بريطانيا.

ابتسم بازوفت لزميله وهو يردد :

– آمل أن أستطيع الكتابة عندما أحصل على ما أريد.

ذم أحدهم شفتيه بسبب غموض عبارة بازوفت.. وسأله :

– أنا لا أفهمك يا بازوفت..

أجابه بابتسامة باهتة :

- ستفهم.. ستفهم كل شئ فى حينه.

وبعد ذلك ببضع ساعات غادر بازوفت الفندق. وكانت تلك آخر مرة يرى فيها بفندق ميريديان فلسطين. وبعد سبعة أسابيع وزع النظام العراقى شريط فيديو يظهر فيه بازوفت وهو يعترف أمام المحققين بأنه جاسوس إسرائيلى يعمل فى خدمة الموساد.

بعد ذلك تكشفت الحقائق، وظهر أن بازوفت كان فى مهمة سرية لصالح الموساد، بغرض اكتشاف مدى تقدم خطط العالم الكندى جيرالد بول[1]، لتزويد العراق بالمدفع العملاق الذى تطول قذائفه إسرائيل. وهى مهمة صعبة للغاية كانت سترهق أعتى الجواسيس وأكثرهم مهارة وتدريبًا. لكن تكليف صحفى إيرانى بالمهمة يظهر بوضوح مدى استعداد رؤسائه لاستغلاله، والاستغناء عنه بسهولة فى الوقت نفسه، إذا ما انكشف أمره فى بغداد.

سجين كافكا

تعرض بازوفت للتعذيب الشديد أثناء الاستجواب، ومن شاهد شريط الفيديو لاحظ أن عيناه كانتا فى أحيان كثيرة تحدقان فى الفراغ، ثم ترف جفونهما فجأة فى سرعة وفزع وتجوبان فى أنحاء الغرفة التى يظهر فى مؤخرتها ستار ثقيل مزخرف، وقد بدا بازوفت منهارًا لا حول له ولا قوة فى تجنب مصيره الذى ينتظره.

فى تل أبيب تفحص العلماء النفسيون فى الموساد كل لقطة، وتأكد لهم أن مراحل تحطم بازوفت مرت بمرحلة عدم التصديق، وهو إنكار غريزى لحقيقة ما يحدث له. ثم اجتاحه شعور طاغ ومفاجئ ومدمر بأن الأمر حقيقى. أى بأنه قد تورط وانكشف أمره.

---

(١) اغتيال جيرالد بول : المصدر السابق، ص ٣٥٧ : ٣٧٤.

عند هذا الحد يمكن أن يكون المراسل الصحفي العميل قد أحس بردَّيّ فعل. الأول هو الذعر Panic المشل، والثانى رغبة جامحة لأن يتكلم. ولعله أدلى باعترافاته على شريط الفيديو بأنه عميل للموساد بعد صراعات نفسية عميقة معقدة.

ويضيف تقرير تل أبيب:

كانت نبرات صوته توحى بأنه أصيب بنوبات من الاكتئاب Depression الخارجي المنشأ أثناء اعتقاله، وذلك بسبب تعطيل أسلوب حياته المألوف والمعتاد تعطيلاً كاملاً، كعدم النوم Insomnia والأكل والشراب. ولعله شعر بتعب دائم، وآلام جسدية تفوق الوصف. وما كان النوم القليل لعدة دقائق يكفى لإنعاشه.

لذلك .. بلغ ميله لاتهام الذات Self actualization مرحلته المدمرة مع شعوره باليأس القاتل. ولعله كحال « السجين » فى رواية كافكا[1] « القضية»، شعر بأنه غبى لأنه تصرف كما فعل.

وعلى شريط الفيديو أيضًا، تظُهر عينا بازوفت أنه تلقى جرعات مخدرة شديدة التأثير والفعالية، مما أعجز خبراء الصيدلة فى الموساد عن معرفة أنواعها. وأدرك رئيس الموساد ناحوم أدمونى (سبتمبر ١٩٨٢ : مارس ١٩٩٠)، أن ذلك الاعتراف المذل الذى تضمنه شريط الفيديو، يمثل مرحلة تمهيدية لإعدام بازوفت.

---

(١) فرانزكافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤)، أديب ألمانى عاش حياة مليئة بالآسى حتى أن كتبه كانت تحرق فى شوارع برلين، بينما تترجم وتطبع فى باريس ولندن وأمريكا، وقد أطلق النقاد على أدبه أنه (الأدب الأسود)، لان القارئ يصاب بصدمة رهيبة للألم والرعب والوحشة التى تغلف أعماله التى أشهرها: القضية (أو المحاكمة). وفى هذه الرواية نقرأ أن رجلاً جاوز الشباب يفيق من نومه ذات صباح ليدخل عليه رجلان يزعمان أنهما من الشرطة، ويبدآن معه التحقيق وهو فى دهشة لا يدرى ما هى تهمته، ويتركونه بعدما يعرف أنه متهم وسيدعى للمحاكمة فى يوم ما. ويحاول هذا الرجل أن يعيش حياته فلا يستطيع. وتأتيه مكالمة هاتفية بموعد المحاكمة ومكانها. لكنه عندما يذهب إلى مكان المحكمة لا يجد شيئًا.. مكان محطم يسكنه بعض الفقراء. هكذا ظل يبحث عن المحكمة دون أن يدرك مكانها حتى يأخذه رجلان إلى خارج المدينة، ويطرحانه أرضًا ويقتلانه، ولا يقاوم ويسمع صوتًا يقول : يموت مثل كلب. (على عبد الفتاح : أعلام فى الأدب العالمى. مركز الحضارة العربية، القاهرة ١٩٩٩).

لم يُشنق

وفى لندن، انتقد نواب بريطانيون علنًا صحيفة « الأوبزرفر » لإيفادها بازوفت إلى العراق، وأنكرت الصحيفة فى كل مناسبة أن مراسلها الإيرانى الأصل، لم يكن يومًا ما جاسوسًا فى خدمة إسرائيل.

لكن فى مارس ١٩٩٠ بثت وكالة « رويترز » للأنباء، خبرًا مفاده أن فرزاد بازوفت أعدم شنقًا فى بغداد، وكان آخر ما نقل عنه وهو أمام المشنقة قوله : (إننى لست جاسوسًا إسرائيليًا).

وبعد سقوط بغداد فى ٩ أبريل ٢٠٠٣، اعترف ضابط عراقى بأن بازوفت أعدم رميًا بالرصاص داخل مبنى الاستخبارات العسكرية وليس شنقًا كما نقلت وكالات الأنباء العالمية. وأن بازوفت ظل قابعًا بسجن الاستخبارات داخل زنزانة ضيقة تحت الأرض، بعدما تعرض لتعذيب بدنى شديد لانتزاع اعترافاته، وأسماء أعضاء شبكته فى بغداد، لدرجة أن جزءًا من فروة رأسه انتزع أثناء التعذيب، وقبيل إعدامه بأيام كان الدود يرعى فى الجرح المتقيح دون أن يهتم أحد بعلاجه.

أوضح الضابط أيضًا، أن الجاسوس الإيرانى ألقى القبض عليه بعد مراقبات مطولة خلال زياراته لبغداد. وفى آخر زيارة له شوهد وهو يراوغ مراقبيه ويهرب منهم، مما أكد على أنه يقوم بعمل ما غير شرعى، وإلا لماذا كان يراوغ ويزوغ للإفلات من المراقبة فى شوارع بغداد.. ؟

لقد كانت كل شخصية أجنبية تزور العراق، ولو كانت صديقة، تتعرض للمراقبة طوال الـ ٢٤ ساعة منذ لحظة الوصول حتى المغادرة. إنها أوامر جهاز الاستخبارات الذى خصص أعدادًا غفيرة من المرشدين تم تدريبهم لإتمام مثل هذه العمليات دون أن ينتبه الضيف. لكن عندما انتبه بازوفت وتصرف التصرف الطبيعى الذى يقوم به العملاء والجواسيس، كان لابد من وضعه تحت الملاحظة المستمرة هو ومن يلتقى بهم.

المثير، أن مفرزة من الأمن العراقى تسللت إلى غرفة بازوفت بالفندق، ودهش

أفرادها عندما لاحظوا العلامات السرية التى زرعها المراسل الصحفى المدرب فى أوراقه وحقائبه، بل وعلى باب غرفته وفراشه. كانت كل هذه الشواهد تؤكد أنه يتستر وراء مهنة المراسل الصحفى، فى حين أنه جاسوس ماهر.

لكن لمن كان يعمل.. ؟

كان هذا هو السؤال المحير، وتم استبعاد أنه يعمل لصالح إيران نهائيًا، لأسباب عديدة كانت ستمنع الإيرانيين من إيفاده هكذا صراحة إلى بغداد. لكن المؤكد أنه كان جاسوسًا نال تدريبًا جيدًا.

ضبط بازوفت بالقرب من منطقة عسكرية محظورة يقوم بتصوير النباتات البرية، فى حين كان يراقب تجربة إطلاق المدفع العملاق. ولما فشل فى تبرير سبب تواجده بالمنطقة بشكل مقبول تم التعامل معه « تعذيبه» حتى أفصح عن مهمته الحقيقية، واعترف تفصيليًا بكل شئ، لكنه تمسك باعترافاته بأنه يعمل وحده دون مساعدة من أفراد عراقيين. وكان الأمر يتطلب تأكيدًا صريحًا بذلك، فكان إخضاعه للتعذيب بأنواعه أحد أهم محاور انتزاع اعترافاته كأجنبى[1].

ويؤكد الضابط العراقى الذى كان يعمل فى المخابرات العسكرية أن جاسوس الموساد بعدما تعفنت فروة رأسه وسبح الدود بها، كان لا يكف عن الصراخ ألما «مطالبا» بإعدامه أو علاجه.

وفى أوائل مارس ١٩٩٠ اقتيد بازوفت إلى ساحة خلفية لمبنى المخابرات العسكرية ببغداد، حيث كان ينتظره تسعة جنود مسلحون بالبنادق. ما إن رآهم المتهم حتى صعق وأصيبت ساقاه بالشلل، لكن تم جره إلى نقطة محددة يقع خلفها حائط من شكائر الرمل، وأعدم رميًا بالرصاص وكان ما يزال يصرخ بأنه برئ، مرددًا بأنه يريد كتابة رسالة من سطرين لأسرته فى طهران.

(١) لم تكن أجهزة الاستخبارات العراقية تملك أكثر من وسيلة التعذيب مع المتهم الأجنبى، أما المتهم العراقى، فكانت توجد وسائل أخرى إلى جانب التعذيب، أهمها القبض على زوجة المتهم وبناته، وتهديده باغتصابهن، فيعترف أحيانًا بما يريدون منه أن يعترف إنقاذًا لشرفه.

ويبدو، كما يقول الضابط العراقى، أن الفريق الذى أطلق الرصاص لم يكن بالكفاءة المطلوبة، أو ربما كان أفراده ضمن أفراد الحماية والحراسات، فقد تبين أن عدة رصاصات مزقت رقبة بازوفت، واخترقت رصاصتان جمجمته، كانتا بمثابة رصاصتا الرحمة لجاسوس الموساد الذى لم يعلن رسمياً عن إجراء محاكمة له، أو يسمح له بكتابة رسالة لعائلته، أو أن يجرى إعدامه وفقًا لطقوس تنفيذ أحكام الإعدام رميًا بالرصاص.

وكان بازوفت[1] هو والجاسوس الجزائرى الأصل جان شوشان مورو[2]، يمثلان نموذجين غريبين لأشهر خائنين أعدما رميًا بالرصاص، كان الفاصل الزمنى بينهما ثلاثة عقود، وعدة آلاف من الكيلومترات.. ! !

---

(١) تردد أن وزير الخارجية العراقى، ناجى صبرى الحديثى، كان صديقاً لبازوفت، وأنه لعب دوراً رئيسياً فى إعدامه دون ذكر تفصيلات.(جاء ذلك بكتاب الحياة السرية لصدام حسين عن دار الكتاب العربى - دمشق. القاهرة ص ٥٤). والمعروف أن ناجى صبرى بدأ حياته مترجماً فى صحيفة الثورة الناطقة باسم حزب البعث وتقترب من رئيس التحرير فى ذلك الوقت طارق عزيز، إلى أن رشح فيما بعد للعمل مديراً للمركز الثقافى العراقى فى لندن، ثم مديراً عاماً فى وزارة الإعلام، فرئيس تحرير جريدة الأوبزرفر الناطقة بالإنجليزية فى بغداد.

(٢) تأتى قصة شوشان مورو فى الفصل العاشر من الكتاب.

(٣) يعقـوب جــاسم ..

عــاشق فـروزنده ..!!

ذهب للاصطياف فى إيـران، فرجـع جاسوسًا للموسـاد، برفقتـه زوجـة مدربـة، اتبعـت حيلاً عجيبة للإيقاع بالضباط العراقيين، لكشـف أسـرار الغواصـات السـوفيتية فـى منطقة أم قصر.

إنـها أجـرأ عميلـة اسـتخدمت السم لقتل ضحاياها..!!

حصر كل يعقوب

في يناير ١٩٦٦، وفي إحدى نقاط العبور على الحـدود العراقيـة الإيرانيـة، لاحظ ضابط عراقي بعينـي خبـير مدقـق، أن حالـة مـن الارتبـاك تعـترى أحـد العابرين، فتقدم منه وسأله عن وثيقة سفره، فازداد ارتباكه، مما شجع الضـابط على ضرورة تفتيشه مرة ثانية بدقة. وكانت المفاجأة التي تلم تخطر بباله أبـدًا، إذ اكتشف جيوبًـا سـحرية فـي قـاع حقيبتـه، مليئـة بخرائـط لمواقـع عسـكرية عراقية، وتقارير سرية هامة تمس الجيش والاقتصاد.

انهار الرجل في الحال، وصـاح بالفارسية بمـا معنـاه أنـه مجـرد « نـاقل» للحقيبة ولا يدري بما بها.

وفي مكتب المخابرات العراقية ببغداد، أنكر تمامًا معرفته بالشـخص الـذى سلمه الحقيبة، مؤكداً على أنه اعتاد مقابلته بمقهى بشارع هارون الرشيد، فيتسـلم الحقيبـة منـه وينصـرف كـل إلى حالـه، دون أن يعـرف مـن هـو، أو مـاذا بالحقيبة؟!.

لم يصدقه ضباط المخابرات بالطبع في بادئ الأمـر، وأمـام إصراره وتـأكيده على أقواله، أدخلوه غرفة خاصة في بدروم المبنى، حيث جرى تعذيبـه بقسـوة ليعترف، فأقر بأنه يعمل لصالح المخابرات الإسـرائيلية، وتنحصر وظيفتـه فـي الذهاب لمقابلة جواسيسها في العراق لاستلام الوثـائق والعبـور بـها إلى إيـران. وتكرر هذا الأمر في بغداد تسع مرات من قبل إلى أن قبض عليه.

وفي محاولة أخرى لانتزاع أية معلومات من « فجر عبد الله » ، حبس فـي زنزانة انفرادية لعدة أيام بلا طعام أو شراب، وأوهموه بأن حكمًا قضائيًا سيصدر ضده خلال أيام، وسيعدم لا محالة عملاً بقانون العقوبات العراقي، الذي يعامله معاملة الجاسوس، عندئذ أصيب بالذعر ، واعترف بأنه لا يعرف سـوى الاسـم الأول فقط للعميل الذي سلمه الحقيبة وهو « يعقوب » ، وتذكر اسمه لأنه بينما كان معه ذات مرة في مقهى هـارون الرشيد، أقبـل أحـد الأشـخاص وصافحـه مناديًا عليه باسمه الحقيقي « يعقوب » حيث تبدل لونه في الحال ووضح عليه الارتباك الشديد.

أخرج فجر من زنزانته الضيقـة إلى أخـرى انفراديـة أكـثر اتساعًا، وعرضوا

عليه أن يساعدهم فى التعرف على « يعقوب » هذا مقابل أن يصنفوه كشاهد فقط، فوافق دون تردد على هذا العرض السخى.

ومنذ أن أدلى فجر باسم يعقوب، كان هناك سباق محموم مع الزمن للتوصل إلى جاسوس إسرائيل عن طريق السجلات المدنية، تلك التى تم مسحها بالكامل فى كل العراق لحصر الاسم، والحصول على صور كل « يعقوب » عراقى لعرضها على العميل الإسرائيلى.

آلاف الصور لأشخاص فى العقد الرابع عرضت عليه مرة واثنتين، على مدار عدة أيام، عومل خلالها جاسوس الموساد معاملة حسنة، فأطعم اطايب الأطعمة وألذها، وجلبت له أنواع السجائر التى يفضلها، فضلاً عن أنه نام نومًا مريحًا على فراش وثير.

وفى اليوم السابع للبحث المضنى الذى بدا مستحيلاً، تعرف فجر على صورة يعقوب يوسف جاسم - ٣٤ عامًا - الموظف بإحدى محطات الكهرباء ببغداد، وللتأكيد أعادو عرض الصورة مرة اخرى بعد خلطها بصور قريبة الشبه، لكنه تعرف على الصورة نفسها. فى الحالة قامت قوة من رجال المخابرات بمهاجمة منزله وتفتيشه، فعثروا على وثيقة سفره التى تبين منها أنه سافر إلى إيران عشرات المرات.

وعندما أخبرهم بأنه متزوج من إيرانية، لم يلتفتوا إليه، بل استمروا فى التفتيش إلى أن ضبطوا عدة وثائق عسكرية سرية محشورة فى « رجل » السرير النحاس، مربوطة بخيط رفيع يتدلة من أعلى « الرجل » الأسطوانية، التى نسى أن يضع عليها غطاءها كالأرجل الثلاثة الأخرى، فألقوا القبض عليه وعلى زوجته الإيرانية « فروزنده وثوقى » .

استمرت عملية التفتيش بدقة متناهية، بمعرفة خبراء المخابرات الفنيين، الذين اكتشفوا مخبأ سريًا فى غلاف مجلد كبير عن الشاعر « معروف الرصافى » [1]، يحوى رسائل باللغة الفارسية، عبارة عن أوامر من ضابط

(١) معروف الرصافى : شاعر العراق الأشهر . ولد عام ١٨٧٥ ببغداد وتزوج وعاش فى استانبول عاصمة الخلافة العثمانية ، حيث كان من نجوم المجتمع اللامعين بعدما عمل لفترة طويلة بالتدريس فى بغداد، وأقام فى الفلوجة منذ عام ١٩٣٣ حتى قبيل وفاته عام ١٩٤٥ .

الارتباط الإسرائيلى فى ميناء عبادن الإيرانى، يطلب منه موافاته بتقارير وأخبار عن الأسلحة السوفيتية الجديدة التى تصل إلى العراق، والغواصات السوفييتية الكامنة فى قاع منطقة « أم قصر » المتاخمة لحدود الكويت، و كذلك عن حظائر طائرات توبولوف ـ ٢٢ الحربية المهاجمة، من حيث ما يتصل بعددها، والمطارات الحربية المتواجدة بها، إضافة إلى جمع معلومات تفصيلية عن الطائرة المقاتلة الجبارة ميج ٢١[1] ومطاراتها وعدد طياريها، والخبراء السوفييت فى العراق.

صراع السيطرة

وفى مبنى المكتب الثانى ـ المخابرات العراقية ـ أخضع يعقوب جاسم لاستجواب مطول، فأنكر فى البداية اشتراك زوجته معه فى أعماله التجسسية التى اعترف بتفصيلاتها . إلا أن استجواب فروزندة على انفراد أسفر عن اعتراف صريح بدورها فى شبكة زوجها، بل وأدلت بأسماء بعض أعضاء الشبكة من العراقيين قبلما يعترف بهم يعقوب.

وكان لسقوط شبكة يعقوب جاسم أثر بالغ على المخابرات الإسرائيلية، إذ خسرت بسقوطها العديد من أمهر جواسيسها فى العراق.

كانت لطمة عنيفة للموساد التى لم تتصور أن بالعراق رجال مخابرات أكفاء، لديهم المقدرة على مطاردة الخونة واكتشافهم بمثل هذه البراعة، وكذا فضح ممارسات إسرائيل والتواطؤ الإيرانى معها من أجل زعزعة الأمن فى العراق، بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا التواطؤ توجهه الولايات المتحدة الأمريكية وتباركه، للحفاظ على مصالحها فى الخليج من جهة، وللحد من التغلغل السوفييتى فى المنطقة من جهة أخرى، خاصة بعد زيارة شاه إيران لموسكو فى يوليو ١٩٦٥، التى أزعجت الإدارة الأمريكية وأربكتها.

لقد كان التوسع فى المؤسسة العسكرية فى المنطقة سببًا آخر، يضاف إلى

(١) فى ١٦ أغسطس ١٩٦٦ هرب بواحدة منها النقيب العراقى "منير روفا" وطار بها من قاعدة الرشيد الجوية ببغداد إلى إسرائيل. التفاصيل جاءت كاملة بكتابنا : (العملية 007 – وهروب أول طائرة حربية عربية إلى إسرائيل).. عن مكتبة مدبولى بالقاهرة.

الخوف الأمريكي والإسرائيلي معًا، فالتوسع في المؤسسة العسكرية الذي يعني تحديث الجيوش، إدارة، وتسليحًا، وتدريبًا، يترتب عليه بالتالي توسع في الطبقة العسكرية، نظرًا لغياب المؤسسات السياسية المدنية، وبالضرورة ستتحول الطبقة العسكرية في العراق إلى فئة ضاغطة سياسيًا، وذات ثقل في اتخاذ القرارات.

هكذا كانت النوايا الأمريكية تتجه بزاوية حادة لإجهاض النمو العسكري في المنطقة لعدم التداخل مع مصالحها، والعمل على تأسيس مؤسسات نيابية، وحكم مدني نزيه، يفتح الباب على مصراعيه كي تجد الكفايات المدنية مكانها في السلطة، وفي مطبخ القرارات العليا، وإلا فستلقى المنطقة - مع هذا النمو العسكري الحديث - سلسلة من المغامرات والاختبارات المرة، خاصة إذا لم تكن هناك وقاية من عمليات التلقيح السياسي، وزرع روح الاحتراف العسكري وشرفية المهمة العسكرية.

ومنذ الانقلاب العسكري الذي أطاح بالملكية في العراق في ١٤ يوليو ١٩٥٨، والعسكريون يعتلون مقعد الرئاسة، حيث توالت الانقلابات العسكرية، وظهرت على الساحة وجوه عسكرية لم تلتزم بخط سياسي عام، أو استراتيجية مفهومة. مما أزعج الولايات المتحدة الأمريكية التي تحتفظ بوجود عسكري في الخليج العربي منذ عام ١٩٤٩، حماية لمصالحها في البحرين والكويت والسعودية، معتبرة أن الخليج العربي قاعدة شمالية لأسطولها في المحيط الهندي.

وواكب تضاؤل حجم الوجود العسكري البريطاني في المنطقة، تزايد عسكري بحري سوفييتي في المحيط الهندي، مما يستلزم على الولايات المتحدة أن تحافظ على الوجود العسكري الغربي في المنطقة. ذلك أن نصف النفط المستهلك في غرب أوروبا مصدره الخليج العربي، وتعتمد القوات الأمريكية في جنوب شرق آسيا، وقوات حلف الأطلسي على بترول الخليج.

من هنا، فالسيطرة الأمريكية على الخليج العربي كانت أمرا حتميا لتنامي مصالحها به، وخوفًا من وقوعه تحت سيطرة قوى أخرى مناوئة للغرب، قد تهز ميزان المدفوعات الأوروبي الغربي هزة كبيرة.

ومن جهة أخرى،كان الاتحاد السوفييتى يسعى إلى السيطرة على منابع الطاقة، ومنتجاتها الرئيسية بالنسبة لأوروبا الشرقية خشية استقلالها اقتصاديًا عن الكرملين، وكانت الإمدادات البترولية هى البعد الرئيسى من أبعاد الهيمنة السوفيتية على دول « الكوميكون » أى السوق الاقتصادية لأوربا الشيوعية.. فحصول السوفييت إذن على دور مؤثر فى منطقة الخليج العربى، يعنى سيطرتهم على أسواق البترول فى أوروبا الشرقية، وبالتالى ضمان ولاء هذه الدول لها.

لكل تلك الأسباب، أدى الصراع بين الدولتين العملاقتين فى المنطقة، إلى التنافس الشديد فى التواجد الفعلى على أرض الواقع، عسكريًا أو سياسيًا، فأغرق السوفييت العراق بالسلاح المتقدم، وملأ الخبراء الروس مدن العراق وشوارعها فى تظاهرة شبه استعراضية، بل وتواجدت الغواصات السوفيتية بشكل دائم فى المنطقة، حتى أنها أصبحت إحدى معالم ميناء أم قصر العراقى الملاصق للكويت، حيث نالت البحرية السوفيتية حقوق استخدام التسهيلات المتوافرة هناك.

هذا الصراع المحموم على المصالح، تسبب فى جعل منطقة الخليج كقنبلة موقوتة، تهدد بالانفجار، لوجود نزاع بين إيران والعراق على ترسيم الحدود بينهما فى شط العرب، مما دفع إيران إلى تأليب الأكراد على بغداد، فلجأ حكام العراق إلى التقارب مع الأحزاب المعارضة فى إيران، ومع الدول العربية المطلة على الخليج، وتشكيل لوبى عربى ضد طهران .

كان هناك أيضًا نزاع حول تسمية الخليج، فإيران تسميه : « الخليج الفارسى »، والعرب تطلق عليه « الخليج العربى » .

لذلك.. نجد أن إسرائيل منذ زرعت فى المنطقة العربية، سعت لمراقبة النمو المضطرد للجيش العراقى، الذى يسلحه السوفييت بأحدث ما فى ترساناتهم العسكرية، ففتحت إيران أبوابها على مصراعيها لضباط الموساد، بل وسمحت لهم بالعمل بحرية ضد العراق انطلاقًا من أراضيها. ذلك لأنها كانت كإسرائيل تخشى من التسليح العراقى، وحكم بغداد العسكرى الذى قد يتعملق ويفرد ذراعيه باتجاه البلدين « إيران وإسرائيل » . لذا ، فقد كانت العمليات

الجاسوسية الإسرائيلية فى العراق، خير دليل على مدى الخوف من تنامى القوة العسكرية، ويقظة روح الجهاد لدى جيش العراق وحكامه.

رحلة إلى كوكب آخر

فمنذ ترعرع يعقوب يوسف جاسم، تراوده أحلام العظمة، وهو يعد أقرانه دائمًا بأنه سيصبح ذا شأن عظيم فى يوم من الأيام.

لكنه تعثر فى الدراسة وحصل على الشهادة الإعدادية بشق الأنفس، وبرغم ذلك لم تفارقه أحلامه وهواجسه التى سيطرت على حيز كبير من عقله ومسامراته وبعدما استقر به المقام فى عمله بمحطة كهرباء بغداد، استشعر تفاهته، وغامت حوله الرؤى. فالواقع الذى كان يعيشه لم يكن ينبئ أبدًا بضربة حظ قد تقتلع عذاباته، أو تصعد به إلى سفوح الوجاهة والعظمة.

لذلك استكان يائسًا مستسلمًا، نافرًا من واقعه ومن أحلامه، مودعًا وإلى الأبد مجدًا بناه فى الخيال.

وذات يوم من أيام سبتمبر ١٩٦٣، حزم حقيبته وعبر الحدود إلى إيران لقضاء أسبوعين على شواطئ بحر قزوين. فهى منطقة تتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة، التى تمتد من جبال « البورز » إلى البحر، وتسقط أمطارها صيفًا لتجعل الطقس نديًا رائعًا، حيث شواطئ « أستار » و « رامر » وموانى « بندر بهلوى » و « بابلر » و « نوشهر » ، فتبدو الإجازة بهذه المنطقة كأنها رحلة إلى كوكب آخر، يتسق فيه لون الماء وخضرة الزروع على درجاتها، فتشكل قطعة فسيفساء جمعت أبهى مظاهر الجمال والرونق.

وحينما وصل يعقوب إلى شاطئ « رامر » ، أذهله جمال الفاتنات يرتدين البكينى، ويمرحن على الشاطئ فى دلال. فقبع صامتا يتأمل ويغرز سهام رغباته فى أجسادهن، تعتريه نوبات من أحلامه السابقة، لكنه سرعان ما كان يطردها شر طردة.

تحت إحدى المظلات استغرقه تكفير عميق، نأى به عن بانوراما الحسن التى أمامه، حتى أفاق على من يقول له :

- « درود برشما، آيا شمــا إيرانــى هسـتيد » - « السـلام عليكـم، هـل أنـت إيرانى؟» .

ارتبك يعقوب أكثر عندما بادره الرجل ثانية :

- « آياشما زبان فارسى ميدانيد ؟» - « هل تعرف اللغة الفارسية»؟.

أجاب يعقوب مرتبكًا :

- « إنه.. من عراقى هستم» - « لا.. أنا عراقى. أجهل الفارسية».

انفرجت أسارير الرجل فى دهشة وأردف.

- « أهلا بك فى إيران».

كانت لهجته الشامية بشوشة مرحة، وعرفه بنفسه قائلاً إنه لبنـانى واسمـه « مازن » يقيم فــى طـهران ويعمـل بالاسـتيراد والتصديـر، وبعـد برهـة أقبلـت سكرتيرته الإيرانية «زالة»[1] ترتدى المايوه الأورانج، فغاص يعقوب فى ارتباكه وهى تصافحه مرحبة، ودعاه مازن إلى العشاء معه بفيلته المطلة على الشاطئ من عل، تحاصرها لوحة فنية من الزهور والأشجار، وتنام رقيقة فى حضن الجبل، الذى يبدو فى الليل كشلال متدفق من الأضواء الملونة.

كانت الأمور تسير فى يسر حيث استقبله مــازن بشـوش الوجـه ومعـه آخـر يدعى (رماء)، وأقبلت زالة كعروس من عــالم آخـر، بصحبتـها إيرانيـة أخـرى تدعى (كوكوش) والاثنتان تتحدثان العربية بطلاقة.

وبعد العشاء دارت الكئوس وثقلـت الـرءوس، وألـح إليـه مـازن أن كوكـوش وقعت فى هواه، وبدا هذا واضحًا من نظراتها واهتمامها الزائد به، وحينمـا هـم يعقوب بالانصراف إلى الفندق، أصر مازن على أن يبيت معه، وكـانت نظـرات كوكش اللاهبة ترجوه أن يبقى، وجلست إلى جواره تلاطفه فـأذهبت بقيـة مـا لديه من وعى، ثـم صحبتـه إلى حجـرة علويـة، وأغلقـت بابـها مـن الداخـل، وشرعت فى العمل.

أسقط فى يد العازب الحالم الثمل، وبينما كان ينزف رجولته، كانت هنـاك كاميرات تصور وأجهزة تسجل كلامــه وهمسـاته وضعفـه، وتنقـل كـل شـئ إلى

---

(١) زالة : يعنى الندى، الطل باللغة الفارسية

حجرة مازن ورماء ضابطى الموساد.

تكررت السهرات وحفلات الجنس فأيقظت هواجس يعقوب من جديد. وعندما عرضت عليه عميلة الموساد الانضمام إلى اسرة العاملين بشركة مازن، سألها:

ـ كيف؟

أجابته بأن الشركة تبحث إقامة فرع آخر ببغداد، ولكى يتحقق ذلك، لابد من معلومات وافية عن الاقتصاد العراقى وحركة السوق والتجارة، فكتب بيده عدة صفحات تتضمن معلومات كثيرة تشمل نواحى اقتصادية تافهة من خلال قراءاته فى الصحف، وفوجئ بقبوله للعمل كمدير لفرع بغداد.

لم يصدق يعقوب نفسه، فها هى أحلامه تحقق أخيرًا، وتضحك له الدنيا من جديد.

وبدلاً من الجلوس على الشاطئ للاستجمام، جلس كتلميذ مؤدب أمام معلمه مازن يشرب فنون الجاسوسية ودروسها الأولى. واستفسر يعقوب باندهاش عن علاقة الجيش والعسكرية، بشركة تعمل فى مجال الاستيراد والتصدير؟ فأجابه مازن بأن الأسرار العسكرية فى العراق مهمة جدًا له. فهو لن يجازف بإقامة فرع ببغداد طالما كانت هناك (نوايا) معينة لدى حكام العراق.

مائة بالمائة لم يقتنع يعقوب بالطبع، لكنه اضطر إلى الإذعان أملاً فى رفع شانه كما كان يحلم منذ صغره.

المخزن رقم (٢)

انتهت مهمة كوكوش عند هذا الحد ورحلت إلى طهران بعد انقضاء المرحلة الأساسية. أما يعقوب، فقد عاد إلى بغداد كشخص جديد، متقمصًا دوره كرجل أعمال مهم، بجيبه ١٢٠٠ دينار عراقى مرتب ثلاثة أشهر مقدمًا، وكان وفيًا جدًا لأستاذه ورئيسه مازن. إذ لم يفصح لمخلوق عن مهمته، أو عما حدث له على شواطئ بحر قزوين. وانخرط فى جمع المعلومات عن أحوال السوق العراقية، واتجاهات النمو الاقتصادى فى شتى المجالات.

وبعد خمسة أشهر سافر ثانية إلى طهران، يحمل هذه المرة تقارير اقتصادية متنوعة، ويحدوه الأمل فى أن يصبح ذات يوم من أشهر رجال التجارة ببغداد. حتى إذا ما قابله مازن، عرفه بإيرانى اسمه « عبد نابلون »، اصطحبه إلى فندق كبير بشارع « ورزش » شمالى « بارك شهر» فى طهران. وشرع فى استجلاء ما لديه من أخبار وتقارير.

كان يعقوب يفيض حماسًا وهو يشرح لنابلون تفصيليًا عن العراق وانفتاحاته التجارية، مستمدًا معظم تقاريره من أبحاث هامة نشرتها الصحف لكبار العقول الاقتصادية وخبراء التجارة.

لكن.. عندما عرج نابلون إلى الحديث فى السياسة والشئون العسكرية والتسليح، أظهر يعقوب جهله وعدم اهتمامه، حتى إذا ما أحس نابلون بأن الوقت مناسبًا تمامًا لمهمته، فاجأ يعقوب بالحقيقة. حقيقة أنه يعمل «مرشداً » لصالح الموساد، ولابد له من استثمار كل معلومة ولو كانت تافهة، ما دام سيحصل على ثمنها ونشر أمامه صوره العارية وأسمعه صوته وهو يسب النظام فى بغداد بما يعنى نهايته.

صعق يعقوب وتلجم لسانه.. بل إنه عجز عن السيطرة على نفسه وقد اندفع بوله ساخنًا بين ساقيه. إذ استغل نابلون أسرع طرق السيطرة بواسطة الصدمة الفجائية. الصدمة التى تذهب بالعقل والشعور. ويصبح الإنسان لحظتئذ عاجزًا تمامًا عن التفكير.. أو النهوض.. أو المقاومة.

هكذا سقط يعقوب فى براثن الموساد لا حول له ولا قوة. حاول أن يفك قيود العنكبوت التى كبلته، لكن نابلون كان واثقًا من نفسه.. ومن قدراته.. ومن مواهبه فى الإخضاع لدرجة الطاعة. فالصور العارية والتقارير التى كتبها بخط يده، كفيلة بأن تسكت صدى الرفض عنده لأن الإعدام فى بغداد ينتظره إذا لم يذعن. ولم يكن أمام يعقوب إلا الإذعان، ضعفًا.. وخضوعًا.. وخوفًا.. فلم يعد هناك أى مهرب.. أو سبيل للفكاك.. هكذا تصور.

كومضة أمل ، جاءت « فروزندة وثوقى » عاملة الفندق، لتقف فى طريق العراقى التائه.. المضلل. جمالها الرائع شغل عقله، والتصاقها به أيام محنته قربها إليه. فقد كانت هى الملاذ الحنون الذى يحوى انفعالاته.. وشجونه،

ويمتص غضبة الخواف الجاثم فوق حياته.

لذلك.. تحدث معها طويلاً، وصارحها برغبته الملحة فى الزواج منها، حيث ساعدته أموال الموساد على الارتباط بالفتاة التى دُسَّت عليه، والعودة بها إلى العراق.

وبهذا الزواج فُتحت أمامه ابواب الدخول إلى إيران فى أى وقت، وضمنت الموساد بزواجهما تدفقًا كبيرًا فى حجم المعلومات التى ستحصل عليها، فالعميلة الزوجة.. مدربة تدريبًا عاليًا على القيام بمهام تجسسية معقدة تعود بالنفع فى النهاية على إسرائيل.

وفى بغداد، بدأ يعقوب يمارس مهمته فى استكشاف أسرار الأسلحة التى تزود بها العراق الأردن، من حيث أنواعها وأعدادها ووسيلة نقلها إلى عمان. لقد عجز فى بداية الأمر عن التوصل إلى أية معلومات، حتى تقابل مع العريف « نورى سوار » المجند بإحدى القواعد العسكرية، فأغراه بالمال، وبطرق مختلفة حصل منه على قوائم كاملة بالمعدات التى زودت بها الأردن.

وحينما لاحظت فروزندة أن زوجها دأب على اصطحاب نورى معه إلى المنزل، بغية استثمار جمالها فى تليينه، تعجبت من غبائه، فهو لم يشك للحظة أنها عميلة للموساد، وجاهزة للسيطرة على أى عقل يريد وتركته يلجأ إليها شيئًا فشيئًا لتعاونه فى مهمته، حينئذ وجدها يعقوب الزوجة المطيعة.. التى توافقه رأيه وتشاركه عمله السرى.

بدأ الاثنان معًا فى البحث عمن يجئ بأسرار المخزن رقم « ٣ » فى بغداد، فأمر هذا المخزن حير الموساد كثيرًا، وفشل جواسيس كثيرون من قبل فى استجلاء سره، وكانت خطة فروزندة تتلخص فى التعرف على أحد الضباط العسكريين بطريق الصدفة فى شوارع بغداد، عندها.. تسأله عن عنوان ما بلغة عربية ركيكة، وبطيب خاطر يضطر الضابط إلى إرشادها، عندئذ تستخدم مواهبها لإحداث تعارف بينهما أثناء السير.

بهذه الخطة التى بدت ساذجة خرجت فروزندة لتتصيد ضحيتها الأولى. وكان ضابطًا برتبة نقيب اسمه « أحمد رافع »، ما إن استوقفته لتسأله عن أحد الشوارع، حتى سارع بمرافقتها بأدب. وخلال الطريق حدث التعارف

العفوى السريع، وعندما أوصلها إلى المكان المطلوب، كان زوجـها ينتظرها كما خططا لذلك، فشكر الضابط الشاب لشهامته وأصر على أن يقبل دعوته للزيارة.

وبعد أيام طرق رافع الباب ليجد فروزندة وحدها، حيث ادعت أن زوجها سافر إلى الموصل لعدة أيام. ولما هم بالانصراف ألحت عليه أن تقدم له واجب الضيافة. وبالفعل.. قدمت له جسدها، فتذوق أشهى وجبة من النشوة، غيبت عقله فأدمنها، وكان سرعان ما يتوق لوجبة ثانية ثم ثالثة. هكذا أوقعت به فى بئر نشوة مفتعلة، وكبلت إرادته شباكها، فسلمها ملفًا كبيرًا يحوى كل أسرار المخزن رقم « ٣» .

كانت مكافأة يعقوب ألفين وخمسمائة دنيار، ومثلها لفروزندة. أما أحمد رافع.. فقد أصيب بحالة اكتئاب شديدة بعدما أفاق إلى نفسه، وأحس بعظم الجرم الذى اقترفه ضد بلده، فامتنع بشكل قطعى عن زيارة فروزندة. عندئذ استشعرت عميلة الموساد الخطر إذا ما تطورت حالته النفسية سوءًا، وأقدم على الانتحار مخلفاً رسالة اعتراف أخيرة تقودها إلى حبل المشنقة.

لذلك.. أرسل لها عبد نابلون بسم السيانيد الفتَّاك، حيث أخذه يعقوب وذهب لزيارة رافع الذى قابله بغضب، فغافله الخائن ووضع له السيانيد فى العصير، ولما ظهرت أعراض التسمم التشنجية غادر المنزل بهدوء، وفى اليوم التالى مشى فى جنازة ضحيته.

هكذا تفعل الموساد مع ضحاياها الذين يتراجعون فى التعامل معها، فى لحظة صدق يشعرون فيها بوخز الضمير والندم. ففى عالم الجاسوسية لا مشاعر أو عواطف، ذلك لأن الجاسوسية لا تقوم على ضمير أو شرف، ولا تملك قلبًا يعرف نبضه رحمة تحكمه خفقات الهوى.

لكن.. فى تاريخ الجاسوسية العالمية، هناك حالات نادرة جدًا ثاب فيها الجاسوس إلى رشده، وأصغى لنداء الحب فلبى النداء. فالجاسوسية والحب.. موضوع شيق للبحث والكتابة[1].

---

(١) تحت الطبع للمؤلف عن دار أطلس كتاب جديد بعنوان: (جاسوسات عاشقات.. خلدهن الحب وحقرهن التاريخ).

بمقتل النقيب رافع، اطمأن يعقوب وزوجته، وإن نضب معين المعلومات العسكرية لديهما. لذا... فكرا في البحث عن ضابط آخر من الكبار يسهل إغواؤه.. وتنهمر الأسرار منه.

وبينما العقيد جاسر عبد الراضي جالس بسيارته العسكرية المعطلة، في انتظار سائقه الذى يبحث عن سيارة أخرى تجرها، اقتربت منه سيدة فائقة الجمال، تنزلق من عينيها الدموع السخينة. وبلغة عربية ركيكة، توسلت إليه السيدة أن يحميها من زوجها العراقي الذى لا يكف عن ضربها، ولأنها إيرانية غريبة لا تعرف ماذا تفعل، طلبت منه مساعدتها لتعود إلى إيران.

غادر الرجل سيارته مشفقًا عليها وقد أهشه جمالها الأخاذ، ووعدها بأن يصحبها لبيتها ليتحدث مع زوجها، وما إن جاء السائق حتى طلب منه الضابط أن ينصرف بالسيارة، وركب إحدى السيارات الأجرة مع المرأة الباكية.

انكمشت فروزندة بجوار الضابط الشهم وقد لفها الخوف، تغزو جسدها نظراته العطشى المتأملة، حتى إذا ما وصلا إلى المنزل، قابله يعقوب باحترام شديد وقص عليه حكايات مغلوطة وليدة خطتهما، فتعهد الضابط بحماية المرأة الأجنبية لما رأى خضوع يعقوب له، مؤكداً أنه سوف أن يساعدها في العودة لأهلها إذا ما عاد لسيرته الأولى معها.

لقد اعتقد الضابط أنه سيطر على الموقف، لكن دموع فروزندة كانت تؤرقه، فشعاعاتها السحرية بدت كأسلاك من فولاذ، كبلت عقله وسيطرت على إرادته، فلم يقو على نسيانها.

عدة أيام وعاد لزيارتهما فاختفى يعقوب في مكان لا يراه جاسر، وبدأت فروزندة خطوتها الثانية، بأن أكدت له أن وجوده إلى جوارها خفف كثيرًا من سلوك زوجها المعوج معها ؛ وشكرته لشهامته في نعومة يلين لها الحديد.

وبعيني أنثى خبيرة، أدركت أنها قطعت خطوة هامة للإيقاع به. فبعد عدة زيارات لم يستطع العقيد جاسر المقاومة، وأفصح صراحة عن رغبته فيها عندما

احتواها بين يديه حيث كان بدنه يرتعد كفأر في المصيدة، وأخذ يبثها حبه وهيامه، متناسيًا كل شيء في سبيل الوصول إليها.

هكذا باع وطنه على فراشها المتوقد بنيران أنوثتها، ولم يبخل بإفشاء اسرار الجيش العراقي، عندما سلم لعميلي الموساد أسرارًا خطيرة عن الطائرة السوفيتية توبولوف - ٢٢، التي تعد الأحدث قياسًا بقاذفة القنابل الأمريكية ب - ٥٢ « التي استخدمت في حرب فيتنام » ، كما أمدها بوثائق هامة، تتعلق بالمخزن الاستراتيجي من الذخيرة، وكشوف بأعداد الدبابات « تي ٦٢ »، وحصر عام لبنادق « برنو » التشيكية[1]، ورشاشات « دوشكا » و « كلاشينكوف» ، وأيضًا رشاشات « سينا » الصينية.

أمدها أيضًا بوثائق أخرى عن نظام الجيش العراقي، وأفرعه، وقياداته، وتشكيلاته، وتسليحه، وكذا.. خرائط سرية عديدة عن المطارات العسكرية، والقواعد الجوية الاستراتيجية والهيكيلية ونظام العمل بها. كل ذلك مقابل جسد فروزندة الذي كان يناله في أي وقت، حتى في وجود يعقوب.

كان العقيد جاسر عبد الراضي من أسرة عسكرية، تتزاحم بالمناصب والرتب، لذلك.. كان يفخر دائمًا بأنه يعلم بأسرار الجيش العراقي، حيث تصب كلها أمامه من خلال أقاربه العسكريين وزملائه في المواقع المختلفة.

لقد اكتشفت فيه فروزندة حبه الشديد للتباهي بنفسه، والتفاخر بمنصبه العسكري في الدفاع الجوي، وإدمانه للخمر والقمار والجنس، ولأجل ذلك. فهو ينفق رابته على نزواته ويعيش دائمًا مديونًا.. هاربًا من دائنيه.

اكتشفت فيه ايضًا ما هو اهم من ذلك.. قلة وازعه الوطني، وسخطه على الحياة في العراق، يترجم ذلك سبه الدائم لقيادات حكومته، وانتقاده العنيف لهم.

لقد برهن بما لا يدع مجالاً للشك، على عدم ولائه لوطنه، واستعداده لعمل

---

(١) استخدمت هذه البنادق خلال الحرب العالمية الثانية، وبواسطة إحداها ادعى الصحاف - وزير الإعلام العراقي أثناء غزو العراق في ٢٠٠٣ ، أن فلاحاً اسمه منكاش أسقط طائرة هليوكبتر أمريكية طراز أباتشي، كدعاية ساخرة أضحكت الدنيا فيما بعد. (أنظر كتابنا: التاريخ السري للصحاف، بين المخابرات والخارجية والإعلام)

المستحيل لأجل عيون عشيقته التى أعطته أنوثتها بسخاء فأسكرته، ومنحته من المال الكثير فأنعشته.

ونظرًا لزواجه من إيرانية، اعتاد يعقوب السفر إلى إيران مطمئنًا، حاملاً معه أدق الوثائق العسكرية السرية، خلافًا لوثائق أخرى كان يجلبها له عميل آخر اسمه عزاوى الجبورى.

هكذا.. استمر يعقوب يوسف جاسم يعمل فى خدمة الموساد بمعاونة زوجته، مندفعًا بكل طاقته غير عابئ بالعواقب، تخيم على عقله غيمة كاذبة من الوهم والثقة، حتى ألقى القبض على أعضاء الشبكات التسع فى يناير ١٩٦٦.

ساعتئذ.. ارتجت دعائم ثقته وغامت الحياة من حوله. فأحجم من فوره عن حمل حقيبة الوثائق إلى إيران، وانكمش مذعورًا يترقب مصيره المجهول.

أما فروزندة.. فقد أنهكها التوتر والخوف.. وفكرت.. بل ألحت على يعقوب أن يتركها لتغادر إلى وطنها، لكنه رفض بحسم. فقد كان بحاجة إلى رفيق يؤازره، ويشاطره مخاوفه.. وارتعاشة الأطراف لحظة الشنق.

ولما يئس رجال الموساد فى الوصول إلى يعقوب وزوجته، أرسلوا إليهما بعميلهم فجر عبد الله، الذى القى القبض عليه صدفة، فأرشد عن يعقوب عندما تعرف إلى صورته التى عرضت عليه مرات بواسطة رجال المخابرات العراقيين.

ففى فجر اليوم الثانى من فبراير ١٩٦٦، وبينما يعقوب وفرزوندة بحجرة نومهما، متكورين فى هلع لا حول لهما ولا قوة.. تطرق على سمعهما وقع عشرات الأقدام تحيط بالمنزل.

هبت فروزندة مذعورة إلى أحد الأدراج، وفى اللحظة التى تهشمت فيها الأبواب ودخول سيل من الرجال، ابتلعت كل ما بقى فى أنبوب سم السيانيد. أما يعقوب، فكان مستسلمًا للقيود الحديدية التى كبلت معصميه، ينظر إلى فروزندة هلعًا وقد جحظت عيناها، وارتعشت أطرافها قبلما تهوى ساكنة إلى الأرض.

هكذا نفذت حكم الإعدام على نفسها قبل محاكمتها، وأتاحت بذلك الفرصة

لشريكها أن يرى ارتعاشة موتها بالسم، فقد لا يسعفه الحظ ليرى ارتعاشتها وهى تتدلى من حبل المشنقة.

وهذا ما كان بالفعل. إذ نفذ حكم الإعدام فى يعقوب شنقًا بسجن بغداد المركزى فى ديسمبر ١٩٦٦، بعد محاكمة استمرت عشرة أشهر، اعترف أثناءها تفصيليًا بدوره فى التجسس مع شركائه لصالح الموساد، وأبدى ندمه الشديد لذلك. وجاء اعترافه بالندم فى لحظة حاسمة ما بين الجد والهزل. فالخونة فى كل زمان ومكان خونة لا أمان لهم ولا عهد.

أما عزاوى الجبورى، فقد ألقى القبض عليه فارًا بالقرب من منفذ العبور إلى الأردن. وكان هو الذى شهد ارتعاشة أطراف زعيمه يعقوب على حبل المشنقة، بدلاً من فروزندة.

لكن العقيد جاسر عبد الراضى، الذى اعترف مذهولاً بتفاصيل خيانته أمام المحكمة العسكرية، فقد نال حكمًا بالإعدام رميًا بالرصاص، وقبيل تنفيذ الحكم قال إنه يستحق هذا العقاب، بل إنه سعيد جدًا به لأنه سيخلصه من آلام الندم والحسرة، ويغسل ذنوبه التى تكاثرت وثقلت فوق كاهله، وترهق ضميره.

وعند تنفيذ الحكم طلب راجيا من قائد الفريق ألا تتم تغميته، ثم تقدم إلى عمود التنفيذ وهو يشهق نادمًا باكيًا. وقبيل إطلاق النار بلحظات أغمض عينيه بقوة ضاغطًا على أسنانه، ثم أحنى رأسه فى الوقت الذى انطلق فيه الرصاص إلى قلبه. وكانت رصاصة الرحمة تأكيدًا لموته، ولإراحته أبديًا من الألم والندم والحياة.

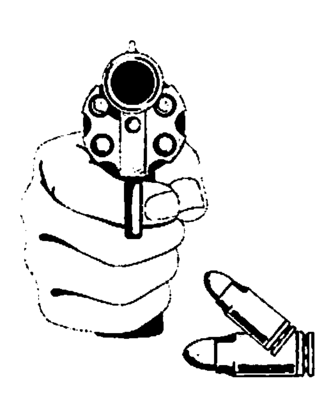
لكن.. كانت قد ترددت أنباء غير صحيحة، تفيد بأنه انتحر داخل جراج منزله بمسدسه الميرى.

وقبل أن تتكشف حقيقة إعدامه رميًا بالرصاص، كنا قد أشرنا إلى انتحاره بكتابنا : (جواسيس الموساد العرب، ص ٣٣١ : ٣٤٦) ،فنرجو التصحيح.

أما فجر عبد الله، فقد نال حكمًا بالأشغال الشاقة المؤبدة، ورفضت السلطات العراقية تخفيف الحكم على العميل الإسرائيلى، حيث طلبت إيران ذلك رسميًا من العراق.

الفصل الثالث

فى لبنان .. !!



« .. خلال خمسين عامًا لم تكن إسرائيل هى القوية.. ولم يكن جيشها هو القوى.. بقدر ما كان العرب هم الضعفاء. فالجندى الإسرائيلى لديه جُبن لا مثيل له فى العالم.. ونحن لدينا شجاعة المجاهدين.. وتعشق قلوبنا الشهادة..!! »

حسن نصر الله

الأمين العام لحزب الله

قـوانين رقـيقـة

لم يسلم لبنان .. ذلك القطر العربى الصغـير علـى مـدار حقبـة طويلـة مـن تاريخه، من مكائد الصهيونية وأطماعـها، فمنـذ أخـذت الحركـة الصهيونيـة تستعد لإقامة الدولـة اليهوديـة فـى فلسـطين، وضعـت فـى مقدمـة برامجـها التوسعية.. السيطرة على مناطق حيويـة فـى لبنـان خاصـة المنـاطق الجنوبيـة منه.. حيث منابع مياه نهر الأردن، ومجرى نهر الليطانى ومصبه، وما تمثله تلك المنطقـة مـن أهميـة بالنسـبة لأمـن الدولـة الصهيونيـة.. واسـتراتيجيتها العسكرية.

لقد جاء فى التلمود « إن الله أعطى عهدًا لإسرائيل باحتلال أراضى الجبلين وجميع أنحاء لبنان، وتقسيم هذه الأراضى على ابناء إسرائيل» . لذلك نجد أن المطامع التوسـعية فـى لبنـان الجنوبـى تحتـل المرتبـة الأولى فـى مخططـات الصهيونية منذ حقبة طويلة.

وعقب الحرب العالمية الأولى تـرأس اليـهودى « هربـرت صموئيـل»، وفـد بريطانيا فى مباحثات السلام، ونادى بمد حدود الدولة اليهودية فى فلسطين إلى شمالى صيدا وإدخال مدينة « صيدون » القديمة ضمن أراضى اليهود. وبـذا يشـمل السـاحل الفلسـطينى ضواحـى تتبـع مدينـة بـيروت نفسـها. وتسـارع بريطانيا بتأييد هذا المطلب وتعيين صموئيل كأول مندوب سـام لبريطانيـا فـى فلسطين.

وبعد ترسيم المنطقة فيما بعد بواسطة فرنسا وبريطانيـا، أظـهرت الصهيونيـة سخطها على الاتفاق المعقـود بين الدولتين، ذلك الاتفاق الذى أفقـد الصهيونيـة « الليطـانى، والأردن الأعلـى، وجبـل الشـيخ، وحـوران » . ولم تـتراجع الصهيونيـة عـن محاولتـها للاسـتيلاء علـى تلـك المنـاطق، مدفوعـة بـالعقيدة التوسيعية، والتاريخ المزيـف. ومدفوعـة أيضًـا بالحاجـة الاقتصاديـة والسـيطرة العسكرية.

كان من الطبيعي إذن أن تستغل إسرائيل شتى السبل لابتلاع الأراضي العربية من أهلها الأصليين، ومن بين تلك السبل: الجاسوسية، والإجرام. إذ إنه مع بداية عام ١٩٢٠، بدأ التحول الكبير فى تاريخ المنطقة العربية بانتقال الصهيونية إلى مرحلة أرقى من ذى قبل. تلك المرحلة التى حملت روح العقيدة الإجرامية المتمثلة بـ « التجمع والاقتحام»، واستخدام السيف والدمار، وتشكيل الهيئات السرية والمنظمات الإرهابية.

إنه عام أطلق عليه « عام الدماء الأولى» حيث قتل فى هذا التاريخ (يوسف ترمبلدور) رفيق « جابوتنسكى» [1] بعد اشتباكات مع العرب قرب الحدود الشمالية. وحزن عليه اليهود حزنًا شديدًا كما تعاهدوا على الأخذ بثأره ؟ وهذا ما دفع الإرهابى جابوتنسكى لاقتراف مذبحة "يوم النبى موسى" فى ٤ أبريل ١٩٢٠.

ولما اعتقل جابوتنسكى بحجة التسلل وتهريب السلاح، تدخل هربرت صموئيل وأفرج عنه، فأطلقوا على صموئيل - المندوب السامى البريطانى - اسم « أمير إسرائيل الأول» ولقبوه أيضًا بعيزرا الثانى « بعد السبى البابلى».

وجاء مؤتمر « سان ريمو» بعد واحد وعشرين يومًا من « مجزرة الداء الأولى» ليكرس اتفاقية. « سايكس - بيكو» تكريسًا قانونيًا، توزع بموجبه الانتدابات على دول المنطقة، وليجعل فلسطين من حصة بريطانيا. فتتعاون الصهيونية مع نظام الانتداب الجديد بحرية أكثر، وتنتهز الفرصة تلو الأخرى حتى يتم لها السيطرة وإقامة دولة إسرائيل، وأسفر هذا التعاون عن ظهور تنسيق كامل بينهما فى المصالح والرغبات، وإنشاء مراكز تجسسية فى المنطقة تخدم مطامعهما المشتركة.

مؤامرة قصر يلدز

« إذا تجزأت إمبراطوريتى يومًا ما، فإنكم قد تأخذونها بلا ثمن. أما وأنا

(١) من قيادات الصهيونية فى فلسطين.

حى فإن عمل المبضع فى بدنى لأهون على من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتى. وهذا أمر لا يكون » .

هكذا أجاب السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩م) على مطلب تيودور هرتزل[1] بمنح اليهود حق سكنى فلسطين واستثمارها. فى أول وآخر مقابلة بينهما عام ١٨٩٧.

ولما فشل اليهود مع السلطان عبد الحميد الثانى بأسلوب المكر والخديعة والرشوة؛ بدأوا فى تنفيذ مخططاتهم السرية التى جاءت فى (بروتوكولات حكماء صهيون Protocols of Learned Elders of Zion) والتى نشرها بالروسية لأول مرة « سيرجى نيلوس » عام ١٩٠٢ ، فافتضحت نيات اليهود الإجرامية ، وجن جنونهم خوفًا ورعبًا ، وعمت المذابح ضدهم فى أنحاء روسيا ، حتى لقد قتل منهم فى إحداها عشرة آلاف يهودى مرة واحدة ، واشتد هلعهم لذلك كله فقام هرتزل بإنكار ما جاء بالبروتوكولات ، والادعاء بأنها ليست من عملهم.

ومع محاولات اليهود الجبارة إخفاء أمر البروتوكولات ، انتشرت تراجمها بلغات مختلفة ، فاقبلوا يشترون نسخ الكتاب من أسواق الدول بأى ثمن. وعجزوا برغم نفوذهم وتهديداتهم. وانتشرت فى ذلك الوقت مقولة « اليهودية فوق الجميع Jewry ueber Alles » بدلاً من (ألمانيا فوق الجميع) الذى جعلته ألمانيا شعارها أيام ازدهارها.

وظل اليهود يعملون فى الخفاء لتقويض نفوذ السلطان العثمانى.. الذى أصدر قرارات حاسمة تمنع استيطان أى يهودى جديد فى فلسطين ، وتجرم الهجرة اليهودية إليها . فكان بذلك يقف حجرة عثرة أمام أطماعهم وحلمهم الأعظم فى بناء الدولة الصهيونية ، إلى أن قام اليهودى «عمانوئيل قره صو » -

---

(١) يطلقون على تيودور هرتزل لقب (أبو الصهيونية). وهو محام نمساوى أفاق كان يعيش حياة اقتصادية سيئة ، وحياة أسرية أسوأ. فقد كانت زوجته داعرة سليطة اللسان عاملته بازدراء طوال حياتهما الزوجية ، واكتشف قبيل وفاته بأنها كانت تخونه مع البقال والفران. أنجب هرتزل ابنتين كان يشك فى أنهما من صلبه ، إحداهما متخلفة عقليًا ، والثانية كرهته واحتقرته لضعفه الشديد أمام زوجته (أمها) ، وغادرت البيت قبلما يموت لتمتهن الدعارة.

أحد موظفى قصر يلدز Yaldes العثمانى - بتسليم السلطان قرار خلعه عام ١٩٠٩، لتحاك بعد ذلك أبشع مؤامرة لابتلاع أرض فلسطين وتشريد شعبها.

بيد أن ذلك ما كان يتأتى لليهود إلا بالدسائس والمؤامرات والرشوة، والاستعانة بيهود الدونمة[١] وبأمهر الجواسيس، لتفحص مواضع الضعف فى جيش الامبراطورية بمعاونة جهاز المخابرات البريطانية، حيث كانت أطماع البريطانيين فى المنطقة العربية لا حدود لها.

لذلك فقد أثارهم التعاون الوثيق بين ألمانيا والإمبراطورية العثمانية، وقيام المهندسين الألمان بإقامةخطة سكة حديد برلين - بغداد، وهو الخط الذى كان مقدرًا له أن يصل إلى البصرة على الخليج العربى. وكانت البصرة فى ذلك الوقت ميناء البترول الذى تتحكم فيه شركة البترول الإنجليزية الإيرانية. فكان معنى ذلك أن نفوذ ألمانيا فى تركيا - صاحبة الولاية فى المنطقة - سيؤدى حتمًا إلى تقلص الوجود البريطانى.. والقضاء نهائياً على أطماع البريطانيين فى الشرق.

لذا فقد كان من الضرورى العمل على تثبيت اليهود فى المنطقة. وما كان ليتم ذلك للبريطانيين إلا بالخديعة وعمل المخابرات والجاسوسية.

ونظرًا لتشابك الأطماع والمصالح فالتعاون بين البريطانيين والصهيونية Zionism ، أمر مفروغ منه. حيث برع اليهود دائمًا على مر الأزمان فى اللجوء إلى المكر والخديعة والجنس والتجسس.. لاستخلاص مصالحهم والوصول إلى مآربهم.

وإذا تعرضنا للجاسوسية الصهيونية فى لبنان أثناء الحرب العالمية الأولى، إبان حكم الدولة العثمانية، لراينا مدى تشدد الأتراك حينذاك فى مسألة الاختراقات والتجسس، وتعقب أعوان الصهيونية من الجواسيس وإعدامهم بلا

---

(١) يهود الدونمة : طائفة من اليهود فى تركيا دخلت فى الإسلام كذبًا لأجل أغراض شيطانية دنيئة، وتغلغلت داخل نسيج المجتمع الإسلامى التركى، وقصر الخلافة، تحت عباءة الإسلام. وكانت تقيم شعائر اليهودية فى السر.

شفقة، بل إن محاكمات البعض منهم كانت لا تستغرق سوى سويعات فقط، ينفذها بعدها حكم الإعدام فى الحال، حتى أن بعضهم - فى حالات قليلة - مات دون محاكمة أثناء التعذيب القاسى، مما يدل على مقت الأتراك للجاسوسية، ومحاولة ردع العملاء والخونة بعقوبات قاسية لا ترحم، ولا تحتمل التخفيف أو التسويف.

ولرأينا أيضًا أن حالات خاصة جدًا، كان مصير الجواسيس فيها بشعًا إلى أقصى تصور، كمصير الجاسوس الصهيونى « آلتر ليفى » الذى قطعوا جسده وهو حى بالساطور، و « إبراهام واتنبرج » الأعرج،الذى أبقوه مزروعًا فوق خازوق لعدة أيام فى عالية بيروت.

غيرهما كان هناك جواسيس آخرون لاقوا نهايات تفنن فيها الأتراك تنكيلاً بعدما زاد عدد عملاء الصهيونية وتفشى خطرهم.

لكن الحال تبدل فى لبنان منذ استقلاله. فالعقوبات الجنائية التى سنها المشرع - الخاصة بمحاكمة الجواسيس - إذا قيست بغيرها فى الدول العربية، لوجدناها لا تفى بالمطلوب منها وهو الردع القاسى لمرتكبى جريمة التجسس. ذلك أن لبنان بلد اقتصادى حر، لديه حرية تامة للالتقاء بمختلف التيارات الفكرية والحزبية. إذ عمد لبنان منذ استقلاله على الانفتاح على العالم، ومنح الحرية فى الإقامة والتنقل، وسرية الحسابات فى البنوك، فضلاً عن الاهتمام بالعملية السياحية والترفيهية للزوار.. الذين يقوم اقتصاده على مقدار ما ينفقونه فى الملاهى والفنادق.

لكل تلك الاسباب، ضجت بيروت بالجواسيس مع انشغال الأمن العام هناك بالحافظ على إيقاع الهدوء، والانفراجة السياحية التى تشهدها البلاد الأكثر تفتحًا فى الوطن العربى واستمر ذلك حتى يونيو ١٩٦٧.

ففى أعقاب النكسة تغير الوضع كثيرًا.. خاصة بعد تدفق الفصائل الفلسطينية المسلحة إلى لبنان، والتسلل من جنوبه صوب إسرائيل للقيام بعمليات فدائية، وتفشى موجة من التفجيرات الإرهابية أرقت الشارع

اللبنانى[1].

تغير الوضع أيضًا بعدما حدث نوع من التعاون الوثيق بين أجهزة المخابرات السورية واللبنانية والفلسطينية، أثمر نتائج مدهشة عندما سقط العشرات من عملاء إسرائيل فى لبنان، جميعهم استفادوا من القوانين غير الرادعة، والعقوبات التى قد تصل فى النهاية إلى طرد الجواسيس خارج البلاد[2].

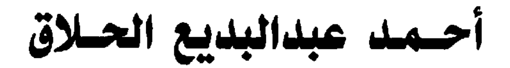
لقد انتبه المشرع فى لبنان لميوعة المواد العقابية المتعلقة بأعمال الجاسوسية، فعدلت بعض القوانين فى يناير ١٩٧٥ لإحداث نوع من التوزان ما بين الجرم والعقاب، لكن التعديلات لم تنص صراحة على إعدام الخونة والجواسيس، لبنانيي أو أجانب.

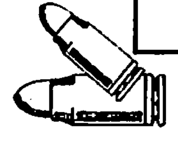
وإذا عدنا إلى الوراء، وبالتحديد إلى الخمسينيات من القرن الماضى، لرأينا كم كانت الجاسوسة الإسرائيلية فى لبنان منتشرة على أوسع نطاق، وتستخدم كل طرق التفشى والانتشار لخلق أرضية واسعة من الخونة اللبنانيين، تدفع بنشاطها إلى الديناميكية من أجل التغلغل بين الأوساط الاجتماعية المختلفة، مستخدمة فى ذلك شتى أساليب السيطرة بالمال والجنس، اعتمادًا على فتيات يهوديات يتميزن بجمال مفرط، وأنوثه يانعة طاغية، وقوانين عقابية لا تقل رقة ووداعة عن نسائها.

---

(١) بانتشار عملاء الموساد فى بيروت، اشتدت العمليات التفجيرية الإرهابية لضرب مفاصل التنظيمات الثورية الفلسطينية بلبنان، وطالت هذه العمليات المكاتب الإدارية للمنظمات المختلفة، كما حدث فى صباح الثلاثاء ١٩٧٤/١٢/١٠ عندما انفجر مكتب منظمة التحرير فى كورنيش المزرعة، وعثر على سيارة فيات تقف بمواجهة المبنى وعلى سطحها قاعدة لإطلاق أربعة صواريخ ٣,٥ بوصة تعمل بنظام التايمر أتوماتيكيًا، ثم توالت ثلاثة انفجارات أخرى بذات الأسلوب فى أماكن مختلفة، مما حدا بالسلطات اللبنانية أن توجه نداء بالصحف للذين يزرعون القنابل والصواريخ، بإعلان (الهدنة) لمدة ٤٨ ساعة تبدأ قبل رأس السنة بيوم واحد.. وكان هذا النداء من أعجب وأغرب نداءات الرجاء المشهورة.. !!

(٢) فى فبراير ١٩٧٣ ألقى القبض فى بيروت على العميل الإسرائيلى « إيف رينيه دى تورى » وكان المخرج الجزائرى « محمد بوضياء » وقتها فى لبنان وقام بالمساعدة فى استجواب العميل وترجمة أقواله.. لكن حدثت ضغوط شديدة وطرد العميل إلى فرنسا.. وبعدما عاد بوضياء إلى باريس حيث يعمل بمسرح « كويست » الطليعى، كتب إلى الفلسطينيين يقول : (ليس من قبيل الصدفة أن ألتقى بـ « دى توريس » فى كل مكان أذهب إليه فى باريس). وفى صباح ٢٨ يونيو ١٩٧٣ انفجرت به شحنة ناسفة وضعت أسفل مقعده بالسيارة فقتلته.. واعتقد البوليس الفرنسى أن بوضياء قتل نفسه بواسطة عبوة ناسفة كان يحملها.





جاسوس الوهم والضياع

« إنى قد تبرأت من إسرائيل .. وجعلت أولادى الأربعة أمانة فى أعناق المسلمين .. وأطلب ألا يُبَنْجُونى أو يعصبوا عينى .. وأن أدفن فى مقابر أهلى وأن يقيموا لى جنازة .. كما أطلب أن يسمحوا لى برؤية زوجتى حنان وتقبيلها » .

الطريق المجهول

بين نهرى الدامور والأولى، أقصى جنوب غرب محافظة جبل لبنان، تمتد لوحة الطبيعة الخلابة، فى اختلافات الونها وتداخلاتها، بداية من زرقة مياه البحر المتوسط فى الغرب، بطول عشرين كيلو مترًا بين النهرين، وانتهاء بجبلى نيجا والباروك فى الشرق.

شمال غرب هذا البقعة الساحرة، تقع قرية (برجا)[1] الهادئة الصافية، التى ولد بها أحمد عبد البديع الحلاق عام ١٩٥١، لأسرة شيعية مسلمة كبيرة العدد، متوسطة الدخل. فقد كان أبو موظف بسيط، وأمه سيدة رقيقة قنوعة، اعتادت تدبير أمور البيت والمعيشة براتب زوجها الضئيل. ومع مرور السنين، كان الأولاد يكبرون وتكبر معهم المشاكل والمتطلبات، إلا أن السفينة كانت تمخر عباب الحياة فى هدوء.

كان ترتيب أحمد الحلاق الرابع بين أخواته، وأول الذكور، الذى استبشر والده به خيرًا، آملاً أن يرتقى فى دراسته حتى يعينه فى تحمل المسئولية، ويكون ذخرًا له عند اشتداد وطأة الحياة، وضربات الزمن. لكن الابن الذى شب بلا طموح أو هدف، لم يكن يرى فى الحياة سوى متعة اللهو، وبصعوبة شديدة حصل على مؤهل متوسط عام ١٩٦٨، وعمل بمصلحة الكهرباء، لكن سريعًا ما فصل من عمله، بسبب تمديده أسلاك التيار للأهالى بأساليب مخالفة، مقابل بضع ليرات.

فى تلك الأثناء كان قد عزم على الزواج، لذلك حصل على منزل متوسط فى قريته، بالإيجار، بالقرب من منزل الأسرة، ولما تعثرت ظروفه الوظيفية، اضطر للانتقال إلى صيدا[2]، حيث ساعده بعض أصدقائه فى إيجاد فرصة عمل له

---

(١) إلى الشرق قليلاً من طريق بيروت/ صيدا تقع قرية برجا، على مسافة ١٥ كيلومترًا من صيدا، و ٣٠ كيلومترًا من بيروت.

(٢) صيدا (صيدون) : من أقدم المدن الفينيقية وأشهرها، ويعود تاريخها إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد. وكان لها من الأهمية والشهرة فى العصور القديمة ما للمدن الكبرى. ولم يقتصر نشاطها قديمًا على =

بأحد المسابك، كانت تدر عليه راتبًا لم يكن يحلم بمثله. وبعد عام ونصف من العمل بالمسبك، عاد إلى قريته وخطب فاطمة[1] ذات التسعة عشر ربيعًا.

نشطت بداخل الحلاق خلايا الخيانة من جديد، وهي التي خمدت لحين، فبعدما أدرك أسرار مهنته، طالت يده وتعددت سرقاته ، وعرف طريق الخمر والمخدرات والنساء، فلما تعد تقنعه الليرات القليلة من ناتج بيع ما يسرقه، فلما سطا على كمية مسبوكات كبيرة، وشهد عليه زملاء العمل، وكانت نهايته الطرد.

بعدها .. تنقل في أنحاء صيدا من عمل إلى آخر ، لا يكاد يستقر قليلاً حتى يطرد شر طردة .. تسبقه سيرته الملوثة لكل مكان يذهب إليه .

فلما ضاقت به السبل في المدينة ، قفل راجعًا إلى (برجا) وتزوج بمدخرات سرقاته في فبراير ١٩٧٨ .

وفي الخامس عشر من مارس ١٩٧٨ بدأ اجتياح إسرائيلي واسع لجنوب لبنان ، برًا وبحرًا وجوًا ، قام به أكثر من ثلاثين ألف جندي إسرائيلي ، على جبهة بلغ امتدادها مائة كيلومتر في القطاعين الشرقي والأوسط ، وعلى الشريط الساحلي ، بهدف تصفية المقاومة الفلسطينية ، بتوجيه ضربة عسكرية مميتة لها في لبنان ، والتمهيد لإنشاء الكانتون الطائفي على الشريط الحدودي ، وإحلال عميلها سعد حداد[2] في القرى التي ستضطر إلى الانسحاب منها.

وبالرغم من موجة الحماس الشعبية العارمة للشعب اللبناني، إلا أن هروب آلاف السكان من الجنوب إلى الشمال ، ضيَّق مجالات العمل في كثير من المهن والمحاور، وكان أحمد الحلاق ، أحد المتضررين ، إذ لم يجد أمامه سوى العمل

= الملاحة والتجارة ومختلف الصناعات والفنون ، بل شمل مجالات أخرى كعلم الفلك والرياضيات . ومن أهم المعالم الأثرية في صيدا ، معبد أشمون – إله الشفاء ، شمال شرق المدينة ، وقد اكتشف بداية القرن الماضي .

(١) اسمها الأصلي: (حورية).

(٢) كان برتبة رائد في الجيش النظامي اللبناني، وانشق ليتعاون مع إسرائيل ويعلن قيام (دولة لبنان الحر) في الجنوب، ثم يموت في فرنسا عام ١٩٨٤ ليخلفه أنطوان لحد أشهر خونة جنوب لبنان الذى فر بقواته إلى إسرائيل أثناء عملية الهروب الليلي للجيش الإسرائيلي في مايو ٢٠٠٠ والانسحاب من الجنوب.

فى ورشة لإصلاح الشاحنات ، سرعان ما تعلم بها القيادة ، وإصلاح الأعطال الميكانيكية ، لكنه عجز عن إصلاح نفسه وكبح جماح شهوته الشرهة للسرقة ، إذ امتدت يده من جديد إلى قطع الغيار والإطارات، فطار منه العمل فى ذات الوقت الذى رزق فيه بمولودته الأولى ، وهيبة ، عام ١٩٨٠ .

لكن الأخ الأصغر ، شفيق ، سعى بإخلاص لمساعدة شقيقه الأكبر ، والخروج به من عثرة الضيق التى قذف بنفسه إليها ، فقد كان شفيق رزينًا ، طموحًا، مكافحًا، اتجه إلى التجارة ونجح ، فحقد عليه أحمد وكرهه ،بالرغم من أن شفيق دفع له مقدم سيارة أجرة وكان ضامنًا له.

أما آخر أخوته ، خالد ، فقد غادر القرية إلى بيروت ، حيث انشغل هناك بعمله كفنى متخصص فى الإلكترونيات ، ملتزمًا بتحويل جزء من راتبه الشهرى لوالديه ، وأخواته .

ومع بشائر عام ١٩٨٧ ، كان أحمد الحلاق ما يزال على حاله ، فهو فى عمله المستمر الشاق نهارًا ، وسهرات الخمر والحشيش ليلاً ، ثم مشاجرات عائلية لا تتوقف أو تهدأ.

وبالرغم من تطورات الوضع السيئ فى جنوب لبنان ، وصعوبة الحركة بالنسبة لسيارات محافظة الجبل ، إلا أن أحمد الحلاق كان قد عرف بالمنطقة ، نظرأ لتحركه المستمر بها طوال تلك السنوات ، وحفظ رجال الأمن والكمائن وجهه واسمه، ولم يشكوا فى أنه قد يمثل أدنى خطورة على أمنهم المزعزع ، بتوالى ضربات حزب الله لكل مفاصل جيش الجنوب ، ووحداته ، وقواعده الثابتة والمتحركة ، ودوريات الجيش الإسرائيلى.

وذات يوم ممطر بارد ، كان فى صور[1] عندما رآها لأول مرة ، فانفرط عقد

---

(١) صور Tyre من أقدم المدن الفينيقية ، يرجع تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وكانت تقع على جبل يمتد داخل البحر ، على بعد ٤٠ كيلومتراً جنوبى صيدا . وتعتمد شهرتها على قوتها كميناء بحرى ، ازدهر تحت حماية مصر إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة ، ولم ينجح الاسكندر الأكبر فى احتلال المدينة إلا بصعوبة شديدة ، وسقطت فى يد العرب عام ٦٣٦م ، وأخلاها الصليبيون فى ١٢٩١م فى اليوم التالى الذى سقطت فيه عكا ، وهدمها المسلمون . وكانت صور ذات نفوذ تجارى شمل حوض المتوسط ، وتخطى الصوريون مضيق جبل طارق ووصلوا إلى الجزر البريطانية ، وداروا ، لأول مرة فى التاريخ حول=

مقاومته ، وأفلت عنه إرادته. وطوال الطريق إلى « الناقورة» ظل يمنى نفسه بلحظة احتوائها ، ليروى شرايينه زلال شبابها الموفور الطازج .

كانت حنان الياسين رقيقة الملامح ، ناعمة الصوت كشجيرات الأرز لما يداعبها النسيم، ناعسة النظرات ذات شعاعات جاذبة لا تقاوم ، وشفتاها حبتا كرز اكتنزتا بالاحمرار والرواء، تحملان دعوة صريحة للقطف ، لا يحسها إلا كل ذواق خبير .

كانت تصغره بسبعة عشر عامًا ، وتعمل ممرضة بمستشفى الناقورة، استوطنت أسرتها الألبانية الأصل جنوب لبنان ، فامتزج الجمال الأوروبى بسحر الشرق وحرارته ، وأنتج « عشتروتا»[1] جديدة لا تخطئ العين سحرها الفتان الذى يظلها فى تناغم أسطورى حالم.

تعلق الحلاق بفتاته ، وباتت المسافة ما بين برجا والناقورة[2] ، ٨٠ كيلومترًا، تمثل أجمل رحلة يقطعها عاشق ، ليطل على وجه حبيبته كل صباح. فتبدلت حياته عن آخرها ، وخلق منه الحب إنسانًا آخر ، رقيق النفس، ساكن الطباع . فقد استغرق الهوى عقله وقلبه ، وكل جوارحه. وأرجعته رجفة العشق ، بعد طول جفاف ، طفلاً ، تتلظى عروقه العطش بدماء لاسعة ، تنبض بفيض جبار للشعور اللذيذ الذى اكتنفه واحتواه .

كانت حنان الياسين تعمل منذ فترة وجيزة لصالح الموساد ، استطاع تجنيدها بسهولة أحد ضباط جيش لبنان الجنوبى ، اسمه «رينيه البياضى»، أثناء بحثها عن مصدر يضمن لها ولأسرتها حياة آمنة فى الجنوب ، إضافة إلى عامل آخر ، أيديولوجى ، يتعلق بأصلها وبجذورها الأولى ، كألبانية ، لا تحمل ولاءًا كاملاً للبنان ، الذى ولدت على أرضه.

= القارة الأفريقية، وقد أورد هوميروس وصفًا مطولاً لهذه الرحلة ، وبنى واحد من أهل صور ، اسمه ديدو، مدينة قرطاجنة الشهيرة ، مما ساهم فى بناء مستعمرات جيدة فى غرب المتوسط.

(١) عشتروت، أو عشتار ، إلهة الجمال عند البابليين .

(٢) الناقورة : أبعد مدينة ساحلية فى جنوب لبنان تتبع قضاء صور ، ويبلغ تعداد سكانها حوالى ٢٣ ألف نسمة ، يعمل غالبيتهم بالصيد والحرف اليدوية المختلفة ، وتبعد عن شمالى إسرائيل بعشرة كيلومترات تقريباً.

في البداية ، كانت مهمتها بسيطة إلى حد ما ، وتتفق مع طبيعة عملها كممرضة بالمستشفى ، ويتردد عليها العديد من سكان الجنوب ، حيث انحصر تدريبها الأولى فى مراقبة هؤلاء الجنوبيين ، واستبيان مدى إخلاصهم ، أو اعتراضهم على القيادة الجنوبية المنشقة .

لقد كان من الجلى ، أن الجيش الإسرائيلى يستعد منذ زمن طويل للقيام بعملية واسعة النطاق فى الجنوب اللبنانى ، بغية استكمال الحزام الأمنى ، الذى أحاطت الدولة الصهيونية نفسها به منذ حرب ١٩٦٧ . وقد باتت الحدود اللبنانية مصدر القلق الوحيد بالنسبة للدولة الصهيونية ، بعد أن تركزت قوى المقاومة الفلسطينية فى لبنان ، إثر تصفية وجودها فى الأردن خلال عامى ١٩٧٠ و ١٩٧١ .

وبتكاثر العمليات الفلسطينية ، شن الطيران الإسرائيلى غارات عديدة على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى الجنوب ، ونفذ رجال المخابرات الإسرائيلية علميات خارجية ضد القيادات الفلسطينية لإسكات المقاومة فى لبنان ، وخارجه . إلا أن المقاومة لم تهدأ كما كانت تتوقع إسرائيل ، بل ازدادت حدة وتأثيرًا ، انطلاقًا من الجنوب. فتصاعدت فى رد فعل عنيف، حدة الغارات الانتقامية الإسرائيلية ، التى شملت قرى اللبنانيين فى الجنوب لتحريض الأهالى على التصدى للمقاومة .

العميلة العاشقة

وفى سنة ١٩٧٦ ، دفعت إسرائيل عصابات سعد حداد، وسامى الشدياق، إلى إقامة جيش جنوبى ، مهمته الدفاع عن حدودها الشمالية ، الأمر الذى كان أقصى ما تتمناه ، حيث يوفر عليها عواقب التدخل المباشر ، وبالأخص عواقبه الدولية . ووضعت القيادة الإسرائيلية خطة ترمى إلى بسط سيطرة عملائها الجنوبيين ، على الشريط الحدودى، الذى تعتبره حزامًا أمنيًا لابد من صونه وتقويته .

وإثر الاجتياح الإسرائيلى للبنان سنة ١٩٨٢ واشتداد شوكة حزب الله ،

وقدراته الاختراقية المدهشة لكل الترتيبات الأمنية المكثفة ، فى الجنوب اللبنانى المحتل .. نشطت المخابرات الإسرائيلية بالتعاون مع الجيش الجنوبى، فى استقطاب العديد من المخبرين ، والعملاء ، وتدريبهم فى ثكنات عسكرية خاصة ، وداخل إسرائيل أيضًا ، ليكونوا عيونًا ساهرة ترصد تحركات رجال حزب الله ، والناشطين من قياداته وخبرائه الأمنيين. ومراقبة المتعاملين معهم من الجنوبيين ، للحد من الضربات المتوالية لرجال المقاومة ، التى أربكت نظريات الأمن الإسرائيلية ، وأفشلتها.

وكانت حنان الياسين ، القطة الوديعة البريئة الوجه، إحدى أدوات الحرب السرية بين المخابرات الإسرائيلية ، وحزب الله . حيث انحصر دورها الأولى فى ملاحظة المرضى من سكان الجنوب الذين يترددون على مستشفى الناقورة، وفتح حوارات مطولة معهم تعلمت كيف تستخلص منها الآراء والأسرار. ولكونها فتاة رائعة الجمال، ومتحدثة لبقة، تجيد فن الحوار والوصول غلى النقاط التى ترغب بالوصول إليها، كان من السهل عليها أن تنخرط فى عملها بلا أدنى صعوبة تذكر.

بعدها .. تعدت حنان الياسين مرحلة التحاور البسيط ، إلى مستوى أعلى فى أعمال الجاسوسية، وهو كتابة التقارير التفصيلية، بتحليلاتها، بعد استدراج المرضى من مختلف الاتجاهات والملل، اعتمادًا على الحالة النفسية للمريض، ومدى تعلقه بممرضته البشوشة الفاتنة، والاطمئنان إليها.

وخلال فترة وجيزة فى العمل لمصالح المخابرات الإسرائيلية، تمكنت العميلة الناعمة من الكشف عن العديد من سكان الجنوب من المتعاملين مع حزب الله، وأمكن إحباط عمليات تسلسل لأفراد من الجزب، استشهد الكثيرين منهم وهم يراقبون الثكنات والمواقع العسكرية، ويرسمون خرائط كروكية لها، بتفصيلات الحراسات والتسليح.

أيضًا .. تفوقت حنان الياسين فى عقد صداقات واسعة بضباط جيش الجنوب اللبنانى، ونقل آرائهم وتعليقاتهم المختلفة حول الإحداث، إلى رئيسها

المباشر رينيه البياضي .. كل ذلك .. وهى تتستر بعباءة ملاك الرحمة .. وصديقة المرضة المثالية.

ولما تبين لقائدها مدى استفحال مواهبها الفطرية فى التجسس، إضافة إلى عشقها للمال، أخضعها لدورات تدريبية لزيادة الكفاءة، والإبقاء على الحس الأمنى لديها فى حالة يقظة دائمة، خوفًا من وقوعها بين فكى كماشة رجال مخابرات حزب الله، الذين ينقبون بشكل دءوب عن عيون، وآذان، وأعوان لهم فى الجنوب.

لم تكن حنان الياسين، وبرغم العيون الظامئة التى تفترسها كل لحظة، صيدًا سهل المنال. فقد علمتها الحياة كيف تحمى نفسها، وألا تنهار إرادتها، فى استسلام لعبارات الغزل المتناثرة، فتنخدع بمعسولة، كما فعلت من قبل صديقة لها أحبت، ومنحت الحبيب أثمن ما تملكه، فهرب إلى خارج لبنان لتموت هى بالمستشفى، إثر عملية إجهاض فاشلة.

هكذا كانت حنان قوية، متمردة على إحساساتها كأنثى، توأد تفاعلاتها الداخلية فى قرار بعيد، لأجل ألا تقع فى خطأ الحب، ويتحكم بها الحبيب كزهرة فى مهب الريح.

أحلامها الوردية كانت فى حجم أنوثتها، ثرية، متعاظمة، أنصبت فقط على المال والثراء. فالحياة الخانقة فى الجنوب كانت مدعاة لن تبحث عن المال، وتدخره لما هو أسوأ. خاصة .. وانفجارات المدافع مستمرة لا تتوقف، ولا يعلم مخلوق متى يحل الأمن ويسود الأمان.

صور لها خيالها أن الإثراء ، ولو بطريق التجسس ، هو الضمان الوحيد لأمنها، وأمن أسرتها رقيقة الحال ، بل إنه الطريق المعبد للمجد والجاه .

وعلى ذلك .. فقد نظرت إلى ملاحقات هذا المهووس ، أحمد الحلاق ، بلا اهتمام فى البداية ، واعتقدت أن رحلاته اليومية من محافظة جبل لبنان ، إلى آخر مدن محافظة لبنان الجنوبى ، ستهدأ عما قريب بعدما يتملكه الضجر واليأس . لكن مطارداته لها كانت فى ازدياد ، فأرادت استثمار حالة الوله التى

أغرقته ، واستغلاله لصالح مهامها التجسسية ، عملاً بنظرية « الحلب الساخن» في عالم المخابرات . وتعتمد هذه النظرية على حاسة العميل المدرب، في قراءة الأشخاص الذين يصادفهم ميل لمصادقته ، فتتكون لديه صورة بيانية مقروءة ، غالبًا ما تكون صحيحة .

التقت حنان بالحلاق وهي مشوقة لأخبار جديدة ، تدر عليها مبالغ أخرى تزيد حجم مدخراتها . لكنها ، ولأول مرة ، تفشل فشلاً ذريعًا في فتح مغاليق أسراره ، ومعلوماته . فسهام العشق كانت بادية في عينيه ، وارتجافات حروفه وأطرافه ، كأنما الواقف أمامها تلميذ صغير في مدرسة الحب لأول مرة. هذا ما حيره أيضًا ، وأربكه . فلسانه المفوه أصابه العطب ، وفرت على حين فجأة كلماته الجريئة التي اعتاد قذفها لكل امرأة جميلة تصادفه .

إن فتاته هذه المرة تختلف ، فكل ما بها يضج بالأنوثة الطاغية ، مفصحاً عن جمال عذري ندي، يفتك بمجامع عقله ، فتصطخب الخفقات في تسارع حاد ، ممتزجة بدفق حريري متناغم الصدى .

هي الأخرى.. اكتشفت تبدلات بداخلها لا تخطئها امرأة على وشك الوقوع في الحب. فاستغرقها الشعور اللذيذ الذي حرمته ، وسمحت لسهامه الملتهبة أن تخترقها ، وتمس شغاف القلب مسًا رقيقًا أرعش خيالها ، وأيقظ فيها أحاسيس الهوى .

ملهوفاً.. عرض عليها الحلاق الزواج والعيش معًا في بيروت ، وكان الأمر بالنسبة لها شديد الغرابة. فقد كان الجميع يريدونها عشيقة يستأثرون بجسدها ، ويجنون قطوف ثمارها ، وأخذ الحلاق يطاردها ، ويحاصرها في كل مكان ، فاستعذبت لعبة العشق ، وسخرت كل مواهبها للإبقاء عليه في حالة فوران لا تنتهي ، إلى أن تتحين الفرصة المناسبة لمفاتحة أهلها ، ومغادرة جنوب لبنان إلى الأبد .

هكذا ، بدلاً من استثماره كمصدر للمعلومات عن المقاومة ، وقعت في غرامه ، واعتصرتها لهفة الشوق إليه إن غاب في عمله ، ففي قربه كانت تشعر بأنها

كطائر غرد يحلق بين السحاب ، ويسعى إلى النجـوم ، وأيقنت بأنـها ضعيفـة أمامه ، أضعف من فراشة برية .

عناق الجواسيس

وقعت حنان الياسـين فـى الحـب ، وهـى عميلـة الموسـاد المدربـة . وحـب العميلات ممنوع ومحرم .

فأجهزة المخابرات العالمية ، دائمًا ما تحذر عميلاتها من الوقـوع فـى شـرك الحب، ذلك أن الحب هو نقطة الضعف الوحيـدة التـى تقـود إلى انكشـافهن ، وسقوطهن ، أو تحولهن إلى عميلات مزدوجات .

وفـى عـالم المخـابرات والجاسوسـية ، هنـاك عشـرات القصـص المثـيرة ، والمأساوية ، لجاسوسات استعملن حقهن الطبيعى فى الحب ، وكانت النهايـة قاسية ، جدًا ، ومفجعة.

هذا الأمـر ليـس ممنوعًـا علـى النسـاء الجاسوسـات فقـط ، بـل يحـذر منـه الجواسيس من الذكور أيضًا. فالرجل ، أمام دفقة الحب يفقد اتزانه ، ويتحـول إلى مخلوق ضعيف يسهل تطويعه ، وكذلك الحال مع المرأة الضعيفة بطبعها.

لذلك .. صرخ رينيه البياضى فى وجه حنان الياسين ، عندما أخبرته برغبتها فى الزواج من أحمد الحلاق ، واعتزال العمل التجسسى لأنـها ستقيم ببيروت .

حذرها رينيه ، من استمرار علاقتها به ، فربمـا يكـون مدسوسًـا مـن جـهاز أمن حزب الله. لكـن العاشـقة الولهـى دافعـت عـن حبيبـها باسـتماتة أذهلـت قائدها، وهددته بأنـها قد تلجأ إلى الانتحـار إذا لم يسـتجب لمطلبـها ، وينـهى علاقتها بجهاز المخابرات الإسرائيلية .

لم تكن حنان بقادرة على هجر حبيبـها ، أو فقـده ، فحبـها لم يـترك لهـا مساحة من الصبر لتقاومه ، وتدفعه عنها . وبرغم صدمتـها القاسـية مـن أوامـر رئيسها المتشددة ، انقلب رفضه عكسـيًا علـى مشـاعرها ، وفكرهـا . إذ تعملـق بداخلها الأمل ، وتحرك مارد جبار من الإصرار يصعـب ترويضـه ، وانفجـرت

ينابيع عمرهـا مـلأى بالعشـق المجنـون ،الـذى يفـوق الإعصـار فـى جبروتـه . فأغدقت على حبيبها حنانًا رائعًا أذكى فؤاده.

لكن .. عندما هددها رينيه بغضبه الشديد، الذى سينزل عليها وعلـى افـراد أسرتها ، أظلمت الدنيا فى وجهها ، وقررت أن تطرد الحلاق مـن حياتـها إلى الأبد ، فتجاهلته ، وتهربت منه وهى تتلظى ، وتحترق ، وتذوب كذوبان الثلج فى أتون الألم ، والمعاناة ، والأسى ، فتذبح صبرها فى وهن تكابده ، بلا فائدة. فالحب فى الشرايين كالدم ، سائل الحياة للبشر ، كيف تفصله عن خلاياها ، وتسحبه من نخاع حياتها.. ؟

عندئذ، وفى لحظة ضعف وصدق ، ائتلفا معًا. لم تتغلب على هاجس أطـاح بصبرها ، فصارحت الحبيب بالحقيقـة لعلـه يـهرب بحياتـه ناجيًـا ، مخلفًـا أنفاس الذكرى شـذًا يعطر خيالهـا. لكنـه الـتزم الصمـت مبـهوتًا ، ومصدومًـا ، فعادت وأكدت استحالة زواجهما غصبًا عن رينيه ، و قيادته فى الموساد .

وفى ثورة انغماسها فى بحر من الصدق ، والمثالية ، تمنت لو أنه يضربها ، ويغرق وجهها بصقًا ولطمًا ، ويطأ هذا الحب بلا تردد .

وانتظرت طويلاً وهى ترتجف ، فنظراته الزائغة المتقلبـة أخافتـها ، حتـى خيل إليها أنه سينقض عليها لا محالة ، غارسًا أظـافره فـى عنقـها ، يتشـفى بمنظر دمها المراق .

وبصوت هادئ سألها :

– أواثقة أنت من جدِّية تهديداته .. ؟

بثقة أجابت :

– نعم .. إنه جاد فيما يقوله .

كرر سؤاله :

– أكيد .. ؟

ردت بسرعة :

– أكيد يا أحمد ، فدخول المصيدة ليس كالخروج منها . إنه ضابط مخابرات لا قلب له ، قاسٍ ، يكره الرحمة .

سألها :

– ولو أننا تزوجنا هنا .. هل سيمانع فى ذلك أيضًا .. ؟

أجابت :

لا أعرف بالضبط ، فهو يشك فى كونك عميل لحزب الله . ! !

قطب جبينه متعجبًا وقال :

– حزب الله .. ؟ مالى أنا وحزب الله .. ؟ إننى أكره السياسة وحزب الله و المنظمات الفلسطينية، لقد تسببت المقاومة فى خراب لبنان ، وانهياره .

قالت حنان :

– ألا تكرهنى أيضًا .. ؟

زفر قائلاً :

– أكرهك .. ؟ كيف وأنت الهواء لى .. والحياة .. ؟ أريدك زوجة لى ولو أكرهت على التعامل مع الشيطان نفسه .

لطمتها المفاجأة وقالت بنبرة تفيض بالأسى :

– أتوافق إذن على عملى معهم ؟

أجاب بلا تردد :

– إنك لا تسببين ضررًا لأحد .. المهم هو المقابل الذى تتحصلين عليه ، لقاء عملك.

أردف وهو يهز رأسه :

– أعرف أنهم يدفعون بسخاء لمن يأتيهم بمعلومات عن حزب الله ، وأنت .. ، من أين تجيئك المعلومات .. ؟

فى تردد وحذر :

– المرضى فى المستشفى يثقون بى ، ويتكلمون كثيرًا عن أسرارهم .

علق بتعجب :

– وهل هذا يكفى .. ؟

ثم أضاف :

– غباء منهم أن تكون أسرار حزب الله ، مستقاة من أفواه المرضى . المعلومات الحقيقية فى الضاحية ، فهناك تطبخ العمليات وترسم الخطط . هؤلاء المغرورون (يقصد حزب الله) يظنون أن بمقدورهم مجابهة إسرائيل ، وتحدى جيشها وطائراتها .

قالت وهى لا تصدق :

– لو سمعك رينيه الآن لقام وعانقك .. فأنت تتكلم كرجل مخابرات . ! !

بثقة فى قدراته قال لها :

– هذه الحقيقة ، فعمليات الحزب الفدائية تضر بأمن لبنان ، لأن إسرائيل بعد كل عملية تقصف المدن والمنشآت ، ألا يعد هذا دمارًا وخسائر لسنا بحاجة إليها.. ؟

وهى لا تفهم شيئًا مما يقوله :

– نعم .. نعم .. لسنا بقوة إسرائيل ، وأمريكا ، لكن حزب الله يظن غير ذلك .. ! !

الموت القادم

صدمت حنان الياسين مما قاله الحلاق ، وإن اعتراها شعور خفى بالاطمئنان، فمعنى موافقته على عملها التجسسى زواجهما الأكيد، فقائدها البياضى قد يريحه بقائها في الجنوب إلى جواره. وعندها، سيوافق حتمًا على زواجها، دون إثارة عراقيل أخرى. فقد قفزت علاقتها بالحلاق خطوة هامة صعبة ، كانت تستلزم وقتًا طويلاً بدون حديث المصارحة. وباتت العميلة العاشقة ليلتها قريرة العين ، تسبح فى بحر من الانتشاء ، تنتظر مقابلة قائدها

لتفضي إليه بما جرى .

لكن انتظارها طال في نهار اليوم التالي ، والذى يليه ، ولم يزورها رينيه بالمستشفى كعادته ، أو يرسل في طلبها .

اختفى أيضًا أحمد الحلاق ، وتخلف عن موعده معها لزيارة أسرتها ، وامتد غيابه لأربعة أيام ، فقدت خلالها الأمل في رؤيته ، وانصبت مخاوفها حول فكرة هروبه بعيدًا عنها ، أو لكونه أحد رجال حزب الله ، كما ظن رينيه ، حيث اختفى بعدما حصل منها على أسرار عملها لصالح الموساد .

كبر لديها الشك ، ونفرت عروق الخوف مما هو آت ، فها هو رينيه يتهددها بالهلاك، من ناحية ، وحزب الله سيأخذ بثأره منها ، من ناحية أخرى .

تحت جلدها كان الارتجاف بشعًا لا يحتمل ، فالمصيبة كانت أكبر كثيرًا من عقلها ، ومن تخيلها. والخوف كالإبر ، له نبش ناخر يوقظ الألم المر في الأعماق ، فيهلك العقل ويعصر الراحة حتى النضوب .

فانكمشت رعباً، بأعماقها الحسرة كالفجاج ، يسيجها غضب مكبوت تجاه أحمد الحلاق، غضب كالشلال المنهدر في عنف ، لأنها أعلنت حقيقتها،التي بدت عارية بلا ستر . تلك الحقيقة المؤلمة التي صفعته بها دونما انتظار للتأكد من صدق مشاعره ، وحبه. وعاتبت نفسها بضرواة ، لأنها أرادت اختصار الطريق في قفزة واحدة لتستريح ، لكنها تخيرت لقفزتها توقيتًا خاطئًا ، لم تعمل حسابًا لنتائجه .

كان ما يشغلها بحق طوال أيام غيابه ، تجاوبه معها عندما صارحته ، وكاشفته بسرها. إذ لم تبد منه أية رغبة في استنكار عملها في الموساد ، بل لم يعارض ذلك برغم الأخطار التي قد تصيبها ، والتي حتمًا ستطوله أيضًا ، ذات يوم .

ومفعمة بالهلع ، للمرة المائة تساءلت:هل يعمل الحلاق لحزب الله..؟

معنى ذلك أنها الآن – لو صح الأمر – عميلة «محروقة» ، تحركاتها

أصبحت تحت أعين رجال حزب الله . وقريبًا ، ستجيء تلك اللحظة المباغتة التى يختطفونها فيها إلى بيروت، لمحاكمتها .

ساعتئذ ، لن يرحموها ، ولن ينخدعوا بتوسلاتها ، ودموعها ، أو تأخذهم بها شفقة لكونها فتاة صغيرة بلا خبرة ، عانت الأمرين فى الجنوب . فالمؤكد أن الحلاق أسبغ المزيد من التفاصيل ، التى هيأها خياله ، ليضفى بطولة على مهمته فى الجنوب ، وكشف عميلة الموساد .

لو أنه فعل ذلك بحق ، لاقتربت كثيرًا من حبل المشنقة. وهلوعة تساءلت فى نفسها: هل يعدم حزب الله النساء .. ؟ ويساويهن بالرجال فى جرم التجسس . ؟

وهتفت :

(إن ما أقوم به لا يعتبر تجسسًا .. فالمعلومات تجيئنى دونما بحث عنها .. ولا يمكن أن أكون مثل أمينة المفتى[1] أبدًا ، تلك التى كانت تحمل جهاز اللاسلكى وتجوب لبنان شمالاً وجنوبًا ، شرقًا وغربًا ، لأجل التجسس على الفلسطينيين ، وتسببت فى مقتل عشرات الأبرياء من النساء والأطفال.

كانت طبيبة صرح لها عرفات بدخول كل الأبواب المغلقة ، أما أنا فسجينة الناقورة ومشفاها ، أتعاون مع الجيش الجنوبى لأجل أن أعيش ، ويعيش أهلى، وأتنفس هواء الأمان فى وقت يموت فيه الناس جوعى .

ترى هل سأعلق على مشنقة حزب الله ، أم يفرغ رينيه رصاصات مسدسه فى صدرى .. ؟

وهل الموت قادم من الشمال أم الجنوب .. ؟)

---

(١) أمينة المفتى ، طبيبة أردنية تعلمت بالنمسا ، وهناك أحبت طيارًا يهوديًا وهاجرت معه إلى إسرائيل ، وعملت جاسوسة للموساد فى بيروت بعدما أسقط السوريون طائرته وقتل ، وقررت أن تنتقم من كل ما هو عربى ، إلى أن اكتشف الفلسطينيون أمرها وحكموا عليها بالإعدام، لكن تمت مبادلتها بعد ذلك باثنين من الفدائيين الفلسطينيين فى السجون الإسرائيلية. (أنظر كتابنا : أمينة لمفتى، أشهر جاسوسة عربية للموساد) .

وفى نوبة بكائها الشديد ، بصقت على حالها ، وعلى حبها للحلاق ، ولحظة الضعف التى بسببها تصدعت حياتها . وتملكها هاجس استنزف من تفكيرها الكثير ، فقد فكرت بالهرب إلى الشمال ، والبحث فى ضاحية بيروت الجنوبية عن رجال حزب الله ، لتعترف أمامهم بجرمها ، وتوفر عليهم جهد التخطيط لاصطيادها ، فعند ذلك فقط قد يرحموا ضعفها ، ويخففوا عنها عقوبة الخيانة ، أو ربما طلبوا تعاونها معهم ، من موقعها بالجنوب . وعندها ستكون صادقة إلى أبعد مدى ، فهى تكره رينيه البياضى ، وسعد حداد ، وأنطوان لحد[1] ، وإسرائيل .. تمقتهم جميعًا لأنهم انتهكوا حياتها ، وأحالوها إلى مخلوقة انتهازية تقفز وراء المال ، وتبيع أمن الآخرين ، وضميرها .

لكن حنان الياسين كانت أجبن من أن تفعل ذلك ، فهى فتاة خاوية جوفاء،تسعى لصالحها دونما اعتبار للانتماء والوطن . فوطنها الثراء لا غيره ، وأمنها هو المال.

أربعة أيام حارقة أعصابها فى انتظار المجهول المخيف ، فلا الحلاق جاء ، أو رينيه، أو أولئك الملتحون الذين تنتظرهم .

خرجت مسرعة من مستشفى الناقورة تتلفت حواليها فى هلع ، واستقلت أول سيارة إلى (بنت جبيل)[2] ، حيث يقع المكتب الفرعى لجهاز المخابرات الإسرائيلية . وفى مكتب رينيه البياضى، ارتمت متهالكة فوق أقرب مقعد أمامها، وبدت فى حالة انهيار تام وهى تقول بصوت مرتجف ، متقطع :

– احمنى منهم .. أرجوك يا سيدى .. إنهم يسعون ورائى ..

تساءل رينيه فى دهشة :

---

(١) اللواء أنطوان لحد ، أحد ضباط الجيش اللبنانى ، انضم إلى ميليشيا سعد حداد ، ثم تولى من بعده قيادة الجيش الجنوبى ، الذى يتألف من نحو ثلاثة آلاف عنصر ، ٦٠٪ منهم من الطوائف الإسلامية ، ٤٠٪ من الطوائف المسيحية المختلفة .

(٢) بنت جبيل : قرية حدودية تقع على مسافة ستة كيلومترات من حدود إسرائيل ، وعلى بعد ٢٤ كيلومترًا تقريبًا من الناقورة ، وبالقرية أحد أهم مراكز محطات المخابرات الإسرائيلية ، التى تتبع المحطة الرئيسية فى الخيام ، على بعد ٣٠ كيلو شمالاً.

- من .. ؟

أجابته وقد علت وجهها علامات الفزع :

- رجال حزب الله .

ارتفع حاجباه في دهشة أكبر وقال :

- حزب الله .. ؟

حاولت أن تتماسك قليلاً وهي تجيبه :

- نعم .. لم أكن أعرف يا سيدى أنه يعمل لصالحهم .. لقد خدعني ..

وأضافت :

- أتذكر ذلك الرجل الذى حدثتكم عن رغبتي في الزواج منه .. ؟

قاطعها بسرعة:

- أحمد الحلاق .. ؟

وهي تلهث مضطربة :

- نعم .. أحمد الحلاق .. إنه عميل لحزب الله .

وهو يضحك بفتور ساخر:

- لا .. لا أظن .

صرخت :

- صدقني .. هو من عملاء حزب الله .. أقسم لك على ذلك .. لقد اختفى بعدما.

ضرب رينيه البياضي المكتب بقبضته محتدًا ، وقال بصوت أجش :

- لقد اختفى بعدما كاشفته بكل شيء .. كل شيء أيتها القذرة .

انتفض جسدها وأخذت تغمغم :

- أحببته يا سيدى ووثقت به .. وظننت أنه إنسان مخلص سيساعدني ..

أشار رينيه أن تصمت ، فصمتت وهي تبكي في أنين خافت ، ودلف

جنديان مسلحان، بإشارة من سبابته هجما عليها ، وجذبوها إلى خارج الغرفة ، بينما صراخها المتحشرج ينوء بالهلع . وانطلقت بها إحدى سيارات الجيب إلى قرية الخيام ، حيث مقر الوحدة (٥٠٤)[1] ورجاء ورد .

أدخلت حنان الياسين فور وصولها ليلاً إلى معتقل الخيام ، وأودعت حجرة مظلمة كريهة الرائحة .. وظلت تصرخ هلوعة من رهبة المكان ، بلا فائدة . ولما أنهكها الصراخ المتواصل والنحيب ، تكورت حول نفسها ، وانتبهت إلى صوت أنين خافت ينبعث بالقرب منها.

وبالرغم من الرعب الجاثم بأعماقها ، استجمعت ما تبقى لديها من قوة ، وقالت بصوت مضطرب :

– من هناك .. ؟

انتظرت ردًا .. وطال انتظارها بلا فائدة ، فالتصقت بالجدار البارد بينما ترتعد أطرافها ، وقالت من جديد :

– من أنت .. ؟

هذه المرة جاءتها الإجابة من قرار بعيد :

– حنان .. إنه أنا .. (!!)

عندئذ تبينت صوته ، فصرخت بما استجمعت من قوة ، ودارت بها الدنيا وهى تزحف فى الظلام الحالك تجاهه ، إلى أن لامسته يداها فارتمت تريد أن تحتضنه ، لكنها فشلت . إذ كان معلقاً إلى الجدار كالذبيحة ، وساقاه إلى أعلى.

---

(١) الوحدة (٥٠٤) هى المحطة الرئيسية للمخابرات الإسرائيلية فى الجنوب اللبنانى ، ومقرها بقرية الخيام داخل الشريط الحدودى المحتل (على بعد سبعة كيلومترات من حدود إسرائيل) وكان بالقرية معتقل كبير سيئ السمعة ، تمارس فيه شتى أنواع التعذيب البدنى والنفسى والانتهاكات .
احتلت قوات سعد حداد بلدة الخيام فى آخر يناير ١٩٧٧ ، وقامت بارتكاب مذبحة بشعة بالقرية راح ضحيتها خمسون من السكان البالغ عددهم عشرون ألف نسمة . وتعتبر قرية الخيام من أكبر قرى الجنوب اللبنانى (قضاء مرجعيون) من حيث المساحة والسكان ، أما أصغر القرى فهى قرية (أم التوت) حيث يسكنها ٤٠٠ نسمة فقط .

انحنت تتحســس وجهــه ، وهالهــا الـدم المتجلـط الـذى علـق بـه ، فاشـتد نحيبها المحزون تنتزعه من جذور خلاياها ، وهى تردد فى جنون :

– لماذا .. ؟ لماذا .. ؟

وبصعوبة أجابها :

– لأننى أحبك .. فقد ظنوا بأننى أعمل لصالح حزب الله .

عندئذ .. أسرعت الحبيبة إلى باب الزنزانــة الحديـدى السـميك ، وأخـذت تضرب بكلتا يديها، تستغيث بالحرس .

لقد هاجمها فى تلك اللحظات شعور متعــاظم بـالندم .. النـدم فـى شـكوكها بإخلاصه ، وكانت أحاسيسها اللحظية قد تفجرت ، وتبين لها أن حبًا جبــارًا عتيدًا ، كامن بشغافها، يربطها بالحلاق بوثاق من حديد .

استرجعت فى لحظات محنة الأيـام الأربعـة السـابقة ، التـى عاشـتها فـى جحيم الشك والفزع ، وتقززت من نفسها خجــلاً عندمـا تذكـرت أنــها بصقـت على حبها، وعلى لحظــة الضعـف التـى مـرت بحياتـها لأول مـرة ، فعشـقت بإخلاص ، وتولهت ، وأذابت مشاعرها الحبلى شغفًا بين أحضان الحلاق .

يئست من قــدوم الحـراس ، فـارتدت إلى الحبيـب المعلـق تتحســس جسـده الملتحف بخيوط الدم ، وتلعق أنامل يديه المكبلتان بسلسلة حديديــة ، وبصـوت مفعم بالصدق والحب ، استجمعت فيه مخزون حنانها الدفىء ، قالت :

– سامحنى ..

تأوه الحلاق ألمًا ، وأردفت :

– أحبك .. أحبك لآخر لحظة بحياتى .

بوهن خافت ضعيف جاء صوته :

– أحبك يا حنان .. وإن عشت فلن أفارقك أبدًا ..

ضمته برفق وهى تقول :

- ماذا فعلوا بك يا حبيبى .. ؟ ومنذ متى أنت هنا .. ؟

بصعوبة جاءها صوته :

- كنت فى طريقى إليك لأخطبك من أهلك ، فاختطفونى ، إلى هـذا المكـان الذى لا أعرفه ، وتفننوا فى تعذيبى بقسوة لأعترف لهم بأننى مدسـوس عليـهم من حزب الله .

بفزع سألته :

- وهل اعترفت .. ؟

أجاب بصوت خفيض :

- أعترف بماذا .. ؟ مالى أنا وحزب الله .. ؟ قلت لك من قبـل إننـى أكـره السياسة ، ولا دخل لى بالشمال أو الجنوب . أردت فقـط أن أتزوجـك وآخـذك إلى بيروت بعيدًا عن القصف والدمار فى الجنوب .

كان بكاؤها المتقطـع بفعـل ارتجـاف جسـدها ، يسـمع بوضـوح فـى مكتـب الأمن، حيث قبع أحد الضباط وثمة جهاز تسجيل عـن يمينـه يحصـى أنفـاس العاشقين الملتاعين فى الزنزانة.

سألته حنان :

- ألا زلت تحبنى .. ؟

ود لو أن يداه حرتان ليضمها وهو يقول :

- أنت لا ذنب لكِ فيما يجرى لى .. فقد حاولت كثـيراً أن تقصيننـى عنـك لكننى لم أكن لأقدر .

- أحمد .. هل استجوبك رينيه البياضى .. ؟

أجاب :

- ضابط اسمه رجاء ورد .

هتفت :

- أوه .. يا إلهى إنه عنيف وشرس ..

وهو يئن :

– كان أن يقتلني .. بل هو كان يقصد ذلك .

لثمت جبينه بحنان زائد وهي تقول :

– رجال المخابرات في الجنوب لا يعرفون الرحمة .. هذا المعتقل قتل فيه ظلمًا مئات البشر .. بلا ذنب أو جريرة .

أضاف الحلاق :

– لقد أفقدهم حزب الله صوابهم .

سألته :

– أليس هذا مسلك حزب الله مع المعتقلين أيضًا .. ؟

زفر في ضيق :

– اشم رائحة المخابرات في سؤالك .. ماذا بك يا حنان .. ؟

ضمته برفق زائد وهي تقول :

– ألهذه الدرجة لا تثق بي .. ؟

صمت طويلاً قبلما يجيب :

– اعذريني يا حبيبتي ، إن آلامي تعذبني ، ووثاق ساقاي يذبح لحمي .

وسألها :

– لماذا جاءوا بك إلى هنا .. ؟

تنهدت في أسى وأجابت :

– ذهبت إلى مكتب بنت جبيل ، فجاءوا بي إلى هنا .. ولست أعرف لماذا أنا هنا .. وإلى متى .. ! !

وفي الصباح ، دس البياضي مسدسه المحشو في جرابه المعلق بخصره ، وغادر مكتبه إلى المعتقل .

يجب قتلهما

كانت لدى رجاء ورد شكوكًا فى أحمد الحلاق ، وعلاقته بحزب الله، ذلك الكابوس المرعب الذى يحرمه النوم ، ويحرم إسرائيل الأمن . لكن تقارير رجاله أكدت عكس ذلك ، وأوضحت بأن الحلاق عاشق مغامر ، سيئ السمعة ، يمر بظروف مادية قاسية ، وبالإمكان استغلال ذلك فى جس نبضه ، وتجنيده ضد حزب الله ، خاصة وأنه شيعى ومن السهل انخراطه فى صفوف الحزب.

لكن الضابط الشرس المتشكك ، كان يرفض تقارير رجاله ، ساخرًا من سطحية فهمهم لتركيبة حزب الله ، وأساليبه الاختراقية والمخابراتية الذكية.

وحتى بعدما اعتقل الحلاق وعذب بشدة ، رأى ورد فى ذلك مهارة أخرى لحزب الله، واختياره لرجال محترفون ، تدربوا جيدًا على المراوغة ، وتحمل شتى أنواع التعذيب ، بدنيًا، ونفسيًا. ووصل به الأمر إلى الشك فى عميلته حنان الياسين ، والطعن فى إخلاصها ، وهو الذى قام بنفسه على تدريبها فى عدة دورات متخصصة .

لذلك .. ما إن علم بوجودها بمكتب البياضى ، حتى أمره باعتقالها فورًا ، وترحيلها إلى معتقل الخيام ، لتحبس مع أحمد الحلاق فى زنزانة واحدة .

كان رينيه البياض على قناعة ببراءتها من شكوك قائده ، يغزوه إحساس مؤلم بالأسف تجاهها ، فهما حتمًا لن يغادرا المعتقل إلا جثتين هامدتين ، وتمنى فى قرارة نفسه ، أن يسعى ، فى هذه الحالة ، لأن تضمهما مقبرة واحدة .

وبرغم خبرتها التى لا تذكر فى عالم المخابرات والجاسوسية ، كانت حنان الياسين تعرف مدى الخطأ الفادح الذى ارتكبته ، عندما أطلعت الحبيب بسرها ، وتعرف أيضًا حجم الخطر الذى سيحيق بحياتها ، فيما لو أن الحلاق كان بالفعل أحد عملاء حزب الله .

أما والعكس هو الصحيح ، فالضرر مصدره فى هذه الحالة رجاء ورد دون غيره. إنه على كل حال لن يغفر لها بسهولة ، لأنه كضابط مخابرات لن يقبل مجرد التفكير فى نسيان هذا الأمر . فالخطأ فى أعمال المخابرات كارثة

محيقة، تترك آثارًا مدمرة لا حدود لهـا ، وسيكون فقدانـه لعملـه أولى النتـائج المؤكدة ، وضياع مستقبله كله ، ليظل بقية عمره نهبًا للندم والحسرة ، وعرضة لمشاكل نفسية معقدة ، تتأزم معها تصرفاته الحياتية والاجتماعية.

وكان الموقف عصيبًا حقًا ، وضحت معالمه فـي الزنزانـة المظلمـة الرطبـة، إذ خلصت حنان الياسين إلى نتيجة واحدة، وهي أن رجاء ورد لا يملـك حيالهمـا خيارًا آخر، سوى التخلص منهما معًا ، ليدفن السر ويمحي الخطأ . وما أسهل القتل عند القائد الجهم قاسي النفسي والقلب . فالجيش الجنوبي حريص علـى بقائه ، وولائه لإسرائيل ، ومعاداة الشمال المتربص ، ورجال حـزب الله الذيـن يتخطون الحواجز ، ويضربون بجرأة في الأعماق ، كأنهم أشباح الليل والنهار.

وفي هذا المأزق الخـانق ، رأت أن تقنـع رجـاء ورد ، بـأن يمنحـها فرصـة أخيرة ، لتصحح الخطأ الغير مقصود ، بأن تسـتميل الحـلاق ليتعـاون معـها ، إنقاذًا لحياتهما من الموت. فطالمـا لم يفـر منـها منـذ البدايـة ، عندمـا كاشـفته بسرها ، فبالإمكان إذن تعاونـه ، بـالضغط علـى عاطفتـه ومشـاعره . ومـا كـان يقلقها لحظتئذ ، سوى إمكانية تجاوب الحـلاق معـها، وتفهمـه للمـأزق الـذي وضعا فيه معًا.

كانت تدور وسط ثقب ضيق خانق ، يحيطها الخوف والفزع ، عندما انفتـح باب الزنزانة ، ودخل البياضي ثائرًا ، تعلو وجهه مسحة هائلة من الغضـب ، وألقى قنبلته :

– هل فكرتما في حل ينقذكما من الإعدام .. ؟

صرخ أحمد الحلاق في رعب :

– إعدام .. ؟ وما ذنبي لكي أعدم ظلمًا .. ؟

وبينما كانت حنـان ترتعـد ، ويسـمع بوضـوح صـوت اصطكـاك أسـنانها ، أجاب البياضي:

– ذنبك أنك عرفت أسرارنا ، وعرفتنا أيضًا.

انطلق صوته متوسلاً :

- أنا لا أعلم شيئًا .. لن أتفوه بكلمة .. كلمة واحدة ..

وقالت حنان خائرة القوى :

- سيدى الضابط .. كن رحيمًا بنا .. ودلنا إلى حل ترضونه ..

وهتف الحلاق فى رجاء :

- نعم .. أى حل ينقذنا .. إنك ضابط شهم شريف ..

قال رينيه :

- الحل عندكما أنتما .. ولا أملك سوى نقل رغبتكما إلى قائدى ورد ، فإن مصيركما بيده .

وقبل أن يغلق باب الزنزانة سأل الحلاق :

- إذا طلب منك العمل معنا فهل توافق .. ؟ أريد إجابة حاسمة .

وبدون تردد نطق الحلاق :

- أوافق .. أوافق على العمل معكم ضد حزب الله ، وضد لبنان ، وضد نفسى . أريد أن أعيش يا سيدى .. أرجوك .. ! !

وبرغم اقتناع رينيه البياضى وقائده رجاء ورد ، بأن أحمد الحلاق لا يستحق كل هذا الجهد ، والتعذيب ، إلا أن الظروف المحيطة به ، وأهمها تعلقه بعميلة الموساد ، وفرت خطوات طويلة لسحق إرادته ، وتكسيرها .

وعندما مثل الحلاق بين يدى رينيه البياضى ، كان يرتعد فرقًا كفأر مذعور انغلق باب المصيدة على ذيله ، فانقلب يصرخ لا يدرى ، أيصرخ ألمًا ، أم لوقوعه فى المصيدة .. ؟

بادر رينيه بسيل جارف من الأسئلة ، ملوحًا بأنه قد ينجح فى إقناع قائده ، بإنقاذ حياته وحياة حنان الياسين ، إذا ما استشعر صدق رغبته فى العمل معهم ، ضد حزب الله .

كان الأمر واضحًا جدًا ، وليس بحاجة لكل تلك المناورات التي كانت من أساسيات العمل المخابراتي . فالحلاق كان أجبن من أن يفرض رأيًا ، أو شرطًا، للتعامل معهم ، فمؤرقاته كانت تنحصر في أمرين لا ثالث لهما ، إنقاذ حياته ، والزواج من حنان الياسين . وبعد ذلك فكل الأمور سواء .

وأمام كاميرا الفيديو ، اعتدل الحلاق في كرسيه ، معلنًا انضمامه لجيش لبنان الجنوبي، وقبوله التطوع لحمايته ، والدفاع عن أمنه ، وفي سبيل ذلك فهو يهب حياته ، وروحه فداء لجيش الجنوب وقائده ، اللواء أنطوان لحد .

هكذا وقع الحلاق على وثيقة خيانته[1] ، فروحًا بنجاته ، وأخضع لدورة تدريبية مكثفة في فنون التجسس وتلقط المعلومات ، والأساليب المخابراتية التي يتبناها حزب الله ، وكيفية اختراقه .

بعدها .. منح ألف دولار أمريكي .. وانطلق إلى الناقورة فهنأته الحبيبة ، وخطبها من أهلها، ثم قاد سيارته باتجاه الشمال يسعى خلف حزب الله ! !

ومنذ أن تلقى الحلاق تدريباته في فنون التجسس ، تحول إلى شخصية أخرى مختلفة، إذ بدأت حواسه كلها تعمل وتحلل وتصور ما تراه وتسمعه ، وطبق حرفيًا ما تدرب عليه في (الخيام) حتى لا يثير شبهات أحد ، فيقع في مصيدة حزب الله التي لا فرار منها ، ولا حياة بعدها.

حتى لقاءاته مع محبوبته حنان الياسين ، لم تعد تغلفها أحاديث العشق والهوى كسابق عهدها ، إذ انكبا معًا في التخطيط لمهام العمل المشترك ، وترتيب خطوط حياتيهما المستقبلية في التجسس ، والزواج .

وبينما كانت حنان منشغلة باستدراج المرضى في المستشفى ، وبث روح الثقة بنفوسهم تجاهها ، انشغل الحلاق بمسألة هامة تؤرق الإسرائيليين وتحيرهم ، وهي قصة اختفاء الطيار الإسرائيلي «رون آراد»[2] الذي ما زال مختفيًا في

---

(١) هذا ما حدث مع الحلاق، وما جاء تفصيليًا بكتابنا : (أحمد الحلاق .. أول جاسوس أعدم في لبنان). وهو ما يتعارض مع ما كتبه البعض عن قصة تجنيده التي ذكر بأنها وقعت في قبرص .! !

(٢) قصة أسر الطيار الإسرائيلي رون آراد جاءت تفصيليًا بالجزء الثالث من كتابنا (حراس الهيكل - عمليات الموساد الخارجية في نصف قرن) عن دار أطلس بالقاهرة.

ربوع لبنان ، منذ أسقطت طائرته فى أكتوبر ١٩٨٦ . ولا تزال إسرائيل تصر على استعادته ، حتى أنها لم تترك أية مناسبة دون أن تطالب المجتمع الدولى بالتدخل للإفراج عنه . خاصة وأن أسرة الطيار الأسير تقدمت بشكاوى عديدة ضد الجيش الإسرائيلى ، تطالب فيها بضرورة التحرك لاستعادة آراد ، الذى تحول بمرور الوقت إلى أسطورة شعبية فى الأوساط الإسرائيلية ، وتذاع عنه أغنيات حزينة يرددها الإسرائيليون ، تطالب بعودته.

لم تيأس المخابرات الإسرائيلية، وجندت جيشًا من الطابور الخامس[١] لاقتفاء أثر آراد ، كان أحمد الحلاق أحد أفراد هذا الجيش ، الذى انحصرت مهمته فى البداية فى اختراق حزب الله ، حيث يوجد الطيار الأسير فى أحد دهاليز مخابئه السرية .. !!

رحلة الثعبان والحية

بأموال الموساد ، جهز الحلاق شقة الزوجية، وفى أغسطس ١٩٨٨ زفت إليه حنان الياسين ، العروس لجميلة الفاتنة المثيرة ، وسافرا إلى بيروت لقضاء شهر العسل، حيث استأجرا إحدى الشقق بضاحية بيروت الجنوبية ، بقصد الاختلاط بالأكثرية الشيعية هناك، اعتمادًا على أصدقاء له يقيمون بالحى[٢].

اختار الحلاق « حارة حريك » بالضاحية ليقيم بها وعروسه حنان ، وكانت شقته تطل على أطلال مدرسة الراهبات والكنيسة ، وكانت الضاحية الجنوبية ، وما زالت ، هى العاصمة الحقيقية للتيار الإسلامى عمومًا ، ولحزب الله خصوصًا ، إذ يمارس الحزب فى هذه المنطقة ، وفى المناطق الشيعية الأخرى بلبنان ، دورًا أبعد ما يكون عن فرض نمط حياة إسلامى على السكان .

ففى شوارع الضاحية تتجاور المؤسسات الإسلامية ، مع المحلات التجارية

---

(١) الطابور الخامس : مصطلح مخابراتى يقصد به العملاء والجواسيس خلف خطوط العدو .

(٢) تردد أن عماد مغنية رئيس مخابرات حزب الله كان صديقًا لأحمد الحلاق فى فترة ما ، وذلك قبلما يتدين وينخرط فى صفوف الجهاد.

ذات المسميات الأجنبية ، وتلتصق رموز حزب الله فى شارع "معوض" مع محلات التجميل، فى التحام قد لا يشكل تظاهرة مؤقتة يمكن أن تنتهى .

لم يكن الحلاق وعروسه كأى عروسين فى شهر العسل ، تزوجا بعد صراع ومعاناة . فمذاقات اللذة التى كم حلم الحلاق بها فى خياله ، بدت بطعم مختلف . وهذا الجسد الأفروديتى الناصع المثير ، الذى يذيب العقول والأنفس ، تبدلت رؤى الحلاق حياله ، بعدما عجز عن احتوائه وعصر لذائذه . فأيام الاعتقال ، والتعذيب ، واستخدام أجهزة الصعق الكهربى لاستنطاقه ، أظهرت آثارها على رجولته .

أما العروس الساحرة ، فقد ازدان حسنها رونقًا متخمًا بالفتنة والتفتح ، وحيرها فى الوقت نفسه ، ذلك الذبول الصريح ، وجفونه التى تحبس لمعانًا مترقرقًا فى عينيه . وسألته فى حنان :

ما السبب .. ؟

لماذا انطفأ هدير اشتياقك .. ؟

ترى هل أكون غبية .. ؟

وفى دفء حضنها أفضى الحلاق لها بسره .

بدا الحلاق تقيًا ورعًا ، إذ واظب على الصلاة بالمسجد الكبير القريب من مسكنه ، والذى يرتاده العديد من قيادات حزب الله . وفى شقته ارتفع ميكروفون الكاسيت بشرائط القرآن المرتل ، وبخطب رجال الدين البقاعيين .

كان قد تعلم الدروس بحرفية فى الخيام ، واستوعب أساليب المحاورة والجدال ، واستخلاص النتائج ، وكيفية الوصول إلى ما يريده من محدثه ، دون إثارة شكوكه .

لقد كانت رحلتهما فى شهر العسل إلى بيروت ، بعيدة عن العسل ، إذ هى رحلة استطلاع وتكشف على أعلى درجات الخطورة والجرأة ، استغلتها حنان الياسين بصورة فريدة ، عندما تعرفت بأرملة أحد الشهداء ، واستدرجتها

بإعجاب مصطنع للحديث عن بطولات زوجها ، وبفخر أخـذت الأرملـة تسـرد الكثير عن عملياته الفدائية ضد القوات الإسرائيلية ، وإقدامه الجسور طمعًا فـى الشهادة .

ومن بين ما قالته تلـك السيدة ، أن زوجـها الشـهيد كـان قـائد سـرية فـى إحدى الفصائل، وهو أول من أسر حيًا طيار إسرائيلى أسقطت طائرته فى صيدا ، وسلمه لمصطفى الديرانى[1] ، أو لحركة «أمل»[2] .

وما إن علم الحلاق بتلك المعلومات من زوجته ، تهلل وجهه فرحًا ، وطلب منها أن توطد علاقتها بالمرأة ، شريطة ألا تسعى بشكل ملفت لمعرفة المزيد عـن الطيار الأسير ، لكى لا تثير الشكوك حولها .

وانتهى شهر العسل ، وعاد الحلاق وعروسه إلى الجنوب بعدمـا نجحـا فـى مهمتهما الأولى، يحملان ما لذ وطاب إلى الفريـق الإسـرائيلى ، معلومـات أثمـن من الذهب ، ومن الدولارات التى أغدقت عليهما.

وبعد عدة أيام ، استدعى الحلاق إلى الوحدة (٥٠٤) وعهد به إلى ثلاثـة مـن خبراء الموساد ، تناقشوا معه فيما جاء بتقريره ، ثم أبقـوه لعشـرة أيـام متصلـة لتلقينه كيفية التعامل مع حزب الله ، وسيكولوجية التعامل المتقن لاختراق نظم جماعاته ، وأدمغة رموزه . خاصة ، وأن جهاز أمن الحـزب ، يدقـق بشـدة ، تصل إلى درجة التشكك ، فى كل المتعاملين مع الحزب، من قريـب أو بعيـد . أى «يفلى تفلاية» كما يقولون.

اجتاز عميـل الموسـاد الـدورة التدريبيـة بنجـاح مذهـل ، أهلـه للانتقـال إلى وضعية ، ذات حرفية أكثر مهارة ، تمهيدًا لتعامل مدروس مع كـوادر الحـزب وقياداته ، من خلال ساتر أمنى يحتمى به ، وهو نشاط تجارى موسع ، يضمن

---

(١) مصطفى الديرانى : زعيم "حركة المقاومة المؤمنة" وهو بعلبكى ، قامت وحدة كوماندوز إسـرائيلية بعد ذلك باختطافه من بعلبك لمعرفة مخبأ الطيار «رون آراد» . أو معلومات عن مصيره .

(٢) حركة «أمل» : حركة جهادية إسلامية نشأت فى بعلبك ، وانشق عنها حزب الله بزعامة السيد حسين الموسوى ، بعدما اشترك رئيسها نبيه برى فى «هيئة الإنقاذ الوطنى» إثر الاجتياح الإسـرائيلى للبنـان عام ١٩٨٢ ، وضمت الحركة بشير الجميل ، سفاح مذبحة صبرا وشاتيلا ، وزعيـم ميليشـيا الكتـائب ، وصديق إسرائيل المقرب الذى اغتيل بعد توليه الرئاسة بأيام .

له التحرك بأمان ما بين الجنوب وبيروت ، ويكون أيضًا مصدر حياة ميعشية مريحة له ولاسرته ، يكفل له الاستقرار المادى والنفسى لكى يعمل بكفاءة تحت أعينهم .

تلك هى إحدى حيل المخابرات المعروفة ، ويطلق عليها اسم Cover ،وهى واحدة من البدائل المأمونة التى اعتمدتها شتى أجهزة المخابرات ، بما فيها العربية ، كغطاء لرجالها وعملائها فى عواصم الدول .

وقبلما يغادر الحلاق الوحدة (٥٠٤)، همس لرينيه البياضى برغبته فى إيجاد حل لمشكلته الأخرى المؤرقة ، ووعده الضابط خيرًا فى زيارته القادمة ، بعدما يستفسر عن ظروف العلاج المناسب لحالته فى تل أبيب .

نال الحلاق مكافأة سخية ، ومبلغًا محترمًا لبدء مشروعه التجارى فى صور[1] ، وأسرع فروحًا إلى حنان الياسين ، يزف إليها أنباء الثروة الطائلة التى حصلا عليها ، والوعد الذى قطعه البياضى على نفسه بعلاجه فى تل أبيب . وقبلما يحدثها بأخباره زفت إليه نبأ الحمل الجديد .

وبالقرب من مدرسة الشجرة استقرا فى مسكنهما الجديد ، وبدأ الحلاق يبحث عن دكان مناسب يمارس من خلاله تجارته فى المشغولات اليدوية وأدوات البيت العصرى ، فهذا النشاط التجارى هو الواجهة ، والغطاء ، وتصريح الدخول بأمان لعالم حزب الله . كان هذا بينما اهتمت الموساد بفكرة اختطاف القيادى البارز فى حزب الله الشيخ عبد الكريم عبيد لمعرفة مصير رون آراد، حيث اجتهدت العقول فى تل أبيب بدراسة الأمر ، ووضع الترتيبات ، والخطط البديلة التى تضمن نجاح العملية التى نفذت مساء ٣١ من يوليو ١٩٨٩، حيث أغار رجال كوماندوز أغاروا ليلاً على قرية جبشيت الجنوبية، واختطفوا الرجل من فراشه إلى إسرائيل .

---

(١) هناك سبب جوهرى لاختيار مدينة صور لإقامة الحلاق وزوجته ، فالمدينة تضم عدة مخيمات للاجئين الفلسطينيين منها : مخيم الرشيدية ، ومخيم البص ، ومخيم البرج الشمالى . وتعتبر صور إحدى أهم مدن الجنوب اللبنانى التى تأوى رجال المقاومة ، لقربها من الشريط الجنوبى المحتل ، حيث يمكن التسلل عبر السهول والجبال لنصب الكائن والقيام بعمليات فدائية .

انفجار الضاحية

حظى أحمد الحلاق بمكانة رفيعة فى الموساد .. ونال مكافأة سخية قدرها سبعة آلاف دولار .. وثلاثة آلاف أخرى لزوجته حنان الياسين .. ليس هذا فحسب .. بل زيدت المخصصات الشهرية له ولزوجته .. وأعفى بشكل مؤقت من التكليفات التى كان يجبر على تنفيذها .. وتركت له حرية العمل والتحرك بلا ضغوط .

لقد استهوته لعبة العمليات السرية واستغرقته .. فلم يعد ينصت للهواجس أو تخيفه تيارات الهلع التى كانت تجتاحه من قبل إذ انقلب أمام طغيان المال إلى جاسوس شره يساوم الإسرائيليين على ثمن كل معلومة . ويعلو صوته فى وجه رجاء ورد مطالبًا بالمزيد من المال لقاء خدماته وتقاريره .. مهددًا بالتوقف عن العمل إذا لم يعطوه ما أراد .

وفى أغسطس ١٩٩٤ بدأ التخطيط لعملية كبرى .. وذلك عندما تعرف بفؤاد مغنية شقيق عماد مغنية رئيس جهاز أمن حزب الله .. فتملكته فكرة القيام باستدراج عماد واختطافه إلى إسرائيل .. لكنه عدل عن تلك الفكرة .. وقرر اغتياله بعدما اكتشف أنه يتمتع بحاسة أمنية عالية جدًا .. فهو كالثعلب دائم المراوغة .. لا يكاد يظهر أبدًا فى أماكن ومواعيد محددة .. ولا يستطيع كائن من كان رصده أو التعرف عليه بسهولة . ذلك لأنه دائم التخفى شديد الحرص، خاصة منذ اختطاف الشيخ مصطفى الديرانى إلى إسرائيل فى مايو ١٩٩٤ بواسطة فريق كوماندوز إسرائيلى قاده إليه ابن عمه محمد الديرانى الذى أعدم بعد ذلك. ولما فاتح الرائد ورد بنيته فى اغتيال مغنية . وافق على الفور فى رد فعل طبيعى للهزائم المتتالية التى أوقعها حزب الله بين صفوفهم انتقامًا لاختطاف الديرانى .. ووعده بعشرة آلاف دولار فى حالة نجاح الاغتيال .

مرت أربعة أشهر .. ووضع الحلاق خطته بمساعدة رجال الموساد لاغتيال عماد مغنية بعد مراقبات مستمرة وحسابات معقدة .. وتحدد لتنفيذها الأربعاء ٢١ ديسمبر ١٩٩٤ فى «محلة صفير» بالضاحية الجنوبية .. حيث سيتواجد عماد فى الثانية والنصف مساء برفقة شقيقه فؤاد.

وبواسطة سيارة مفخخة استأجرت بأوراق مـزورة وقادهـا الحـلاق بنفسـه .. وقع الانفجار المدوى الذى هز الضاحية وتسبب فى مقتل وإصابـة ثمانيـة عشـر مدنيًا .. وابتسم الحلاف فى زهو المنتصر .

وباعت كل شئ

كانت السيارة المفخخة تحمـل مائـة كيلـو جرامًـا مـن مـادة T.N.T شـديدة الانفجار .. أوقفها أحمد الحلاق فى المكان الذى اختاره بعنايـة .. بينمـا وقـف هو على مسافة خمسين مترًا يرتدى زى رجال الدين بلحيـة مستعارة، ونظـارة سوداء تخفى ملامح وجهه .

وأمام أحد محال البقالة تظاهر بالقلق .. وطلب رقمًـا تليفونيًـا متظـاهرًا بـأن صديقه الذى هاتفه تأخر كثيرًا فأشفق عليه صاحب الحانوت وقدم له كرسيًا .. فجلس أمام المحل يراقب السيارات المارة فى حذر كان يعلم بـأن عمـاد مغنيـة شخصية مجهولة بالنسبة له .. وأن شقيقه فؤاد مغنية هو الدليل الوحيـد الـذى سيقوده إليه .. فهو سائقه الخاص .. وذارعه الأيمن فى تحركاته .

لحظات .. وأطلت من بعيد السيارة الهدف يقودهـا .. فـؤاد إنـهـا بـلا شـك تحمل عماد مغنية بداخلها .. فالستائر البنية المنسدلة تحجب الجالسين بالمقعد الخلفى .. وثمة سيارة أخرى للحراسة تجد فى أثرها .

وبضغطـة علـى زر الجـهاز المستتر حـدث انفجـار مـدو .. اتجــهت قوتــه التدميرية ناحية الهدف بواسطة ألواح من الصلب .. فاختفت فى لحظـة معـالم السيارة بمن فيها .. وساد الشارع ارتباك شديد وزحام .. وانطلق أحمد الحــلاق يغادر المكان حيث كانت تقف سيارته الأخرى المستأجرة أيضًا بأوراق مزورة .

لم تـتردد الحكومـة اللبنانيـة لحظـة فـى توجيـه اتـهام رسمـى مباشـر إلى المخابرات الإسرائيلية .. بأنها سعت إلى تنفيـذ عمليـات لا توجـع حـزب الله .. بل تكون موجهة للدولة اللبنانية وللمواطن اللبنانى .. اللذيـن يجـب ان يتدبـرا مسألة حزب الله وعملياته العسكرية فى الجنوب .. فهذا يعنى فى مضمونه أن

إسرائيل قررت تحرير نفسها من اتفاق إبريل / نيسان ١٩٩٣ .. الذى سبق وأن توصلت إليه مع حزب الله برعاية وزير الخارجية الأمريكى وارن كريستوفر .. وقالت التحليلات السياسية إن إسرائيل بالتفجير الأخير باتت عازمة على الخروج عن أصول اللعبة التى حددها الاتفاق .. بحصر مقاومة حزب الله داخل الأراضى المحتلة فى الجنوب وعدم تجاوزها إلى مناطق شمالى اسرائيل .. لا بإطلاق الكاتيوشا .. ولا بعمليات فدائية .. مقابل التزام اسرائيل بضرب مواقع حزب الله وتعقب قياداته .. دون القيام بعمليات عسكرية تهدد سلامة الأمن اللبنانى الداخلى .

وفى حين اجتمع وزير الداخلية اللبنانى ميشال المر مع القيادات الأمنية .. داعيا إلى أقصى درجات الحيطة والحذر .. انهمك رجال الأجهزة الأمنية فى حزب الله .. فى محاولة لفك لغز الرجل الملتحى الذى أدلى البقال بأوصافه .. واحتفظت ذاكرة تليفونه برقم هاتف فؤاد مغنية .. وبصمات ذلك العميل المجهول .

وعلى حين فجأة .. تقدم أحد الأشخاص بشهادته .. فأكد على أن رجل الدين المشتبه به هو أحمد الحلاق .. وأنه يعرفه حتى من ظهره[1] .. وأن عيونهما تلاقت للحظة عندما ناداه باسمه .. وأعتقد بأنه مكلف بعملية سرية استدعت تنكره .

وبينما كان الحلاق يرتجف هلعًا فى الجنوب .. أعلن رسميًا فى بيروت نبأ مقتل فؤاد مغنية وشخصين آخرين وجرح خمسة عشرة مدنيًا .. وأن عملية التفجير استهدفت اغتيال عماد مغنية أحد نشطاء حزب الله .. الذى عدل عن مغادرة منزله فى اللحظة الأخيرة .

المقايضة

وفى خضم الضجيج الإعلامى حول أسباب عملية التفجير فى محلة صفير..

---

(١) تردد أن الشاهد الذى أرشيد عن أحمد الحلاق هو أحد أقاربه، لكن لم تتأكد هذه المعلومة بشكل قطعى .

غادر أحمد الحلاق بيته هو وزوجته وطفليه داني وباسكال .. لاجئًا إلى قائده الرائد رجاء ورد في بلدة الخيام .

كان في حالة نفسية متدهورة . يحاصره الخوف الشديد من انتقام حزب الله.. وتبكي حنان الياسين لحاله. فعنفه الضابط بشدة لأن غروره أدى إلى فشل العملية .. وألحق أضرارًا بالغة في منظومة الاستقرار التي ستنقلب إلى جحيم لن يتوقف .. بسبب استثارة غضب حزب الله .

وبإلحاح مغلف بالفزع . التمس منه الحلاق ان ينتقل للعيش في إسرائيل مع أسرته .. مذكرا إياه بتاريخه الطويل .. هو وزوجته في التعاون معهم .. وبأن الخدمات التي أدياها تشفع لهما تلبية رغبتهما .

حاول ورد إقناعه بأن حزب الله لم يتشكك بعد في أمره .. لكن الحلاق كان لا يكف عن البكاء .. وعلى مضض .. استبقاه ورد بأحد بيوت القرية .. بدعوى أنه سيتكلم مع رؤسائه في اسرائيل .

لاحظ النقب رينيه البياضي ما آل إليه مصير عميل الموساد وأسرته .. وارتسمت بخياله صورة مأساوية لمصيره هو الآخر إذا ما لفظته الموساد وتخلت عنه .. فقد جاء الرد حاسمًا من إسرائيل برفض استقبال الحلاق وأسرته .. وبأن ما «ابتزه» منهم من اموال يكفي لإعالته في الجنوب لسنوات .. وفي حقيقة الأمر .. لم يكن الحلاق وقتها يمتلك سوى ستمائة دولار فقط .. كانت هي كل ثروته السائلة بعدما أنفق الآلاف من جيبه على عميلة التفجير انتظارًا لمكافأته الثمينة بعد ذلك من الموساد. ومرغمًا ... ظل الحلاق مقيمًا بالخيام مكتئبًا مذعورًا .. دون أن يطلعه أحد على الرد الاسرائيلي .. فكان يتردد كل يوم على مكتب القائد ورد يطلب بصرف مستحقاته .. وضرورة بعيدا نقله إلى إسرائيل..

ولشعوره باليأس وتخلي الجميع عنه .. وهواجس الرعب التي تفتك بأعصابه .. طلب نقله إلى مكان آخر بعيد يحس فيه ببعض الراحة والأمان .. فبعث به ورد إلى قرية يارين الحدودية على مسافة كيلومترين ونصف من

الحدود الإسرائيلية .. وهى قرية خاوية تمامًا أفرغت من سكانها إثـر الاجتيـاح الاسرائيلى للجنوب فى مارس ١٩٧٨ .. فرضى الحـلاق بـها مسـتقرًا ثانويًـا .. مستشعرًا بعض الأمل فى العبور إلى الناحية الأخرى عما قريب ..

وبأحد المنازل المهجورة عاش الحلاق وأسرته حيادة بدائية صعبة بـلا ميـاه أو كهرباء .. أو الحد الأدنى من متطلبـات الحيـاة فـى قريـة مـن قـرى القـرون الوسطى فى المجاهل الافريقيـة .. إذ سرعان مـا طـواه التجـاهل والنسيان .. وقلصت حصته التموينية التى قررت له .. فبدأ يتسول الطعام والسجائر والميـاه من جنود الدوريات .. وكانوا فى غالبيتهم من يـهود العـراق والـدروز .. حتـى أذله الفقر والقهر والقر ..

ففى نهاية فبراير ١٩٩٥ طحنته الأحوال النفسية والمعيشية السيئة .. ومـع لسعات البرد القارس والجليد الذى يجمد الدماء فى العروق اصيب بـالحمى .. خرجت زوجته تبحث عن دواء وطعام. وعلى الحدود الاسرائيلية ساومها ثلاثـة من الدورز .. وبلا تردد .. تناوب الثلاثـة مضاجعتـها .. وكـان آخرهـم سـادى شاذ أدمت أسنانه عنقها وصدرها . وعادت إلى بيتها سعيدة بما حملت من مؤن . لا يؤرقها المقابل الذى دفعته .. فقد باعت من قبل كل ثمين ..

ولما سألها زوجها عما حدث .. قذفت إليه بعلبتى سجائر .. وأخرجت مـا جلبته من طعام وهى تضحك فى هستيريا قائلة :

– إنه طعام جيد .. سيكفينا لعدة أيام .

فقبلها الحلاق فرحا ودعا لها بطول العمر .

الخنازير والجسد

جاسوسان للموساد يختبئان بقرب الحدود الاسـرائيلية .. تطاردهمـا أجـهزة أمن حزب الله .. وتبحث عنهما فى كل شق من شقوق جبال لبنان الجنوبية .. يعيشان كالجرذان فى ظل الحماية الأمنية لجيش لحد العميل .. إنهما يترعـان المر .. و يلوكان الخوف انتظارًا لقرار دخول إسـرائيل .. تتويجًـا لنهايـة قصـة الجاسوسية والخيانة والغدر .. لكن القرار لا يجىء .. والانتظار وحسن كاسـر ..

ضرباته كالسوط موجعة قاسية لا ترحم .. ولا تهدأ .. ولا تستقر .

وأمام معاناة الحلاق وخوفه من أنياب الانتقام التى تتربص به .. بدت الحياة أمامه سوداء كئيبة. فالأيام تجرى والشهور تتعاقب ولا أمل فى الفرار إلى إسرائيل .. وبدا كانه يعيش فى سجن محكم بالكاد هو بحجم ثقب الإبرة .. فكان لا يملك إلا البكاء صمتًا .. والانكماش ببيته تطويه المخاوف طيا .. فيرتجف رعبا إذا ما حرك الريح شجيرة عوسج .. وينتفض كالملسوع مع خربشات الفئران وشخشخة الأوراق الجافة.

كان يعلم بأن حنان تضحى دون أن تتكلم .. أو تظهر له مدى انتهاك جسدها فى كل مرة تعود تحمل المعلبات والسجائر .. إنه يعرف كل شئ لكنه يتغابى . ويتعامى .. ويتعذب فى داخله .. موطنًا نفسه على أنها مثله . تدفع الثمن .. تدفعه غاليًا فى قهر وصمت لتخفف عنه معاناته .

وفى بيروت كانت الأحداث تجرى سراعًا .. فقد وضعت الخطة تلو الخطة لتعقب الجاسوس الفار .. أما أنه وقد اختفت آثاره عن عيون الأمن .. فقد بات واضحًا أنه إما بمخبأ ما بالجنوب المحتل .. أو أنه أخذ إلى إسرائيل .

وكان الاحتمال الأول هو الأكثر ملائمة .. ذلك لأن إسرائيل وعلى مدار تاريخها الطويل فى التجسس .. عرف عنها تخليها بسهولة عن العملاء الذين أنهوا مهامهم .. ولم تعد هناك حاجة إليهم .. ويستثنى من ذلك لأسباب سياسية حرجة الطيار السورى بسام عادل .. والطيار العراقى منير روفا .. والأردنية أمينة المفتى .. والمصرية انشراح موسى .. دون ذلك هناك عشرات بل مئات العملاء الذين تخلت عنهم وتنكرت لهم وتركتهم يواجهون العار والفضيحة والسجون والضياع.

كثفت الأجهزة الأمنية فى حزب الله جهودها لتقصى أخبار أحمد الحلاق فى الجنوب .. وجندت لذلك جهد العديد من عملائها السريين والمزدوجين .. الذين جدوا فى البحث عنه باستماتة .. فكان عملهم أشبه بالتنقيب عن إبرة فى جرن من القش .

وبعد عـام طويـل وشـاق .. ضربـت خلالـه عمليـات حـزب الله واختراقاتـه مفاصل التواجد الاسرائيلى فى الجنوب اللبنانى .. وتحديدًا فـى ينـاير ١٩٩٦ .. أبلغ احد العناصر أنه علم بوجود الحلاق واسرته بقرية يارين المهجورة.

كـان البـلاغ مثـيرًا للدهشـة .. فمعنـاه أن إسـرائيل تخلـت عنـه بـالفعل .. وأيضًا.. تحفظت عليه بالقرية المحاطة بحزام أمنى ثقة أنه بذلك بمأمن يسـتحيل كشفه. لكن .. على العكس تمامًا .. رأى جهاز الأمن فى حـزب الله أن وجـود الحـلاق فـى يـارين المتاخمـة للحـدود وتحـت أنظـار الجنـود الإسـرائيليين وتحركاتهم أمر أفضل كثيرًا بالنسبة لهـم عمـا إذا كـانت إقامتـه بقريـة الخيام مثلا.. على مسافة ٣٦ كيلومترًا إلى الشمال

ففى الخيام التى هى مقر محطة التجسس الرئيسـية لإسـرائيل فـى لبنـان، سيحتاط الحلاق لنفسه .. وذلك لقرب البلدة من هجمات شبان المقاومـة .. أمـا فى يارين البعيدة فلن يحتــاط .. ولـن يتوقـع اقتناصـه لإدراكـه أنـه بعيـد عـن المتابعة والرصد .. كذلك ستنخدع الوحدة ٥٠٤ العميلة التى يترأسها رجـاء ورد لكـون الحـلاق بـين ظهرانيـهم .. وسـتهمد بذلـك .. عمليـة المتابعـة المسـتمرة للجاسوس الفار ..

لكل تلك الدلائل ، توافرت الثغرة الأمنية التى بنيت على افتراضيات الثقة فى نظام الأمن .. ومن خلال تلك الثغرة يكمن الخطر .. حيـث لرجـال حـزب الله يمكن النفاذ بهدوء عبر كل الخطوط .. واختطاف الجاسوس القاتل وزوجته الأفعى الرقطاء.

تمامًا .. كانت الرؤيــة التحليليـة لأجـهزة أمـن حـزب الله صائبـة .. وغـير متوقعة .. إذ تأكد لديها صدق المعلومة التى وصلــت . ولمـدة شـهر ونصـف مـن الرصد والمتابعة المستمرين .. تم التوصل إلى خطة مدهشة لاجتيـاز كـل الخطـوط الحمراء التــى تعـوق التسـلل إلى يـارين .. برغـم الأجـهزة الإلكترونيـة لمزروعـة ووسائل الحماية المختلفة

وفى فبراير ١٩٩٦ ،فى ذات ليلة غاب فيها القمر واكتســى الظـلام .. كـان

أحمد الحلاق يحتضن طفليه ويغط فى نوم عميق .. وكانت زوجته حنان الياسين متهالكة فى فراشها بحجرة داخلية .. عندما عولج الباب الرئيسى للمنزل بهدوء وأطلت مواسير الرشاشات قبل الرءوس ..

صحا الحلاق فزعًا وهم يوقظونه شاهرين أسلحتهم .. فامتثل لأوامر الأشباح الملثمة ولزم الصمت .. وجيء بزوجته الخائرة حيث تم تكبيلهما واقتيادهما مع طفليهما صاغرين إلى المصير الطبيعى لكل خائن جبان .. وسجل التاريخ فى تلك اللحظة أروع عمليات حزب الله التى اخترقت جدران أساطير الأمن والحماية التى تروجها إسرائيل.

كيف تم اختطاف الجاسوسين من بين أحضان الحراسة والدوريات المنتظمة وقوات الجيش الجنوبى العميل[1] .. ؟

اللطمة .. !!

كانت اللطمة عنيفة جدا ومفاجئة فأفقدت العدو صوابه .. إذ لم يتصور الإسرائيليون مدى تعاظم قوة حزب الله لدرجة انتزاع الحلاق وأسرته من بين

---

(١) فى ١٢ سبتمبر ١٩٩٦ ، أحيل إلى إحدى المحاكم الإسرائيلية أربعة شبان لبنانيين هم : رمزى نهرا ، وماهر توما ، وبسام حاصباني، وسليم سلامة بتهمة التعامل مع العدو ، والتجسس لصالح الدولة اللبنانية . وكانت أجهزة المخابرات الإسرائيلية قد اقدمت على خطفهم من الجنوب اللبنانى فى ٢٢ فبراير ١٩٩٦ ، بعدما اكتشف دورهم فى خطف العميل الصهيونى أحمد الحلاق وزوجته من الشريط الحدودى ، بالتعاون مع أجهزة أمن حزب الله ، لمحاكمتهما فى بيروت. وكشفت لجنة المتابعة لدعم قضية المعتقلين اللبنانيين فى سجون العدو ، أن قوات الاحتلال أقدمت على خطف واحتجاز المواطنين اللبنانيين الأربعة لمدة ستة أشهر ، فى أقبية وزنزانات منفردة فى سجن (أشمورت) ، حيث تعرضوا لأقسى أنواع التعذيب قبل انة تحيلهم السلطات إلى المحكمة . وقد استغرب محامى الدفاع (الصهيونى)، والمكلف من قبل هيئة المحكمة فى جلستها الأولى يوم ١٢ سبتمبر ١٩٩٦ ، محاكمة هؤلاء الشبان أمام المحاكم الإسرائيلية ، قائلاً : (إنه لأول مرة فى التاريخ ، تقدم دولة على محاكمة رعايا دولة أخرى ، بتهمة التعامل مع العدو ، بسبب تعاونهم مع دولتهم ، وعلى أرض هذه الدولة) وتساءل المحامى : (من هو العدو بالنسبة لهؤلاء المتهمين ؟ هل هى دولتهم التى يحملون جنسيتها ، ويعيشون على أرضها ، أم الدولة المعتدية التى احتلت جزءًا من أرضهم .. ؟ إن القضية إذن ليست قضية تجسس ، إنما هى قضية (رهائن) .

أحضانهم . فى عملية مخابراتية ذكية خارقة تحولت معها اسطورة الموساد المزعومة إلى أضحوكة يتندر بها العالم .

وعلى وجه السرعة جرت تحقيقات قادها خبراء أمنيون فى تل أبيب .. لاستكشاف ملابسات الضربة الخاطفة .. والثغرات الأمنية المهلهلة فى الوحدة ٥٠٤ التى استغلها رجال حزب الله .. وعما إذا كانت هناك اختراقات بين صفوفهم أدت إلى إنجاح العملية .. وكان ذلك هو شغلهم الشاغل ومصدر خوفهم .

أما فى بيروت .. فالفرحة كانت غامرة .. وتلقت قيادات حزب الله التهانى من داخل لبنان وخارجه. كذلك أمر الشيخ حسن نصر الله بكفالة طفلى أحمد الحلاق وحنان الياسين .. ورعايتهما تحت إشراف الحزب بإحدى دور الرعاية المنتشرة .. وخوفًا من أن يطول الأذى أسرتى العميلين أعلن الأمين العام أن ذلك ليس من تعاليم الإسلام .. فالأهل أبرياء من إثم الأبناء الذين جنحوا إلى الخيانة والتعامل مع الأعداء .

وفى التحقيق مع الحلاق وزوجته .. الذى كان منفردًا فى البداية .. حاول الحلاق المراوغة وادعاء الخبل لكن الأدلة التى ووجه بها أحكمت حوله جريمة التفجير . وأولى الأدلة الثبوتية كانت بصماته على جهاز التليفون بمحل البقالة .. وكذا رقم الهاتف الخاص بفؤاد مغنية الذى احتفظت به ذاكرة الجهاز .. أما البقال الذى سبق أن تعرف على صورة الحلاق فى حينه، فقد تعرف عليه فى العرض القانونى، وشهد بأنه كان يحمل جريدة منتفخة عبث بمحتوياتها لحظة الانفجار.

أخيرًا .. انهار أحمد الحلاق وراح فى نوبة تشنج هستيرية بعدما أطلعوه على صور الجثث المتقطعة التى خلفها الانفجار .. وصور المصابين الذين فقد بعضهم أطرافهم .. وكان من بينهم طفلة فى السابعة من عمرها فشلت الجراحات فى ربط ساقها المبتورة .

وتوالت اعترافات أحمد الحلاق المذهلة . التى أدهشت المحققين معه . فالصور البشعة التى أطلعوه عليها زلزلته من الأعماق .. وكسرت إرادته ..

وحركت فيه ضمير الإنسان الذى مات بداخله منذ زمن فاعترف بأنه عميل للموساد .. ولأجل المال والثراء باع ضميره ونفسه وأهله ووطنه . وأن زوجته شركيته فى التجسس وذراعه الأيمن .. حيث قاده حبها الأعمى بلا تردد إلى مصيره المحتوم.

وعلى مدار عدة أيام من الاستجواب .. تفجرت مفاجآت عجيبة، إذ اعترف الحلاق بعمليات خطيرة لم يسأله عنها فى البداية .. إنما جاءت وليدة ترابط الاحداث وتسلسلها.

حب فى الزنزانة

وجاءت اعترافات عميلة الموساد حنان الياسين سهلة بدون مواربة .. فبالرغم من حالة الانهيار التى أصابتها كانت ما تزال تحتفظ بوجهها البرئ الجميل الساحر، ودقة اختيارها للألفاظ بعناية شديدة ..

ففى البداية أكدت أن زوجها برئ وأنها هى التى تصيدته وأوقعته فى حبها بغية استقطابه .. ساعية بإرادتها إلى ذلك حتى استحوذت على عقله ومشاعره .. لكنها أحبته غصبًا عنها دون أن تقصد .. فأشفقت عليه طريق الخيانة والجاسوسية وصارحته فى لحظة حب ملتهبة بحقيقة اتصالها بالموساد.. لكنها فوجئت به لا يهتم بل ازداد تمسكًا بها على عكس ما كانت متوقعًا .. فانقادت فى الطريق دون أن تفكر أو تتوقع عواقبه إلى أن صارحها برغبته فى الزواج منها . والانتقال للعيش معًا فى بيروت، لكن الرائد رجاء ورد رفض تلك الخطوة بل وفكرة الزواج من أصله .. مبررة السبب فى ذلك بأنه كان يريدها إلى جواره .. فقد سبق أن استغلها جنسيًا فى بداية عملها معه .. وانتهكها العديد من رجاله فى الوحدة (٥٠٤) لأيام طويلة أثناء الدورات التدريبية وبعدها ، حيث كان يقصد من ذلك رضوخها التام .. واستسهالها منح جسدها لأى شخص بدون تفكير أو تذمر ، لاستغلال الجنس فى عمليات التجسس وجلب المعلومات والأخبار.

أيضًا اعترفت عميلة الموساد بأنها حملت من رجاء ورد ومن رجاله

وأجهضت ثلاث مـرات قبلمـا تتعـرف بـالحلاق، مؤكـدة بـأن ورد كـان ينـوى إعدامهما فى المعتقل بالخيام لو لم يتدخل النقيب رينيه البياضى لإنقاذهما.

وقـالت ايضًا بأنـها كـانت تشـارك زوجـها فـى التخطيـط للعمليـات ، وأن زوجها كان لا يعلم بأمر ممارستها الجنسية التى كانت تتم بدون علمه .. حيث ألحت كثيرًا فى ألا يعلم حتى تحتفظ بصورتها الجميلة لديه .

لم تكن اعترافات حنان الياسين وزوجها وليدة إكراه. إذ أن الصور التى سبق عرضها على أحمد الحلاق كان لها فعل السحر فى الضغط علـى أعصابـها هـى الأخرى .. خاصة صورة الطفلة الصغيرة المبتورة الساق .. كـل مـا طلبتـه حنـان من أجل أن تعـترف بكـل شـئ هـو وعـد مـن السـلطات بتـأمين حيـاة طفليـها وتعليمهما فى المدارس والجامعات .. وبعدما وعدها المحققون بما طلبت أفاضت تفصيليًا باعترافاتها وبالتكليفات التى قامت بها ولم تكن أبدا تكذب أو تراوغ.. لكنها أرجعت أسباب خيانتها إلى الضغوط الزائدة التى كان يمارسها رجـاء ورد لكونـها أجنبيـة الجـذور .. وإلى تهديداتـه المسـتمرة بـالتنكيل باسـرتها .. ثـم تهديداته بعد ذلك بشرائط الجنس التى ما يزال يحتفظ بها فى خزانة مكتبه .. وكذا الإقرارات لتى أجبرها على التوقيع عليها .

وفى الوقت الذى كان فيـه زوجـها يدافـع عـن نفسـه متـهمًا زوجتـه بأنـها السبب فى جره إلى الموساد .. كانت حنان تبرئه وتدين نفسـها .. وتلقـى علـى عاتقها مسئولية كل العمليات الخسيسة التى نفذت ضد حزب الله.

إنه تناقض عجيـب وأمـر يدعـو إلى الدهشـة .. فـالحب بـين أفعـوان وحيـة كالحلاق وزوجته .. هو ذات الحب الذى يعرفه بقية البشـر علـى اختلافـهم .. الحب هو الحب .. مصدر السعادة .. أو رمز الشقاء كله .

انتهت اعترافات عميلى الموساد .. وفى الثلاثاء ١٩ مارس ١٩٩٦ مثـلا أمـام المحكمة العسكرية الدائمة فى بيروت .. وكانت برئاسـة العميـد الركـن الطيـار زيد حلاوى .. ومفوض الحكومة اللبنانية لدى المحكمة القاضى ميسـر شـكر .. وكانت هناك مفاجأة مذهلة فى جلسة المحاكمة العلنية الأولى .

الحكم بالإعدام

كانت أولى المفاجآت في الجلسة الأولى من المحاكمة .. أن محاميو لبنان لم يقبل واحد منهم الدفاع عن الجاسوسين لقذارة الجرم . فرفعت الجلسة ثم عادت إلى الانعقاد بعدما رأت عدالة المحكمة أن تنتدب المحامى أنطوان الهاشم كوكيل عن الحلاق وزوجته .

كانت عيون المجرمين تتفحص وجه الحضور بحثًا عن أسرتيهما .. لكن لا أحد ، بينهم سوى خالد الحلاق . فانزويا بين الحراس يبكيان ويواسيان بعضهما في أسى .. ولم يعلق صحفي واحد عن لحظة البكاء تلك .. أكان بكاء الندم ؟ أم الخزلان والتناسي من الأهل والأصدقاء ؟ لا أحد يعلم ما كان بداخلهما لحظتئذ .

حنان الياسين ايضًا تناساها أهلها . وحرمت من رؤية طفليها الصغيرين .. حتى زوجها .. لم تعد تجمعها به سوى جلسات المحاكمة .. والقفص الحديدى والحراس الذين يباعدون بينهما ولا يسمحان ليهما بالحديث معًا .. فكل منهما يجلس فى ناحية يأكلهما الصدأ .. وينبش جسديهما معول الفراق .. الطويل .. كانت أدلة الاتهام ثابتة أمام هيئة المحكمة وممثل الادعاء .. واعترافهما بالعمل لصالح الموساد كان مؤكدًا لا شك فيه .. ومحاميهما أنطوان الهاشم أملى عليه ضميره أن يدافع عنهما قدر استطاعته .. ملتمسًا من عدالة المحكمة الرحمة .. تلك هى مهنته الرائعة فى نصرة المظلوم .. والتماس الرأفة للمجرمين .

وفى منتصف يونيو ١٩٩٦ .. كانت جلسة النطق بالحكم .. حيث بدا الحلاق شاردًا خائرًا .. وكانت حنان التى سترت شعرها ترفع يدها بين فينة وفينة .. لتمسح دموعها المدرارة .. وتتفحص الوجوه فى فزع وانكسار .. تتلمس من بينها وجها تعرفه .. أو تلمح نظرة شفقة تنطلق إليها عبر القضبان ..

دخلت هيئة المحكمة .. واحتبست الأنفاس . وتعلقت الأنظار بشفتى رئيس المحكمة زيد حلاوى وهو يتلو منطوق الحكم التاريخى .. الذى يقضى بإعدام جاسوس الموساد أحمد الحلاق رميًا بالرصاص .. وبالأشغال الشاقة خمسة عشر عاما لزوجته

لحظتها . صفق الحضور لعدالة المحكمة .. وسقط الحلاق مغشيا عليه . بينما صرخت حنان الياسين وظلت تصرخ حتى والحرس يجرونها إلى خارج القاعة منادية على زوجها الغائب عن الوعى:

- أحمد .. أحمد .. أنا المجرمة .. أنا المجرمة .. ! !

أخذ الحلاق إلى السجن (رومية) الشهير .. وكانت تلك آخر مرة يلتقى فيها وزوجته وجهًا لوجه إذ توالت المفاجآت بعد ذلك .. وتسارعت الأحداث لتضع نهاية الخيانة والجاسوسية والغدر .. ونهاية قصة حب بين اثنين اتفاقا على الإجرام .

رصاصة الرحمة

أحيل ملف القضية إلى محكمة التمييز العسكرية العليا للتصديق على الحكم .. وفى يوم الأربعاء ٢٤ يوليو ١٩٩٦ تم التصديق عليه بما يعنى انه حكم نهائى لا يقبل الطعن أو النقض ..

وعلى ذلك أحيل الحكم طبقًا لنظام القضايا العسكرية فى لبنان إلى رئيس الجمهورية إلياس الهراوى للتصديق عليه. وكان هناك احتمال كبير ألا يعدم الحلاق .. فتاريخ لبنان لم يشهد حالة إعدام واحدة لأحد جواسيس الموساد من قبل .. لكن كانت هناك مخاوف ايضًا .. فالرئيس الهراوى سبق أن صدق على خمس إعدامات منذ توليه الحكم فى ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩ .. وهى إعدامات لأشخاص ارتكبوا جرائم قتل واغتصاب .. وكلها إعدامات بالشنق .

وفى يوم الأربعاء ١٨ سبتمبر ١٩٩٦ صدر المرسوم الجمهورى رقم ٩١٧١ الذى قضى بإعدام أحمد الحلاق بناء على حكم المحكمة العسكرية .. واستقبل الشارع اللبنانى النبأ بالابتهاج .. وتداول المسجونون الخبر فيما بينهم .. ثم وصل إلى مسامع الحلاق فطاش عقله .. وارتجت لصراخاته جدران السجن السميكة ..

ولما تقرر تنفيذ الإعدام صباح السبت ٢١ سبتمبر ..زاره مأمور السجن بزنزانته الانفرادية .. وأطلعه على منطوق الرئاسة وبأنهم على استعداد لتلبية طلباته فى

حدود القانون فسأله الحلاق عن ميعاد التنفيذ .. فأجابه المأمور العقيد فؤاد عثمان بأن ذلك لم يتحدد بعد ، ومرت لحظات صمت كان الحلاق أثناءها يرتجف ... ثم تمالك وطلب ورقة وقلما .. وكتب بحروف مرتعشة :

(إنني قد تبرأت من إسرائيل .. وجعلت أولادى أمانة فى أعناق المسلمين.. وإن كنت أخطأت فإني تبت إلى الله .. راجيا ان يعفو عنى .. وأطلب أن يبنجونى وألا يعصبوا عينى .. ولا يضعوا ورقة على صدرى مكتوبا عليها (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) .. وإنى أوصى أن أدفن فى أرض أهلى فى برجا . وأن يقيموا لى جنازة .. وأن يعرف العالم أن أحمد الحلاق ليس خائنًا .. وإنى أحب زوجتى فاطمة «حورية» وابنتى وهيبة وابنى هيثم .. وأحب زوجتى حنان وأتمنى أن يفرجوا عنها .. ويسمحوا لى برؤيتها وتقبيلها .. وأطلب من أمى أن ترضى عنى وكذلك والدى .. وأوصى شقيقى خالد وشفيق بالأولاد .. ولا أريد أن يضعوا أولادى فى دار الأيتام) .

فاستجيبت كل طلباته باستثناء إحضار زوجته حنان لكونها سجينة[1]

وفى يوم السبت ١٩٩٦/٩/٢١ .. تسجل المحضر التالى :

(فى السادسة إلا ربعًا فجر ١٩٩٦/٩/٢١ .. انتقل رئيس الدائرة القضائية فى المتن الشمالى القاضى سليم أسطا .. يرافقه رئيس القلم الأول لدى دائرة التنفيذ المنتدب سهيل عون .. إلى سجون رومية المركزى للوقوف على تنفيذ وصية أحمد الحلاق قبل إعدامه، وحضر تنفيذ الحكم رئيس المحكمة العسكرية الدائمة العميد الركن الطيار زيد حلاوى .. والقاضى ميسر شكر .. وقائد منطقة جبل لبنان العميد جورج حجار .. والشيخ أنس العلايلى المسئول فى قسم الأسلمة فى دار الفتوى .. والمحامى أنطوان الهاشم .. وآمر سجن رومية المركزى العقيد فؤاد عثمان .. وطبيب السجن خضر عساف ..

---

(١) جريدة الحياة – ٢٢ سبتمبر ١٩٩٦.

وكاتب الضبط المؤهل منصور الخورى ..

والتقى الحلاق قبل اعدامه بشقيقه خالد . وأولاده الأربعة .. وارتمت وهيبة على قدمى والدها .. ثم تلا الحلاق الشهادة .. وساعده الشيخ العلايلى على أن يتوضأ ..

ثم اقتيد الحلاق إلى عمود خشبى ، وعيناه غير معصوبتين .. وأركع هناك. وربطت يداه إلى العمود ..

ووسط طلبات منه بتخديره تلا القاضى ميسر شكر مرسوم إعدامه .. وقد أعطى حبوبًا مسكنة .. ثم نفذ عملية إطلاق النار (١٢) من عناصر قوى الأمن، واستكملها ضابط أطلق من مسدسه الميرى (رصاصة الرحمة) التى حتمت الموت .. ونقلت سيارة إسعاف جثة الحلاق إلى مستشفى ظهر الباشق الحكومى القريب من رومية . حيث تسلمها ذووه لدفنه فى قريته برجا).

الفصل الرابع

فى الأردن .. !!



« ابتليت الأردن بشبكات الجاسوسية التى عملت لصالح إسرائيل ، وبلغ أعضاء إحداها ٥٩ خائنًا سقطوا دفعة واحدة بعد قرابة ١٥ عامًا من الانغماس فى الخيانة .. واخترنا الرقيب فى الجيش الأردنى فوزى عبد الله كنموذج لأولئك الخونة الذين أعدموا رميًا بالرصاص ».

شبكة الحيحى وعبدالله

قبل غروب عام ١٩٦٢ بأيام قليلة ، كشفت أجـهزة الاستخبارات الأردنيـة عن شبكة جاسوسية من ٥٩ شخصًا ، كانت تعمل لصـالح إسـرائيل بدايـة مـن عام ١٩٤٨ ، حيث أمدت العدو الصهيونى بالأسرار بالغة السرية عن الأردن ، جيشًا ، واقتصاداً ، وتسليحًا ، مقابل المال .

وأظـهر التحقيـق أن المتـهمين ، الذيـن كـانوا جميعًـا مـن العـرب ، قـاموا بالاتصال بضباط إسرائيليين فى أماكن متعددة ، حيث تم تدريبـهم علـى فنـون التجسس وتلقط الأخبار ، واختير بعضهم للتدريب على أجهزة اللاسلكى والبث والاسـتقبال بالشـفرة ، وكـذا الكتابـة بالحـبر السـرى والتصويـر والطبوغرافيـا والتخفى والتمويه .

هؤلاء الـ ٥٩ خائنًا أردنيًا ، تلقوا مبالغ مالية ضخمة منـذ أول عـام ١٩٤٨ ، قبيـل إعـلان تأسـيس الدولـة الصهيونيـة فـى ١٥ مـايو ، لدرجـة أنـهم أكـدوا للإسرائيليين استحالة اشتراك الجيش الأردنى فـى الحـرب التـى أعقبـت قيـام إسرائيل ، وشاركت فيها قوات من بعض الدول العربية . لكن الملك الأردنـى[1] ، الذى وعد جولدا مائير بعدم دخوله الحرب ، عندما زارته وقتـها فـى عمـان ، تراجع عن وعده الذى قطعه خجلاً من موقفه أمام العرب، حيث اضطر إلى ذلك اضطرارًا .

كانت جولدا مائير[2] وقتها فى الخمسين تماما من عمرها ، شرهة الأطمـاع فى فلسطين ومسـاحات أخـرى مـن الـدول العربيـة المجـاورة، تنطلـق بسـرعة الصاروخ فىالعمل السياسى ساعية إلى تبوأ أعلى المناصب حساسية ، وهـذا مـا

---

(١) هو الملك عبدالله ، الذى اغتيل عند عتبة المسجد الأقصى فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٥١، بواسطة صبى فلسطينى اسمه مصطفى عُشو لقى مصرعه فى الحال فى إطلاق النار العشوائى مـن طـرف قـوات الجيـش العربى (مجلة الشاهد السياسى – عدد ٢٢ سبتمبر ١٩٩٦).

(٢) جولدا مائير Golda Meir (١٨٩٨–١٩٧٨)

تحقق لها عام ١٩٦٩ عندما تولت منصب رئيسة الوزراء في إسرائيل ، بالرغم مما أشيع عن سلوكها ، كامرأة شاذة جنسيًا داخل المجتمع السياسى الإسرائيلى ، ارتبطت بعلاقات مشبوهة مع سكرتيرتها الخاصة التى وجدت مقتولة على أطراف تل أبيب ذات يوم .

وعند محاكمة المتهمين الأردنيين فى شبكة الجاسوسية ، أدلى أحدهم باعترافات مثيرة عن جولدا مائير وطبائعها المنحلة ، وروى قصة مفادها أن مجندة إسرائيلية كانت على علاقة خاصة بالسياسية الإسرائيلية ، وأنها ضاقت بمطاردة جولدا مائير لها فاضطرت إلى طلب نقلها إلى إحدى الوحدات العسكرية البعيدة عن تل أبيب هربًا من الحيزبون الشوهاء ..

وذكر الجاسوس الخائن أن المجندة «زيلدا» ، وهى مهاجرة سوفيتية ايضًا ، ارتبطت به لعدة سنوات خلال عمله بالتجسس ، كان دائم الالتقاء بها فى الأرض المحتلة عندما كان يتسلل لتوصيل معلومات إلى اليهود ، حيث كانت تقضى معه مدة تواجده لـ «تسليته» مكافأة له على إخلاصه فى العمل لصالح إسرائيل.

وبعد محاكمة أعضاء الشبكة والحكم على غالبيتهم بالإعدام شنقًا ، جاء فى حيثيات الحكم أن هذه الشبكة كانت أخطر شبكة تجسسية عملت ضد الأردن والدول العربية الأخرى طوال ما يقرب من خمسة عشر عامًا .

لم يرتدع عملاء الأردن الآخرين أو يتخذوا مصير هؤلاء عبرة لهم ، فظل من يخون يمارس نشاطه ، وسقط غيرهم فى جب الجاسوسية بحثًا عن المال والثراء، أو رغبة فى امتلاك جسد أنثى يهودية حسناء .

وفى شهر إبريل ١٩٦٦ ألقت السلطات الأردنية القبض على الجاسوسين ياسين محمد سليمان الحيحى ، وهو من أهالى قاقون ويقيم فى طولكرم ، ورفيقه فى الخيانة فوزى محمود عبد الله من عنتبا التابعة لطولكرم أيضًا .

كان ياسين الحيحى قد تم تجنيده بإغراءات المال، من أجل إمداد إسرائيل بمعلومات وافية عن الجيش الأردنى وتحركات قواته ، ومعنويات جنوده فى

حالة نشوب حرب عربية ضد إسرائيل . لقد تم تدريب الحيحى تدريبًا فنيًا عاليًا فى الأرض المحتلة ، وحصل على دورات فنية لزيادة مهاراته والارتفاع بمستواه المهنى . وبواسطته تم تجنيد شريكه فوزى عبد الله نظرا لإطلاعه على ظروفه المعيشية والمادية .

اختيار الخونة

استغل الحيحى معاناة الرقيب فى الجيش الأردنى فوزى عبد الله وأمده ببعض المال ، بعدما درس كافة الظروف المحيطة به مختبرًا وطنيته بوسائل شتى ، إلى أن اطمأن لخلو باله من مثل هذه المسميات ، وكذا انعدام الضمير لديه مما يوفر الكثير من الوقت لاستقطابه ومفاتحته .

وكتب الحيحى فى تقريره لقادته عن المجند فوزى عبد الله :

(قروى ذكى ، نهم للطعام والمال والنساء .. لا ضمير لديه قد يؤرقه يومًا .. لكنه يبحث فى الغالب عن مطالبه المادية بتهريب بعض سلع الجيش وبيعها للبدو .. وعرض علىّ شخصيًا أن يبيعنى مسدسًا إنجليزى الصنع مقابل مبلغ زهيد لشراء المخدرات.

لقد التقيته مرات ومرات .. وقذفت له مرة ببعض المال لأتكشف دواخله .. وأكاد أجزم بأنه استغلالى أفّاق بلا وازع دينى أو طنى .. مما يسهل عملية استدراجه لإمدادنا بالأخبار العسكرية من داخل الجيش .. فلديه القدرة على الوصول إلى أحشاء القوات المسلحة الأردنية وأسرارها يومًا وراء يوم . وحبذا لو قذفت إليه إلى جانب النقود بعض الخمور المستوردة ، تلك التى يسعى إليها مهما كلفه الأمر . وأقترح أن تكون مفاتحته فى ظل ظروف مالية شحيحة، طبقًا للوسيلة التى ترونها مناسبة وفعالة لاصطياده.)[1]

وبعد هذا التحليل الوافى المتكامل لظروف المجند الأردنى وطبائعه وأخلاقه، استدرج رويدًا رويدًا إلى الفخ حتى سقط فيه عن آخره ، وتحول إلى جاسوس خائن

---

(١) هذا التقرير يوضح مدى خبرة عميل الموساد فى التنقيب عن الخونة الذين يسهل اصطيادهم من خلال ظروفهم الحياتية المتعسرة.

يعمل لصالح الإسرائيليين الذين أغدقوا عليه بالمال ، وسهلوا له الدخول إلى الأراضى المحتلة أثناء أجازاته ، للتدريب ، وللالتقاء بالفتاة الإسرائيلية التى خصصوها له طوال فترة الزيارة السرية ، سواء أكان بمفرده أم برفقة شريكه وأستاذه ياسين الحيحى.

دأب فوزى محمود على تنفيذ التكليفات التىأوكلت إليه ، بالبحث عن أسرار الجيش الأردنى ، وكتابة تقارير وافية عن الضباط الكبار فيما يتصل بعناوينهم وأسرهم وسلوكهم ، وكذا عن الطيارين الأردنيين ومدى استجابتهم للتدريبات الجوية الحديثة .

كما عمل جاسوس الموساد على سرقة العديد من الوثائق والخرائط والتقارير الهامة عن قوات الجيش ومخازنه التسليحية والاستراتيجية ، والذهاب بها إلى الأرض المحتلة من نقطة ما دون أن يلاحظ رقيب ، أو يشك أحد فى تحركاته . وفى أحيان كثيرة كان يسلم ما لديه من مستندات وتقارير وصور إلى شريكه الحيحى، وقد يتلقى منه أوامر وتكليفات جاءته من إسرائيل ويقوم بشرحها له.

هكذا واصل الجاسوسان العمل ضد الأردن منذ عام ١٩٦٢ ، حتى جاء شهر إبريل عام ١٩٦٦ عندما تم رصد أحد المتسللين القادمين من الأراضى المحتلة . وفى غبش الليل ألقى القبض عليه فجأة، فانتابه الهلع الشديد وأخذ يهذى بتبريرات ساذجة لسبب وجوده بالقرب من منطقة عسكرية محظورة ، وعندما سئل عن اسمه أجاب :

– ياسين محمد ياسين سليمان الحيحى، من أهالى قاقون أصلاً ويقيم بمخيم طولكرم للاجئين .

وبتفتيشه ، عثر بين طيات ملابسه على جيب سرى به رسالة تكليف موجهة إلى شريكه فوزى عبد الله ، تطلب معلومات استراتيجية عن إحدى القواعد العسكرية الأردنية ، إضافة إلى مبلغ مائة وثمانون دينارًا أردنيًا من مستحقاته المالية المخصصة .

السقوط الأخير

كان الحيحى يرتجف فى هلع أمام المحقق ، إلا أنـه أبـدى تجاوبًـا كبـيرًا وهو يدلى باعترافات تفصيلية مثـيرة تندفـع كالشـلال بـلا توقـف ، فقـد وعـده المحقق بألا تضار أسرته التى لا ذنب لها من جراء خيانته.

وعند اقتحام منزل شريكه الرقيب فوزى عثر على أدلـة تجسسـه ، وكـانت عبارة عن كاميرا ذات مواصفات خاصة ، إضافة إلى بعض الوثائق العسكرية التى كانت معدة لإرسالها إلى العدو .

اعترف الجاسوسان بخيانتهما واتصالهما بالأجهزة الأمنيـة الإسـرائيلية منـذ عام ١٩٦٢ ، وأنهما دأبا على تزويدها بشتى المعلومات العسـكرية التـى كـانت تطلبها مقابل مبالغ ماليـة كبـيرة. وأكـد الرقيـب فـوزى أنـه تلقـى عـام ١٩٦٢ تدريبات خاصة فى إسـرائيل ، وتدريبـات أخـرى خـلال عـام ١٩٦٥ ، وكـان الغرض من ذلك هو إفهامه وسـائل التجسـس الحديثـة ، وطـرق الرصـد وجمـع المعلومات من مصادرها.

أكد فوزى ايضًا أن شريكه كان يستغله ماديًا إلى أقصى درجة ، حيـث كـان ينتهز فرصة انشغاله كمجند فى الجيش ، ويحصل على الوثائق التـى بحوزتـه فيوصلها إلى الأرض المحتلة لقاء مبـالغ كانـا يتقاسمانـها ، معتمـدًا علـى شـدة حاجته إلى المال.

ومن ضمن ما قاله فوزى ، إن فتاته الإسرائيلية التـى كـانت تلازمـه خـلال مدة زيارته ، كانت موظفة فى وزارة الدفاع الإسرائيلية حسبما أكدت لـه ، ولم تكن مهمتها العمل فقط على راحته ، بل حثه على بذل كل ما بوسعه من أجل أمن إسرائيل .

وأمام محكمة أمن الدولة العليا فى عمـان، لم ينكـر الجاسوسـان الاتـهامات التى وجهت إليهما، واستنادًا لأحكام المادة ١٢٦ وبدلالة المادة ١٢٤ من قـانون العقوبات لسنة ١٩٦٠ ، حكم على الرقيب فـوزى بـالإعدام رميًـا بالرصـاص ، وعلى ياسين الحيحى بالإعدام شنقًا .

وبتاريخ ١١ يناير ١٩٦٨، صدرت الإرادة الملكية بالموافقة على قرار مجلس الوزراء القاضى بتصديق عقوبة الإعدام بحق ياسين الحيحى .

وفى يوم الخميس ١٨ يناير ١٩٦٨ اقتيد الحيحى إلى حجرة الإعدام وهو يصرخ نادمًا آسفًا على ما اقترفت يداه .

اما الرقيب فوزى .. فقد أعدم ايضًا فى ذات اليوم ، لكن رميًا بالرصاص فى إحد المواقع العسكرية المخصصة لهذا الغرض .

هذا وقد تردد أن الخائن عندما تم اصطحابه إلى ساحة الإعدام كان فى حالة من الذهول، بحيث عجز عن الكلام تمامًا وتوقف لسانه عن النطق ، وعندما تليت عليه حيثيات الحكم بإعدامه رميًا بالرصاص وسئل عما يريد قبل إعدامه، طلب أربعة طلبات تم الموافقة عليها فى الحال ، لأنها لن تؤدى بأى حال إلى تأخير التنفيذ . فقد طلب أن يفكوا قيوده ليتوضأ ويصلى ، وطلب أيضًا فنجانًا من القهوة وسيجارة ، ومصحفًا .

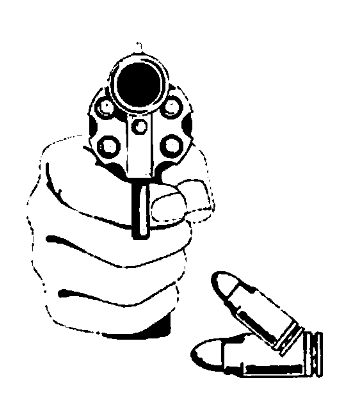
توضأ فوزى وضوء الخائف ، ولما فشل فى تأدية الصلاة ساعده رجل الدين المتواجد بأن صلى إمامًا داعيًا الله أن يقبل توبته . بعد ذلك تناول المصحف وعجز عن قراءة آية واحدة ، ذلك لأنه كان يبكى بشدة وفى حالة من الاضطراب أفقدته التركيز . ثم تناول فنجان القهوة بيد مرتعشة وسحب أنفاسًا متسارعة من سيجارته . وكان فى أثناء ذلك يرتجف ارتجافًا شديدًا أعجزه عن التماسك برغم أن هناك جنديان كانا خلفه يمسكان به من تحت إبطيه ليحولا دون سقوطه أرضًا.

وعندما اقترب من عمود التنفيذ ورأى جنديا يمسك بالكيس الأسود .. تعالى صوته بالنحيب الذى كان يشبه عويل كلب فى الخلاء .. وانتفض سائر جسده فى ارتجاف أشد أثرًا، فألبس الكيس الأسود وربط إلى العمود وهو يردد كلمات غير مفهومة.

وعندما انطلقت رصاصات البنادق كان ما يزال يرتجف .. فاقترب منه قائد فريق الإعدام بيده مسدسه المحشو ، وأطلق رصاصة الرحمة على رأسه ، فهمد مكانه .

الفصل الخامس

في سوريا ..



« كان هادئًا مستسلمًا لمصيره .. فلم يطلب شايًا أو سيجارة كما هو معهود دائمًا في حالات الإعدام. وقبل أن يلبس الكيس الأسود ، طلب من قائد فريق التنفيذ أن يسارع بإطلاق رصاصة الرحمة على رأسه، حتى لا يشعر بالألم لوقت طويل .. !! »

أبو صالحة .. الجاسوس الشارد .

في ١٢ أكتوبر عام ١٩٥٤ ، اعتقلت قوات الأمن السورية أربعة متسللين إسرائيليين، تبين أنهم ضباط في جهاز الاستخبارات العسكرية (أمان) وهم :

- مائير موزس ، قائد المجموعة .
- أوري إيلان .
- جاد كاستلانتس .
- مائير يعقوبي .

وجميعهم خبراء في الإشارة وكان الثاني ابن شقيقة زوجة رئيس إسرائيل[1] ، حيث تبين أنهم تسللوا إلى الأراضي السورية لإصلاح جهاز لاسلكي مرسل معطل، كان قد تم زرعه أسفل عمود تليفون تصل أسلاكه ما بين القيادة العامة في القنيطرة ودمشق ، وبين الوحدات العسكرية على طول الحدود السورية الإسرائيلية .

كانت مهمة الجهاز التقاط المكالمات الهاتفية بين القيادة السورية ووحداتها المقاتلة ، وبثها لاسلكيًا إلى إسرائيل . وبهذه الطريقة المبتكرة أصبح بإمكان المخابرات العسكرية الإسرائيلية، أن تطلع على جميع الأوامر والتعليمات والمعلومات المتعلقة بالجيش السوري، وتقارير الوحدات الأمامية ووضعها القتالي بشكل فوري ودائم . كما أن الجهاز يستطيع أن يقطع خط الهاتف العسكري، وتمرير أوامر عسكرية مزورة إلى القطاعات السورية تم طبخها في إسرائيل .

تبين للمحقق السوري أن هذا الجهاز الإلكتروني الحديث ليس الوحيد من نوعه ، وأن إسرائيل تستخدم مثله في أماكن أخرى للتجسس على خطوط هواتف الجيوش العربية ، وأنها تستخدم هذا الأسلوب الحديث في فن التجسس منذ عدة سنوات .

تبين أيضًا أن هؤلاء الخبراء الأربعة جاءوا إلى سوريا لإصلاح الجهاز الذي أصابه عطل فني مفاجئ ، وأنه موضوع داخل صندوق محكم الإغلاق ، في

---

(١) اسحق بن زفي (١٨٨٤ - ١٩٦٣)، الرئيس الثاني لإسرائيل (١٩٥٢ - ١٩٦٢) ومؤسس وزعيم الاشتراكية الصهيونية. كان الرئيس الأول لإسرائيل هو الدكتور حاييم فايتسمان الذي مات سنة ١٩٥٢، أما الرئيس الثالث فهو سلمان شازار الذي خلف بن زفي حتى سنة ١٩٦٤.

أسفله جهاز تفجير ذاتي بغرض تفجير الجهاز إذا ما عبث به شخص غريب وذلك لمنع اكتشاف سره[1] .

ومنذ عثرت القوات السورية على الجهاز في أراضي قرية «عين غيث»، على بعد سبعة عشر كيلومترًا في عمق الأراضي السورية ، لم تكف إسرائيل عن السعي لاستكشاف نوايا السوريين ، وتطور تسليح الجيش وإمداداته ومخازن مؤنه وذخيرته ، ومواقعه الاستراتيجية ، مع تكثيف البحث عن الخونة الذين يقبلوا بالعمل ضد وطنهم . وكان أحد هؤلاء مجند سوري طماع اسمه حسين أبو صالحة..

كانت أزمته المالية مستحكمة مرهقة ، بينما كانت أزمته العاطفية تكاد تقوده إلى الجنون. فالبيت القديم الذي كانت تمتلكه الأسرة كان بحالة سيئة ويتطلب ترميمًا مكلفًا ، في حين أخبرته فتاته أن شخصًا تقدم لخطبتها وأن والدها أوشك على اتخاذ قرار بالموافقة .

جر حسين أبو صالحة ساقيه جرًا ، ليجد نفسه في النهاية جالسًا بأحد اركان المقهى الكبير في دمشق ، يلعن ظروفه ، ويزفر محتدًا في أسى. لا يدري إلى أين تقوده الأقدار ، وتطويه طيًا بين الحقيقة التي لابد من قبولها .

لقد حرمته قسوة الحياة بقريته القريبة من دمشق من إكمال مشوار تعليمه الإعدادي ، فألحقه أحد الأقارب بوزارة الصحة حيث عمل إداريًا بوحدة علاجية بالقرب من قريته المتاخمة لـ «دوما». - إحدى ضواحي دمشق - لكن راتبه الضئيل لم يكن مقنعًا له ليحقق طموحاته وأحلامه التي كان ينسجها ليل نهار في خياله .

وبينما هو في شروده على المقهى ، وكان يتردى اللباس العسكري كجندي ، كانت هناك عينان تحاصرانه وتراقبانه . سرعان ما تحرك صاحبهما إلى حيث يجلس حسين أبو صالحة وسأله:

- هل أنت «نبيل السعدي» القادم من السويداء .. ؟

---

(١) تفاصيل الحادث نشرت بجريدة اللواء العربي الأربعاء ١٢ يناير ١٩٩٩ ، ضمن حلقات (المخابرات والجاسوسية في القرن العشرين) التي كتبها المؤلف ، وجاءت قصة موضوعنا تحت عنوان : (رحلة الموت والجنون لإصلاح اللاسلكي المدفون في سوريا). كما جاءت القصة أيضًا بكتاب : (موسوعة أشهر المنتحرين) للمؤلف مع آخرين .

انتبه الجندى وأجابه :

- لا .. لست من السويداء .. لكن .. لماذا تسأل .. ؟

أجابه :

- لى قريب بالجيش أخبرنى بأنه سيرسل اليوم شخصا من طرفه لمقابلتى هنا ، واسم هذا الشخص هو «نبيل السعدى» .

عندئذ فهم حسين حقيقة الأمر .. وجلس والرجل الغريب الغامض يتجاذبان الأحاديث المختلفة .. بعضها عن تطورات الساعة والأحوال السياسية فى دمشق، وبعضها الآخر عن المشاريع التجارية الحديثة التى ظهرت على الساحة فى سوريا.

اقتلنى بسرعة

لم يعرف الجندى السورى عن الرجل الذى يجالسه سوى أنه تاجر ملبوسات من اللاذقية، جاء إلى دمشق لعقد صفقة كبيرة يخطط لها منذ زمن طويل.

ونظرًا لأن الجندى البائس كان يفكر طوال الوقت فى ظروفه المادية القاسية، فقد استهواه الحديث عن المال والتجارة والصفقات . وفوجئ بجليسه يطلب منه مساعدته فى البحث عن مكان متميز يصلح لأن يكون معرضًا للملبوسات، مقابل عمولة مادية مجزية واتفقا على اللقاء خلال يومين لمشاهدة الموقع .

أجهد حسين أبو صالحة نفسه بحثًا عن المكان المثالى بين شوارع دمشق التجارية وأسواقها .. حتى عثر أخيرًا على ضالته فسارع إلى المقهى ممنيًا نفسه بمكافأة سخية مقابل إخلاصه فى مساعدة التاجر الذى لا يعرف عنه سوى اسمه الأول فقط : أبو رافع .

أنقده «أبو رافع» بضع مئات من الليرات جزاء خدماته ، على وعد بأن يمنحه مكافأة ضخمة ، إذا ما أمده بالمعلومات الجديدة الهامة التى يريدها ، قائلاً له :

- إن رأس المال جبان يا أخى ، وأخشى أن أنفق الكثير من مالى على

المشروع الذى اريدك معى فيه ، ثم تقوم الحرب فجأة بين سوريا وإسرائيل . لذلك يجب علىّ أن أطمئن ، من خلالك كعسكرى، على أن الأمور العسكرية على الجبهة لا تبشر بحرب قريبة تفقدنى ثروتى.

مستغربًا سأله :

– وما علاقة الحرب بالمشروع .. ؟ إننى لا أكاد أفهم شيئًا .

أجابه بخبث :

– كيف تنفى وجود علاقة بين الحرب والتجارة . ؟ إن التجارة تتأثر بالحرب ، وقد يحدث الكساد الذى يخرب بيوت التجار ويدفعهم إلى إشهار إفلاسهم . إننى فقط أريد أن أطمئن بالى ، على أن تكون صادقًا فى نقل الوقائع والمعلومات التى سأخضعها للتحليل الدقيق ، ومن ثم أستطيع اتخاذ القرار الصائب . ولا تنسى أيضًا أنك سوف تدير المشروع معى فى الفترة المسائية بعد انتهاء تجنيدك ، وعندها ستحصل على راتب ضخم يفوق راتبك من وزارة الصحة عدة مرات.

اقتنع حسين أبو صالحة بمنطق الرجل ، وسأله :

– إننى بحاجة لمعرفة نوع المعلومات التى تريدها بالضبط حتى أتدبر كيف يمكننى الحصول عليها.

قال الرجل وقد تهلل وجهه :

– بما أن وحدتك العسكرية كما قلت لى تقع غرب القنيطرة ، أى على الجبهة مباشرة مع إسرائيل ، فبإمكانك إذن معرفة نقاط التمركز ومخازن المؤن والذخيرة .

سأل متعجبًا :

– لا زلت لا أفهم ، لكننى رهن أمرك طالما ستكافئنى ، فأنا صراحة بحاجة إلى المال لتسوية أمورى الحياتية .

افترقا على وعد باللقاء بعد شهر تقريبًا ، وفى وحدته العسكرية ، وكان

ذلك فى عام ١٩٥٨ ، سعى حسين أبو صالحة ، بصفته مراسلاً لقائد كتيبة مدفعية، للحصول على كل ما يستطيع الحصول عليه من وثائق عسكرية ومستندات، وبعدما جمع أكبر قدر منها طلب من قائده السماح له بأجازة لمدة ثلاثة أيام . لكن المخابرات العسكرية التى شكّت بأمره فأخضعته للمراقبة، ألقت القبض على الجاسوس الخائن بعدما غادر القنيطرة عند نقطة « خان أرنبة » ، وعثر حول جسده على لفائف الوثائق المخبأة بمهارة ، فاعترف بالحقيقة دون ضغط أو إكراه .

وبعد محاولات عديدة لضبطه، لم يظهر العميل الغامض فى المقهى بدمشق وكأنما الأرض قد انشقت وابتلعته .

وبالرغم من ذلك حوكم الخائن السورى بناءاً على مواجهته بالأدلة التى ضبطت بحوزته، واعترافه التفصيلى شفهياً وبخط يده بأنه استولى على المستندات العسكرية والخرائط لبيعها لشخص مجهول من أجل المال. فأدين بالإعدام رميًا بالرصاص .

وفى نوفمبر ١٩٥٨ اقتيد إلى ساحة التنفيذ ، وكان يتلفت حوله ربما يلمح أحد أفرد عائلته ، لكن بلا فائدة . فأسرته تبرأت منه ، وتزوجت حبيبته ، وضاع مستقبله هدرًا بسبب الطمع والخيانة.

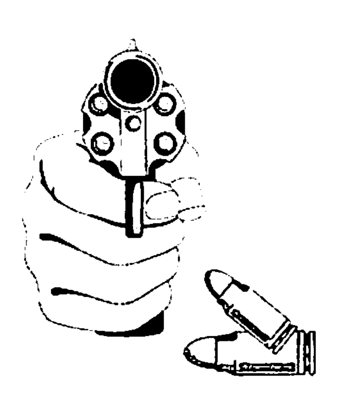
كان هادئًا مستسلمًا لمصيره .. فلم يطلب شايًا أو سيجارة كما هو معهود دائمًا فى مثل حالات الإعدام . وقبل أن يلبسوه الكيس الأسود تمهيدًا لإعدامه، نظر إلى قائد فريق التنفيذ وخاطبه :

– سيدى القائد .. أعلم انك ستطلق على رأسى رصاصة الرحمة .. وكل ما أطلبه منك هو الإسراع فى قتلى حتى لا أشعر بالألم لوقت طويل .

ثم نظر إلى الجندى المكلف طالبًا منه أن يلبسه الكيس . وبقى الجاسوس ساكنًا لا يتحرك فى مكانه ، فقط صرخ عندما سحب أفراد الفريق أجزاء بنادقهم ، لكن أصوات طلقات الرصاص غطت على صوته ، فلم يتكهن أحد بما قاله فى اللحظات الأخيرة .. ! !

الفصل السادس

فى فرنسا .. !



« عندما أطلق قائد فريق التنفيذ رصاصة الرحمة على رأسها ، غطى الدم المتخثر شعرها الحريرى الذهبى الطويل .. الذى كان ذات يوم تاج جمالها .. ودثار عشاقها الذى تفوح منه أطايب الأنوثة الفتاكة الطاغية .. !! »

ماتا هارى .. أسطورة التجسس الجنسى..!!

لعلها أول جاسوسة فى العالم انتهت حياها بالإعدام رميًا بالرصاص .. لكن المؤكد أنها أول جاسوسة كانت نهاية ابنتها الوحيدة كنهايتها .. رميًا بالرصاص أيضًا .

إنها «ماتا هارى» .. اشهر جاسوسة أوربية خلال الحرب العالمية الأولى .. ولدت هولندية باسم «مرجريت جيرتراود تسيليه» .. وتزوجت من ضابط ينحدر من أصل اسكتلندى عاشت معه فى إندونيسيا ، ومارست تجارة التجسس الجنسى فى برلين وباريس ومدريد ، حتى اعتقلت فى لندن ، وأعدمت فى باريس . وبذلك شكلت حياتها المثيرة منظومة متعددة الجوانب فاقت حدود الوصف ، مما دعا إلى انتاج فيلم سينمائى عنها فى هوليود .

على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من لاهاى ، ولدت «مرجريت» فى مدينة دلفت Delft ، التى تعد من أكثر مناطق هولندا جمالاً وسحرًا ، حيث تشتهر ببوابتها الشرقية العريقة التى يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ، وبقنواتها وجسورها وبيوتها المبنية على النمط الأوربى التقليدى ، وشهرتها العالمية فى صناعة الفخار المعروفة باسم «دلفت بلو».

لم تكن مرجريت تسيليه تهتم كثيرا بالتعليم قدر اهتمامها بجمالها الأخاذ ، لذلك فقد ارتبطت بعلاقات خاصة بعيدة عن علاقات الحب ، مما أكسبها خبرة عالية فى التعامل مع الرجال وإخضاعهم لرغباتها . وعندما تقدم إليها ضابط هولندى يدعى «زيل ماكلويد» عاملته بجفاء شديد .. لكنها تحت الضغوط الأسرية وافقت على الزواج منه ، فانتقم لكرامته منها بعد الزواج وانتقالها للإقامة معه فى أمستردام Amesterdam ، حيث دأب على ضربها بقسوة ، وكان ينقلب إلى وحش كاسر غالبًا ما يترك آثار ضربه وتعذيبه على جسدها ، حتى أنه ذات يوم كبلها بالحبال وأخذ يضربها بلا رحمة لمدة سبع ساعات ، مذكرًا إياها ببعض مواقفها منه قبل الزواج .

سنوات وسنوات ومعاملة الزوج القاسية لا تتغير ، إن لم يكن هناك ضرب مبرح فهناك إهانة ليس لها من حدود . وظنت أن بانتقالها مع زوجها إلى جزيرة جاوه ، حيث يعمل كضابط مستعمرات ، ستتغير معاملته لها ، لكنه ازداد توحشًا وعنفًا ، بالرغم من إنجابهما الطفلة «مارى لويز» التى اشتهرت باسم «باندا ماكلويد» ، أى «زهرة عباد الشمس» ، فهربت منه ، واضطرت لكى تنفق على نفسها على احتراف الرقص الوطنى ، اعتماداً على موهبتها السابقة كراقصة مقدسة فى معبد هندى، حتى أنها ابتكرت لنفسها رقصات مثيرة ، وأطلقت على نفسها اسمًا من أسماء بنات الملايو وهو : «ماتا هارى».. أى : « عين الصباح» .

اشتهرت ماتا هارى فى بلاد الملايو شهرة طاغية كراقصة غاية فى الجمال والأنوثة وكان سر جمالها فى عينيها وذراعيها، ووجهها الذى يضج بالشهوة. ولأنها كانت تدرك ما فى جسدها من قسمات مثيرة، أبرزته للناس فى رداء يتألف من دائرتين وريشة فقط.

كما لونت جسدها شمس جاوة الحارة وصبغته مما ضاعف من إظهار فتنتها، وزادها شهرة كما يقول «برنارد نيومان» أنها لم تكن تصد أحدًا من المعجبين ، طالما كانوا أغنياء.واما ذهبت إلى برلين، كان أول أسير وقع فى غرامها هو «ولى العهد» الذى اصطحبها لتشهد معه المناورات فى «سيليزيا» وكان القائد العسكرى «فون ياجو» من عشاقها الذين يجهرون بحبها، كذلك الدوق «أوف برنسويك» وسافرت إلى فيينا تعرض رقصاتها ثم إلى روما ومدريد ولندن بعد ذلك. ومن ثم فإنها سرعان ما أصبحت شعلة الإثارة فى عواصم أوربا الغربية ، وكان يتبعها أينما ذهبت موكب من العشاق والمعجبين يشمل رجالاً من أرقى الأوساط والمناصب ، بينهم العديد من كبار ضباط الجيش الألمانى ، وهو ما اتخذ دليلاً ضدها فيما بعد .

فأثناء الحرب العالمية الأولى ، وضع فى فرنسا اسم ماتا هارى فى القوائم السوداء ، كجاسوسة ألمانية . ولم ينقذها من الاعتقال سوى حماية أصدقائها من ذوى المراكز العليا . حيث تردد أن ماتا هارى لو أنها كانت جاسوسة

حاذقة مدربة بحق ، لوجدت أمامها فرصًا لا حد لها ، إذ كانت تعرف كثيرًا من المسئولين الألمان الذين لا يملكون كبح ألسنتهم فى رفقتها . لكنها فى الحقيقة كانت قليلة الخبرة ، محدودة الذكاء ، لم تستطع الإفادة من المعلومات التى كانت تصل إليها ، ولم تنجح فى شىء قدر ما نجحت فى إثارة الشبهات حولها فى فرنسا.

ويقول «نيومان» إن السلطات الفرنسية ضاقت ذرعاً بماتا هارى ، فقررت الخلاص منها بإقصائها عن فرنسا بعدما حامت الشبهات حولها، ووصول تقرير سرى من إدارة المخابرات الإيطالية إلى جميع دول الحلفاء هذا نصه:

(أثناء فحص قائمة ركاب يابانية فى نابولى، وجدنا اسم ممثلة شهيرة فى مارسليا، وهى «ماتا هارى» الراقصة الهندية ذائعة الصيت، وهى التى ترقص الهندى الخفى، الذى يتطلب التجرد من جميع الملابس. ويبدو أن ماتا هارى هذه نبذت دعوى ميلادها فى بلاد الهند، وادعت أنها من أهل برلين .. وأن نطقها الألمانية يخالطه أثر اللهجة الشرقية.).

لقد كان البوليس الفرنسى يشتبه فيها على اعتبار أنها مجرمة من نوع آخر (تشجع على الفسق والتعرى)، فأصبح رجال مكافحة الجاسوسية يراقبونها أيضًا. فكانت إذن تحت رقابة مزدوجة.. وظلت كذلك مدة طويلة حتى اتهمت بأنها أخلت بقانون الأحكام العرفية الفرنسية، فقدمت للمحاكمة .. ولم يكن هناك دليل ملموس أو معقول ضدها.. مما حير متهميها. فما كان من الغانية إلا أن عرضت على الفرنسيين فكرة التجسس على الألمان ، قائلة ، إن الجنرال «فون بيسينج» حاكم بلجيكا البغيض ، كان من عشاقها . ومن ثم ففى وسعها أن تظفر منه بمعلومات تريدها رئاسة أركان حرب الجيش الفرنسى، كما ذكرت أسماء لشخصيات أعلى منه مقامًا .

هكذا تصورت ماتا هارى ان بمقدورها إسكات الفرنسيين والتغاضى عن أنشطتها فى باريس. ومع أن فرنسا جندت وراءها أقدر رجالها فى مكافحة الجاسوسية، فلم يتم الحصول على دليل واحد يدينها. حقيقة أنه قد عرف أن

لها علاقة سرية بولى عهد ألمانيا، ودوق برنسويك، ورئيس وزراء هولندا «فندر ليندن»، لكن هذا كله لم يكن يكفى لتوجيه تهمة تدينها.

لكن حظها أوقعها بين يدى ضابط فرنسى أكثر منها دهاءً ، وهو «روبير لوبيز»[١]. الذى بعث بها إلى بلجيكا بعد أن زودها بأسماء ستة من الجواسيس لكى تفضى إليهم بالمعلومات التى تحصل عليها . وكان الستة الذين اختارهم «لوبيز» لا يعملون لصالح فرنسا على الإطلاق . ووقعت ماتا هارى فى الفخ . فما إن وصلت إلى بلجيكا حتى أبلغت عنهم ، وإذا خمسة منهم جواسيس مزدوجون لألمانيا ، فى حين أن السادس كان جاسوسًا لبريطانيا وأعدم رمياً بالرصاص.

وكانت هذه هى الخطوة ، أو العملية الإيجابية الوحيدة التى قامت بها ماتا هارى. بعدها ، أبحرت فى طريقها إلى اسبانيا حيث اعتقلت فى ميناء فالموث Falmouth البريطانى، وتحت التعذيب الشديد تعترف بأنها جاسوسة فعلاً .. ولكن .. لحساب فرنسا . فى ذلك الوقت ، كان تجسس دول الحلفاء بعضها على بعض ، أمرًا مسلمًا به ، ومن ثم أطلقت السلطات البريطانية سراحها .

وفى مدريد التقت الجاسوسة الغامضة بالعديد من عشاقها ، وما كانت تعلم أن عيون رجال الاستخبارات الفرنسية كانت ترصدها بدقة ، حتى وهى تلتقى بالملحق العسكرى الألمانى، وتتسلم منه مبلغًا كبيرًا من المال ، لقاء أمور غامضة لم يكشف عنها[٢]. وما إن وصلت بعد ذلك إلى فرنسا ، حتى كان الفرنسيون قد انتهوا من إعداد ملفها الأمنى ، الذى تضمن أدلة دامغة على تجسسها لصالح الألمان ، واتصالها بهم فىجاوة وبلجيكا ومدريد.

---

(١) جاء بمصادر أخرى أنه الكابتن (جورج لادر) من هيئة مكافحة الجاسوسية.

(٢) قيل أنها تسلمت منه شيكاً بمبلغ ١٥ ألف بيزيتا يصرف بواسطة زميل محايد فى باريس، إضافة إلى برقية بالشيفرة تطلب منها العودة إلى فرنسا. هذه البرقية كانت مثار شكوك العديد من المحللين. فمنهم من يقول بأن الألمان أرادوا التخلص من ماتا هارى لنفقاتها الباهظة، أو أن بعضهم كان يحسب نفقات الاستمتاع بها من المال المخصص للخدمة السرية. فلما انكشف الأمر قذفوا بها إلى براثن السلطات الفرنسية.. أو أنها أصبحت تحت مراقبة شديدة قد تكشف الآخرين. أو أن (كناريس) رئيس المخابرات الألمانية أراد أن يتخلص منها لأنها كانت تود الزواج منه، وأنه هو الذى أغراها واستغل حبها فى اتخاذها جاسوسة. لكن المتفق عليه أن الرسالة الشيفرية أرسلت مكشوفة تقريبا أى مكتوبة بشيفرة قديمة مفتاحها معروف للفرنسيين. فلما وصلت إلى باريس قبض عليها وكان بحوزتها الشيك.

لم أضر بفرنسا

وصلت ماتا هارى إلى باريس ونزلت بفندق كوتننتال Cotinintal المعروف بأنه فندق المشاهير ، ذلك الفندق العتيق الذى يقع على الضفة اليمنى لنهر السين بشارع Rue de Castiglione ، حيث كان لوبيز رجل الاستخبارات الماهر يتوقع حدوث لقاءات سرية بينها وبين آخرين يمكن من خلالهم تأكيد خيانتها وتجسسها على فرنسا .

ولما خاب ظنه بعد انتظار امتد طوال أسبوع كامل ، هاجم الفندق نهار ٢١ مايو ١٩١٧ وألقى القبض على ماتا هارى بينما كانت تجلس فى الحديقة الداخلية للفندق ، المسماة «شرفة الزهور» La terrasse fleurie .

استماتت ماتا هارى فى الدفاع عن نفسها ودفع تهمة الجاسوسية عنها ، مؤكدة بأن الأموال التى حصلت عليها من الملحق العسكرى الألمانى فى مدريد ، كان مقابل ما باعته إياه من حب .

وأمام مجلس عسكرى حوكمت ماتا هارى، وكانت إجاباتها سريعة واثقة سديدة حتى أن أعضاء المجلس كانوا فى شك حقيقى من أمرها. ولما بدأ الكولونيل (سمبرو) رئيس المجلس يسألها عن تسلمها مبلغ ٣٠ ألف مارك من «فون ياجو» .

قالت[1] :

– إنه هبة من عاشق لعشوقته، وليس من أجل خدمات خاصة.

عقب قائلا :

– نحن نعرف ذلك، ولكن المبلغ يبدو أكبر من أن يكون مجرد هبة.

صرخت :

– إن عشاقى لم يدفعوا لى مبلغًا أقل من ذلك.

---

(١) جاء محضر المحاكمة فى : «كتاب اليوم» الذى فشلت فى العثور على عنوانه أو سنة إصداره فى الخمسينيات من القرن الماضى.

سألها :

– لقد أتيت من برلين إلى باريس مارة بهولندا وبلجيكا وانجلترا. فما مهمتك في فرنسا..؟

أجابت بثقة :

– مهمتي الحقيقية كانت ملاحظة نقل أثاث داري من الفيلا التي كنت أسكنها في نيوللي!!

ثم سألها الكولونيل سمبرو عن سفرها إلى فيتيل[1] Vittel ، على الرغم من أن تقارير البوليس أكدت أنها لم تأت بأي عمل هناك غير تمريض الضابط الأعمى بحنان ملحوظ، وهناك تعرفت أيضًا على عدد من ضباط الطيران.

فقالت :

– إن الرجال المدنين لا يسترعون اهتمامي. لكن الضابط يبدو لعيني شخصًا يسمو على المخلوقات. إنه رجل متأهب دائمًا للمغامرة، ومجابهة الأخطار. فإذا وقعت في حب أحد فلابد أن يكون ضابطًا، بصرف النظر عن جنسيته.

فتظاهر سمبرو بأنه لم يلق بالاً إلى ذلك الإطراء وواصل استجوابه :

– وما هي ملاحظاتك على ضباط الطيران الذين سعوا للوصول إليك، وغازلوك، وجاملوك، وأطروك، وكيف حصلت منهم على المعلومات والأسرار التي يعرفةنها مجانًا؟ .. من المؤكد أنك أخبرت الأعداء عن مكان هبوط طائرات مخبرينا وعرضت عددًا من رجالنا للقتل.

قالت في ثبات :

---

(١) تقع إلى الشرق من باريس على مسافة حوالى ١٥٠ كيلو متراً من الحدود الألمانية وكانت ماتا هارى قد طلبت الأذن من السلطات الفرنسية ذات مرة للسفر إلى فيتل لزيارة أحد عشاقها الذى أصيب بالعمى الكامل فى ميدان القتال.. وكان هناك مطار عسكرى فى طور الإنشاء يريد الألمان معرفة موقعه بالضبط كما علم من الإشارات الشيفرية الملتقطة إلى أعوانهم. وروقبت ماتا هارى طوال زيارتها للمستشفى التى قبعت به إلى جوار عشيقها ولم تغادره، مما خيب رجاء مراقبيها فى الإمساك بدليل ضدها.

- أنا لا أنكر أنني داومت أثناء التحاقي بخدمة الصليب الأحمر على مكاتبة مدير الخدمة السرية الألمانية وكان حينذاك بهولندا، وليس ذنبي أنهم أسندوا له تلك الوظيفة.. لكنني لم أكتب له شيئاً عن الحرب إطلاقاً.

وقد أبدت ماتا هاري أن علاقتها بالضابط والجنود ترجع إلى ميلها إليهم، وكانت تؤثرهم بأنوثتها لقاء المال..

ثم أضافت:

- إذا قيل عني بأنني (خاطئة) فهذا صحيح ! وإما يقال عني أني خائنة فلا .. على الإطلاق.

قال سمبرو :

- كيف تستطعين أن تكوني مفيدة لفرنسا..؟

أجابته :

- باستخدام معارفي لمصلحتها! لقد سبق أن أخبرت مدير المخابرات عن الأماكن التي أنزلت بها الغواصات الألمانية، الأسلحة بمراكش على وجه الدقة.. وكان عملي هامًا..

قال في مكر :

- نعم.. كان هاماً للغاية.. ولكن ما كان يتاح لك معرفة كل هذه الأمور، ما لم تكن لك علاقة بالألمان.

فتراجعت لحظة، ثم أبدت توضيحاً لمسلكها لم يخل من اضطراب، ومضمونه أن ذلك كان ما عرفته أثناء عشاء دبلوماسي .

ثم انجرفت قائلة:

- على كل حال... إنني لست فرنسية.. وليس عليّ واجبات للشعب

الفرنسي. لقد كانت خدماتي لفرنسا مفيدة.. وهذا كل ما عندى.. وما أنا إلا امرأة مسكينة، تحاولون نصب الشرك لها كي تنزلق إلى الاعتراف بأخطاء لم ترتكبها.

ولما سألها سمبرو عن إقامتها في مدريد ، وعن النقود التى كان من المزمع صرفها إليا في باريس ، قالت :

- إنى لأعترف بأن هذه المبالغ هى أجرى.. أجرى عن ليالى الغرام .. أو بمعنى آخر .. إنها ثمنى .. ثمن جسدى هذا الذى أمنحه لكل من يقدره. إنها الحقيقة التى يجب أن تصدقوها أيها السادة. كما يجب عليكم أيضاً أن تعرفوا بأنني لست فرنسية.. وإني احتفظ لنفسي بحق الاتصال بمن أريد .. لكنني لم أضر بفرنسا أو بجيشها أو مصالحها .. ولم أعمل ضدكم أبداً. فإذا كان كلامى هذا لا يرضيكم فافعلوا بى ما تشاءون.

وأثارت قضيتها ضجة كبيرة وأزمات سياسية ، لا سيما حين اعترفت بأن وزيرًا فرنسيًا الحرف الأول من اسمه (م) كان من أشد المعجبين بها ، فأقصى وزير الداخلية الذى كان يدعى (مالفى) ، برغم تصريحه بأنه لم ير ماتا هارى هذه من قبل ، حتى أنه لم يسمع عنها إلا بعد أن أثيرت قضيتها على الملأ.

وحوكم الوزير وشهد له أربعة من رؤساء وزراء فرنسا السابقين بالولاء والإخلاص للجمهورية، وبرغم ذلك حكم عليه مجلس الشيوخ بالنفى سبع سنوات من فرنسا. وبعد انتصار الحلفاء عاد مالفى واختير وزيرًا فى حكومة المسيو هيريو لكن لا أحد صدق الوزير الفرنسى أو أنصت إليه ، وهوجم بعنف من قبل الجماعات المتشددة والصحافة[1] .

كانت أوربا خلال ذلك الوقت تمر بمنعطفات حادة بسبب الحرب العالمية

---

(١) بعد ذلك اتضح أن ماتا هارى كانت تقصد الجنرال "ميسيمى" الذى كان يشغل منصب وزير الدفاع فى سنة ١٩١٤. ومع أن الحكومة الفرنسية ردت إلى "مالفى" اعتباره ، إلا أن الوصمة ظلت عالقة به طيلة حياته.

الأولى التي كانت في أوج اشتعالها . ونظرا لكون المحكمة التي مثلت ماتا هارى امامها محكمة عسكرية ، فقد حكم عليها بالإعدام رميًا بالرصاص[1]، في سابقة مثيرة لم تحدث من قبل في فرنسا .

صدم الرأى العام الفرنسي لبشاعة العقوبة التي تقررت ضد ماتا هارى الحسناء ، وبالرغم من ظهور نداءات طالبت بعدم تنفيذ حكم الإعدام ضدها، والاكتفاء بمعاقبتها بالحبس مدى الحياة ، إلا أن الحكومة الفرنسية التي كانت منشغلة بالحرب ، لم تعر الأمر أدنى اهتمام.

قل لابنتي ..

وفي السابع من أكتوبر ١٩١٧ تصدق نهائيًا على العقوبة وأخبرت ماتا هارى بذلك فصدمت ، وكتبت بنفسها عدة رسائل إلى الصحافة تعترف فيها بأنها بريئة مما نسب إليها ، وأن القضية برمتها كانت ضعيفة الأسانيد والأدلة، وأن الحكم جاء بالإعدام لأجل إسكاتها لأنها تعرف أسرار الفساد والمفسدين في الحكومة الفرنسية . حتى أن الرمي بالرصاص لم يكن سوى تشفيًا فيها وانتقامًا للتستر على انحرافات الكبار الذين ركعوا أمامها أذلاء شهواتهم .

وفي ١٥ أكتوبر ١٩١٧[2] ، فتح باب زنزانتها في الصباح الباكر ، وسألها مأمور السجن إن كانت تريد شيئًا معينًا ، فنظرت إليه برجاء قائلة :

– لقد رفضت الحكومة أن أرى ابنتي .. وكل ما أرجوه منك أن تقول لابنتي

---

(١) قابلت ماتا هارى الحكم بابتسامة غامضة، وكان دليل التوتر العصبي الوحيد أنها عضت شفتيها فيما يشبه الصدمة لثوان محدودة. وقد حاول محاميها استئناف الحكم بدون جدوى لأن فرنسا كانت تعاني من الحرب ومن تمرد جنودها في جبهة القتال، مما كان له أثره في حالة الشدة والقمع التي اتبعت في الداخل مع الخونة والجواسيس. ولولا ذلك لسجنت فقط، حيث لم يسبق أن أعدم أجنبي مالم تتوافر أدلة قوية ضده.

رفض رئيس الجمهورية بوانكاريه أن يمنحها العفو أو يرجيء التنفيذ، ورفضت ملكة هولندا التماس رئيس وزرائها بالتدخل لدى فرنسا نظراً لسمعة ماتا هارى السيئة ورقصاتها العارية.

(٢) جاء بكتاب عادل حمودة : (حكومات غرف النوم) ص ٢٢٥ أن ماتا هارى أعدمت في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، لكن المصادر التي اعتمدت عليها أكدت جميعها بأن إعدامها كان في يوم الاثنين ١٥ وليس ٢٥ أكتوبر .

إن جاءت يومًا للسؤال عنى ، أننى بريئة .. قل لها على لسانى إننى حقيقة بريئة ..

وعدها الرجل بأن يحقق لها ذلك . فتنهدت وأصلحت زينتها ثم تناولت كأساً من (الروم) المصرح به للمحكوم عليهم بالإعدام، وكانت تبدو عليها دلائل الهدوء أكثر من الراهبة التى كانت فى خدمتها. ثم تحركت مع الجنود رافضة أن يمسك أحد بيدها . وعند ساحة الإعدام نظرت إلى الجمع الواقف فلمحت «لوبيز» . فقالت له :

– هل لك أن تقترب يا سيدى لأطلعك على سر .. ؟

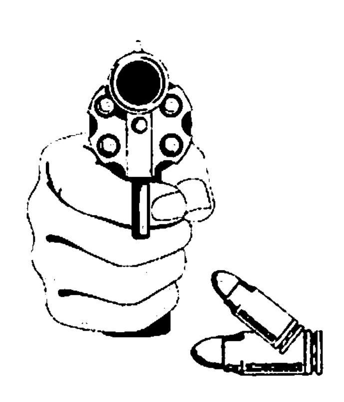
تقدم ضابط المخابرات على الفور حتى وقف أمامها . عند ذلك بصقت على وجهه وهى تقول بصوت حاد :

– تقاسم هديتى مع أسيادك أيها الكلب النتن .

وبخطوات ثابتة اتجهت صوب شجرة عارية من الأوراق والفروع، رافضة وضع العصابة على عينيها ، فتقدم منها الجندى المختص وشد وثاقها، ثم ابتعد ، لتنطلق اثنتا عشرة رصاصة اخترقت صدرها ، عندئذ يسرع إليها طبيب السجن وبإيماءة منه يفهم أنها ما زالت تنبض ببطء ، فيتقدم قائد فريق التنفيذ بمسدسه ، ويطلق رصاصة الرحمة على رأسها ، فيغطى الدم المتخثر شعرها الحريرى الذهبى الطويل ، الذى كان ذات يوم يتخذ دثارًا لعشاقها .. تفوح منه أطايب الأنوثة الطاغية .. ! !

الفصل السابع

فى كوريا الشمالية ..



« ورثت الجمال والجاذبية والأنوثة الطاغية ، وكمثل أمها ورثت الخيانة والجاسوسية والمصير . لكن طموحاتها كانت أكبر كثيرًا من فطنتها . وفى آخر عملياتها تخلت عنها الاستخبارات المركزية ، وتركتها للكوريين الذين أعدموها رميًا بالرصاص .. !! »

باندا ماكلويد
وريثة الخيانة والمصير..!!

فى سبتمبر عام ١٩٠١، وضعت «ماتا هارى» فى جاوة Java ابنتها الوحيدة «مارى لويز»، وأطلقت عليها اسمًا محليًا هو «باندا» ، أى زهرة عباد الشمس.

وبرغم أن الابنة حملت اسم أبيها ، ماكلوريد، فقد تردد أنـها ابنـة لرجـل آسيوى ارتبطت به ماتا هارى فى علاقة سرية خارج إطـار الزوجيـة، ممـا أثـار حفيظة ماكلويد ، الذى اضطر إلى نسب الطفلة إليه حفاظًا على مركـزه كضـابط مستعمرات هولندى فى جاوة . ومن ثم فقد ترك لأمـها حريـة البقـاء إلى جـواره كزوجة ، أو الابتعاد عنه ، فاختارت الهرب بعيدًا عنه احتقارًا وكراهية له .

وعندما أعدمت ماتا هارى رميًا بالرصاص فـى فرنسـا عـام ١٩١٧ ، لم تكـن باندا ذات الستة عشر ربيعًا تعرف أى شئ عـن الأحـداث التـى ألمت بأمـها . ذلك لأنها بقيت فى جاوة ولم تغادرها . وفى عام ١٩٢١ تقريبًا ، عندما بلغـت العشرين من عمرها ، اكتشفت تفاصيل حيـاة أمـها حتـى نهايتـها المأساوية ، تلك التى لم تعرفـها جاسوسـة أوربيـة أخـرى قبلـها، وحصلـت علـى الرسـالة الوحيدة التى تركتها أمها لها قبيل إعدامها[1]

---

(١) جاء فى رسالة الأم إلى ابنتها :
(كثير ما أحب أن أقوله لك، وقليل ما أستطيع أن أقول .. إن وقتى يقصر ويتلاشى.. وعما قريـب سأكون فـى عداد الموتى دون أن أستطيع رؤيتك مرة أخرى. كنت طفلة عندما تركتك .. صدقينى.. إنى لم أفعل شيئًا يعد خطأ. ولكن الحرب لها قوانينها الوحشية .. ولا اؤمل فى الرحمة.. وحتى أصدقائى السياسيون لا يستطيعون مساعدتى هذه المرة.
لقد عشت حياة طيبة كاملة .. ولعلها لم تكن هانئة سعيدة. فكلتانا لا تعرف عـن الأخـرى إلا القليـل. ولكـن خالتك روز كانت ترسل لى دائما كل شىء عنك، وبأنك شابة ظريفة وجميلة.. ولدى صورتك.
كنت صغيرة حين جئت إلى بيلى وجاوة.. ولم تكن لى معرفة أو خبرة لحداثتى وأحببت والدك، وكـان لطيفـاً أول الأمر ولكن جو المنطقة الحارة، والشراب، وموت ولدنا، أحالتـه إلى مـا هـو عليـه الآن. وذات مـرة كـاد يقتلنى وعندها تركته والآن سيقتلنى غيره. أعرف أنه ما كان ينبغى أن أترككم .. وحاولت كثـيرًا أن أضمـك لحضانتى وفشلت فى ذلك.. ولكن لعلك ستلاقين فى المستقبل حياة أفضـل بدونـى. سـأتقبل المـوت بشـجاعة، وأفكر فيك .. كنت لى كل ما أملك فى الحياة. ولكننى لم أعن بك. المال وحده لا يكفى. هل تصلين من أجلى.؟
هل تذكريننى كامرأة أرادت أن تصنع ما هو حق ..؟ =

حزنت باندا كثيرًا على ما آل إليه مصير أمها ، فتجرعت المعاناة وضربت أعماقها محنة الحقيقة المؤلمة . وبعد ترنح طويل قررت أن تنسى كل تلك الأحداث ، خاصة وأنها تزوجت من رجل إندونيسي ثرى كان له الفضل فى تعليمها وحصولها على مؤهل متوسط أهلها لأن تعمل مدرسة، لكن سرعان ما توفى مخلفًا لها ميراثًا مدهشًا من الأموال والاراضى والعقارات ، ومن بينها قصرًا فخيمًا فى جاكرتا Jakarta يطل على بحر جاوة ، وآخر فى بوجور Bogor على مسافة ٨٥ كيلومترًا جنوبى جاكرتا.

لكل ذلك وجدت باندا نفسها وقد انغمست فى الحياة الاجتماعية والأدبية للمجتمع الإندونيسى، ووجدت فى حياتها الجديدة أسباب السلوى والتلهى عن أحزانها بسبب نهاية والدتها المأساوية ومحنة ظروفها الاجتماعية المؤسفة. فكان أن انخرطت فى حياتها الجديدة بكل جوارحها ، تحظى بالاحترام والتبجيل من الإندونيسيين ، وترتبط بعلاقات وثيقة بالأثرياء ورموز المجتمع من العسكريين والساسة .

بيد أن الأمور ازدادت سوءًا فى إندونيسيا مع الاحتلال اليابانى وطرد الهولنديين ، إذ طلب منها رجال الاستخبارات اليابانية التعاون معهم ضد الثوار الوطنيين ، الذين كانوا يكبدون القوات اليابانية خسائر يومية فى الأفراد والمعدات لا حصر لها ، ويقطعون عليها الطرق الاستراتيجية لمنعها من التحرك بسهولة .

فى تلك الأثناء كانت باندا ترتبط بعلاقة حب قوية بالزعيم الثورى البارز (عبد الله سوابو)[1] ، أحد أشهر من خططوا لإعاقة حركة الجيش اليابانى المحتل وضرب قواعده ومخازنه فى إندونيسيا. ولما أسرت إليه باندا بأن

= لكن الحياة والظروف كانا أقوى منى.. فالوداع يا ابنتى .. اسعدى فى حياتك.. واسعدى بها دون أن تكرهينني.) !! أمك مارجريت جيرتراود زيل – ماكلويد.

(١) اسم رمزى جاء فى غالبية المراجع التى كتبت عن باندا ماكلويد، دون التعرض لاسمه الحقيقى كثورى كان له بصمات واضحة فى حركة المقاومة الإندونيسية ومقاومة المحتل فضلاً عن علاقته العاطفية مع باندا.

سلطات الاحتلال هددتها بالإعدام ، مثل أمها ، بتهمة التجسس[1] لصالح الهولنديين ، ما لم تتعاون معهم لكشف رموز المقاومة الشعبية، وخططها ، طلب منها مجاراتهم فى سبيل إنقاذ حياتها من ناحية ، ومن أجل الانتقام منهم من ناحية أخرى بسبب ما ارتكبوه من مذابح بحق الأسرى الهولنديين ، وما استولوا عليه من أموالها الموروثة ، وكذا احتلالهم قصرها الفخيم فى جاكرتا وإتلاف محتوياته .

هكذا تقابلت رغبة الانتقام من اليابانيين عند الطرفين ، واقتحمت باندا عالم الجاسوسية من أوسع أبوابه ، وخلال فترة وجيزة تحولت إلى أسطورة فى الجنس كأمها.

ذلك أن كبار الضباط من اليابانيين غرقوا فى عشقها حتى الثمالة ، وعلى فراشها تحررت الألسنة من عقالها ، فكان حديث الوسادة يفيض بأخطر أسرار الجيش اليابانى وتحركاته على الجزر الإندونيسية ، مما أوقع به خسائر فادحة ، وأنقذ الثوار من هجمات انتقامية موجهة ، حتى أن البعض من المحللين يعزى إلى باندا الفضل فى كشف أعداء القوات اليابانية ، ونقاط تمركزها الرئيسية فى جاوة ، وتسليحها ، وكان أثر هذه المعلومات مدهشًا للغاية ، ومفيدًا للبريطانيين ، الذين تمكنوا سنة ١٩٤٥ من سحق اليابانيين فوق الجزيرة ، وانسحابهم.

وبخروج المحتل اليابانى حصلت باندا على خطة الهجوم الهولندى وساعة الصفر فى ١٩ ديسمبر ١٩٤٨، وهكذا عاد الاحتلال الهولندى من جديد ، فترتعش حياة باندا ومشاعرها وهى تحاول أن تفاضل بين حبيبها ، سوابو ، والقوات الهولندية التى تنتمى إليها ، وبعد معاناة شديدة اختارت حبيبها ، وتجسست على قوات وطنها لصالح الثوار ، مضحية بجسدها مرة أخرى من أجل

---

(١) قيل بأن أحد أعمامها كان يعمل لصالح اليابانيين، وأنه هو الذى زارها وهددها بإفشاء تاريخ أمها، طالباً منها أن تتعاون معه كأمر لا يقبل التفكير أو المناقشة، فانصاعت له.

الحصول على معلومات مفيدة للثوار ، فاشتدت الضربات ضد الهولنديين ، وحمى وطيس المعارك ، حتى سقط «عبد الله سوابو» قتيلاً وهو يدافع عن أرضه ووطنه .

الشرق الأمريكى

لم تتوقف باندا عن مزاولة التجسس بعد موت سوابو ، وكانت تظن بأنها امتداد حقيقي لوالدتها ، لكنها كانت أذكى وأجرأ ، فعملت على الدعاية لإندونيسيا مستغلة لغتها الإنجليزية المتقنة، وملامحها الجذابة وقامتها الرشيقة خير سبيل لها فيما هى بسبيله، فتدفقت إلى إندونسيا المساعدات والأسلحة اللازمة لحرب الاستقلال .

ثم تعاونت باندا مع المخابرات المركزية ضد الصين ، بعد رحلة تدريب طويلة فى الولايات المتحدة على فنون التجسس ، حيث ذهبت إلى بكين وشنغهاى ، وأعدت تقارير وافية عن حركة المد الشيوعى فى جنوب شرق آسيا، وبلغت بها الكفاءة أوج الشهرة عندما أبلغت بأن كوريا الشمالية ستهاجم كوريا الجنوبية بمساعدة الصين والسوفييت، لكن لا أحد صدق ذلك حتى صح ما توقعته.

ولما اشتبهت المخابرات الكورية الشمالية فى نشاطها حاولت استمالتها ، لكن الجاسوسة المدربة تغابت ، بيد أن الكوريين لم ينخدعوا فى براءتها، وعرضوها لتعذيب شديد لم تستطع وقد بلغت الخمسين من عمرها أن تتحمله ، فاعترفت لهم بكل شئ عن نشاطها التجسسى منذ البداية ، حتى رحلتها الطويلة الأخيرة إلى الصين لكشف مدى قوة ثورة زعيمها «ماوتسى تونج» .

وعن ظروف القبض عليها فى كوريا الشمالية، قيل بأن أحد جواسيسها واسمه «مانو»، الذى كان خادمًا فى قصر الحاكم فى «باتافيا» وساعد فى حركة التحرير بإندونسيا، عاد مع كثيرين غيره إلى بلاده بعد أن تحقق الشيوعيون من أن الحركة فى أندونسيا حركة وطنية، وليست شيوعية. فصدرت الأوامر إليه لكى يعود إلى بلاده الأصلية، كوريا. وأصبح الجاسوس

السابق يعمل فى الجيش الأحمر. فوشى إلى رؤسائه بأمر «باندا ماكلويد» التى تعرف عليها فى كوريا، فقبض عليها.

قدمت باندا إلى المحاكمة العسكرية بملف اعترافاتها ، ووصمت بأنها توارثت البغاء والتجسس عن أمها ، وأن الأقدار تسوقها بقوة لتشهد مصير امها ، لتكون حادثة فريدة مثيرة لم يشهدها تاريخ التجسس من قبل .

كانت الأدلة ضدها كافية لأن تنال حكمًا بالإعدام . وراودها أمل كاذب بأن واشنطن ستسعى للإفراج عنها بصفتها جاسوسة كانت تعمل لصالح أمريكا وتدربت على أرضها . لكن الواقع كان مؤلما حقا . فقد أنكرت الولايات المتحدة أية صلة لها بالجاسوسة الهولندية ، ورفضت هولندا هى الأخرى بذل مساعيها لإنقاذها من براثن الكوريين .

فى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٩٥١ ، اقتيدت باندا إلى ساحة السجن العسكرى فى "هامهونج" Hamhung ، وهو بالأصل قلعة قديمة بنيت على سفح جبلى يطل على بحر اليابان ، حيث كان ينتظرها فريق مكون من أحد عشر جنديًا ، أطلقوا الرصاص على صدرها العارى . وعندما انكفأ رأسها الحليق إلى الأمام ، سارع أحد الضباط وأطلق رصاصة الرحمة ، التى اخترقت الجمجمة وخرجت من الناحية الأخرى ، مؤكدة موت باندا ساحرة العقول ، وريثة الخيانة والمصير .. ! !

الفصل الثامن

فى بولندا .. ! !



« ضابط بولندى ذهب إلى ألمانيا للحصول على خطة هتلر لمهاجمة بولندا ، فأحبته بارونة ألمانية ، وساعدته.

اكتشف الأمر ، فأعدمت البارونة.وعند مبادلته أعدمته سلطات بلاده رميًا بالرصاص..! ! »

ســوسنوفسكى

الجاسوس سيئ الحظ

إن المغامرات العاطفية والقصص الرومانسية فى حياة الجاسوس تمثل أحياناً منعطفاً مثيراً فى حياته ، قد يقوده إلى طريق مجهول ملئ بالمخاطرة والموت .

وفى تاريخ الجاسوسية تحكى لنا الملفات أغرب هذه القصص ، فى تشريح نفسى دقيق يظهر أعماق هؤلاء الذين اختاروا العمل فى مجال الجاسوسية ، بما يكتنفه من إثارة وغموض ومخاطرة قد تضيع الحياة بسبب فى لحظة.

ومع ذلك ففى تاريخ الجاسوسية هناك القاتل المحترف الذى يهذبه الحب ويرعش مشاعره ، والخائن الرعديد الذى سحقته مشاعره تجاه محبوبته ، وهناك أيضًا ضابط المخابرات نفسه الذى يهزمه الحب ويكسر حدة عنفه وتوحشه .

وعندما ظهر أدولف هتلر فى ألمانيا عام ١٩٣٣ ، أدرك البولنديون أن النازيين سيدعونهم يومًا ، للزحف إلى جانب ألمانيا ، ضد روسيا ، أو يضطرون إلى مقاومة هجوم ألمانى عليهم إن رفضوا الانصياع لرغبات النازيين . وعمومًا . فقد كانوا قد انتهوا من اتخاذ قرارهم بعدم التعاون عسكرياً مع ألمانيا[١] .

كان الكابتن «سيرج سوسنوفسكى» ضابطًا بولنديًا من أسرة عريقة ، يتمتع بشخصية أخاذة ووسامة تجتذب النساء. وبحكم حبه للمغامرة ، وطلاقته فى التكلم بالألمانية ، بعثت به الاستخبارات البولندية إلى برلين ، بعد أن تم تدريبه جيدًا على دقائق مهمته ، مستترًا وراء شخصية رجل أعمال ثرى ، بغرض كشف خطة الهجوم الألمانية المحتملة على بولندا.

اعتمد سوسنوفسكى على الأموال الوفيرة التى بحوزته فى تجنيد أعداد كبيرة من الألمان، وسيطر عليهم سيطرة كاملة حتى إنه بعث بهم فى كل أرجاء

(١) برنارد نيومان، أسرار الجاسوسية .. العدد ٤٩ من سلسلة (كتابى) .

ألمانيا، حيث طالبهم بالإصغاء إلى حديث المقاهي ، وكان هو بـدوره يصغـي إلى ثرثرة الدوائر العليا التي يتردد عليها، بصفته رجل أعمال ثرى. ومن خـلال مـا كان يسمعه ، وما يصله من أعوانه ، بنى صـورة للموقـف أقـرب مـا تكـون إلى الحقيقة.

فى تلك الأثناء، تصادف أن تقابل سوسنوفسـكى مـع البارونـة «فـون بـرج» داخل أحد محلات العطور ، فانبهر برقتها وطفولة وجهها ، إلى جانب أنوثـة فتاكة ناضجة الاشتهاء. هى أيضًا اندهشت لوسامته الملفتة ، وطريقته السـاحرة فى الحديث . وبعد لقاءات عديدة بينهما ، كانت هى التى عجلت بمصارحتـه بأنها – برغم زواجها – تحبه إلى درجة الهـوس ، فاعـترف هـو الآخـر بحبـه الحقيقى لها ، ذلك الحب الغامر الفياض الذى اجتاح حياته منذ أن رآها.

انتقلت فون برج إلى شقته وأقامت معه إقامة كاملة ، ولما سعى زوجها إليـها لإعادتـها حفاظًـا علـى مركـزه الاجتمـاعى صرخـت فـى وجهـه معلنـة رفضـها ، فانسحب يلملم بقايا كرامته ، وعكفت جاهدة على مسـاعدة سوسنوفسـكى فـى أعماله التجارية التى تخفى وراءها ، دون ن يراودها أدنى شـك فـى شـخصيته الحقيقية .

هكذا مرت سنوات فى ألمانيا ، وسوسنوفسكى يعيش آمنًا مـع حبيبتـه فـون برج ، لم يفكر خلالها ان يستغلها بشكل أو بآخر لجمع المعلومـات ، أو حتـى مصارحتها بحقيقة عمله من باب الثقة .

فالتدريب الاستخباراتى الجيد الذى ناله فى بولندا قبـل سـفره إلى ألمانيـا ، ساعده كثيرا على التحكم بقدرته علـى اخـتزان أسراره ، ولـو لأقـرب النـاس إلى قلبه. كان أيضًا لا يثق فى أن تصمت حبيبته ، وهى تراه يتجسس علـى بلدهـا ويجمـع المعلومـات الاسـتراتيجية عـن جيشـها وتسـليحها ومصانعـها الحربيـة وأحدث ابتكاراتها . فلابد ان تدفعها الغيرة على وطنها إلى عمـل شـىء ، وهـو احتمال لم يكن سوسنوفسكى يستطيع تخمين حدوثه من عدمه.

لذا فقد فضل الضابط الإيرلندى الصمت والحيطة ، بعد أن عاش سنوات في ألمانيا دون أن يزل لسانه أو يخطئ أدنى خطأ .

يجب أن أساعدك

وذات ليلة عاد منتشيًا من حفل كبير بقصر إحدى العائلات الراقية ، بعد أن سمع أنباءًا هامة عن الطائرة الألمانية القتالية الحديثة من طراز «مسر شميدت» التى كانت مجهولة القدرة والمواصفات والتسليح والمدى. ونظرًا لأنه نال تدريبًا ممتازًا على تدوين المعلومات فى الذاكرة أولاً ، عمد إلى تسجيل كل ما سمعه عن الطائرة بمجرد وصوله إلى البيت ، وارتكب الخطأ القاتل عندما دس الورقة فى جيبه ونام . وفى الصباح عندما أرادت عشيقته ترتيب ملابسه عثرت على الورقة وقراتها فى ذهول، وقد اكتشفت أن حبيبها الذى ضحت من أجله جاسوس إيرلندى مخادع.

تركت فون برج الورقة مكانها والألم يعتصرها ، وعندما واجهت حبيبها ارتجف رعبًا ، ورأت علامات الذعر فى عينيه فارتمت باكية بين يديه تندب حظها . وسألته بصوت خفيض خائف :

- لماذا يا سوسنوفسكى .. ؟

جاءها صوته مرتعشًا :

- لا تصدقينى إن قلت لك أننى كنت أنوى مكاشفتك .. فلو أننى فعلت ذلك لقتلت .. وكان يحز فى نفسى ان أقتل وأتركك تتعذبين .

قالت:

- وهل طاوعت قلبك وتصورت أننى يمكن أن اكون يومًا ما سببًا فى إيلامك .. أو قتلك؟

أجاب:

- أنا آسف يا حبيبتى .. آسف بحجم الحب الذى بقلبى لك.. لقد خدعتك دون قصد يا أوفى الناس .. لكن لتعلمى أن السرية هى إحدى أهم جوانب عملى . وكنت أتوقع دائمًا ، إن صارحتك ، أن أقتل هنا فى ألمانيا ،

أو على يد قادتى فى بولندا .

قالت فى أسى :

- وماذا يريد الإيرلنديون من ألمانيا .. ؟

أجابها على الفور :

- إننى ما جئت إلى هنا لكى أتجسس على ألمانيا . إنما لأستشف نوايا النازية التى ستدمر ألمانيا وأوروبا يومًا ما .

قالت :

- وإلى متى تستمر هذه الحال .. ؟

أجاب :

- إلى أن أتم مهمتى هنا .. فأحصل على خطة هتلر لمهاجمة بولندا .. إن عودتى إلى بولندا رهن بذلك الأمر .. ويجب أن أفعل شيئًا .

سألته بصوت مختنق :

- وأنا .. ؟ هل ستتركنى هنا وحدى بعدما تحصل على تفصيلات مهمتك يا سوسنوفسكى .. ؟

ضمها إليه بقوة وقبل أن يجب قالت وهى تنتفض :

- سأصدقك مهما كانت إجابتك .. فقل الحقيقة بمرها أو بحلوها .

انطلق يقول :

- حبيبتى . أقسم لك بأننى لا أكذب عليك .. لقد خططت كثيرًا وفكرت فى هذا الأمر . ستكونين معى فى إيرلندا لنكمل مشوار حياتنا سويًا .. فلن أغادر برلين إلا وأنت معى ، أو أن أعود جثة هامدة .

بكت بحرقة وهى تعانقه وتقول :

- أصدقك يا حبيبى .. قلبى يحدثنى بأنك صادق فيما تقول . لكننى جد خائفة .. فلو أن رجال الجستابو تشككوا فى أمرك لقتلوك فى الحال . لذلك يجب أن أساعدك فى مهمتك حتى نسافر إلى بولندا فى أسرع وقت .

بهت سوسنوفسكى وردد :

- تساعديننى .. ؟

- نعم .. اختصارًا للوقت يا حبيبى .. وكل ما أطلبه منك هو أن تعلمنى كيف أعمل بحذر .. أتكلم وأتحاور وأصل إلى ما أريد بمهارة .. أريد أن أتعلم كل فنون الجاسوسية لكى تمر الأيام سريعًا ونبتعد عن هنا .

وبهذا بدأت قضية من أعجب القضايا الخاصة بالتجسس فى التاريخ .. قضية تتابعت فيها لحظات من الدراما والدسائس .. والمأساة ! .. فقد وضعت البارونة «فون برج» الخطط لإنقاذ الشاب الذى تحب من الخطر المحدق به . وأدركت أنه كلما اسرع فى إنجاز مهمته استطاع أن يعجل بالعودة إلى بولندا ، وإلى الأمان .. فصارت تصطحبه إلى الحفلات التى تضم أشخاصًا ذوى مكانة يستطيع أن يستفيد من حديثه معهم ، فيضيف إلى الصورة التى كونها معالم جديدة كل يوم!

وجاء يوم من أيام سنة ١٩٣٤ .. كانت عشيقته تحتفى فيه بابنة عم لها هى الآنسة «فون ناتسنر»، التى كانت تعمل كاتبة سرية فى وزارة الحربية الألمانية . وكان من تقاليد المانيا ألا تعين فى هذا المنصب إلا من تثق بها من بنات الضباط المتقاعدين . وكان والد هذه الفتاة ضابطًا برتبة كولونيل ، ولكن التضخم المالى الذى حدث فى ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى كان قد أصابه بخراب شامل ، فاضطرت ابنته إلى العمل . ولكنها ما كادت تلاحظ جمال ثوب ابنة عمها البارونة حتى لسعتها عقارب الغيرة ، والرغبة فى الثراء .. فلمح «سوسنوفسكى» فى عينيها بريق هاتين العاطفتين .. !

واستطاع أن يعالج الخطوات التالية بمهارة ، بمعونة البارونة ، فاقترح على الفتاة أن يمدها بالمال الذى تريد ، على أن تمده بين الحين والآخر بمعلومات عن العقود التى يعقدها الجيش مع التجار مثلا ، بدعوى ان هذه المعلومات تفيده كثيرا فى عمله التجارى! ..

لم يكن فى الخطوات الأولى ما يريب . وصار صاحبنا يدفع للفتاة أجورًا

عالية ، حتى أصبحت تحت رحمته وألعوبة فى يده ، بحيث بات فى استطاعته أن يحصل منها على ما يريد ، وهى التى لم تألف من قبل سعة العيش فأدار رأسها أن يكون فى يدها مال كثير ! .. واستأجرت مسكنا خاصا بها ، واشترت الثياب التى طالما اشتهت اقتناءها !

وكانت الآنسة فون ناتسنر تعمل فى الإدارة المالية الخاصة بالتموين والمخازن، وتكتب على الآلة قوائم عن التموين . وكان فى استطاعة أى ضابط أركان حرب يعمل فى المخابرات أن يحصل من هذه القوائم على الخطوط الرئيسية فى أى خطة حربية أو مشروع هام . وبرغم أنه لم يكن فى الإمكان سرقة نسخة من هذه القوائم ، لأنهم كانوا يرقمون كل ورقة بعناية ، فإن الشريكين اكتشفا وسيلة أخرى لا تخلو من مهارة ، هى سرقة ورق كربون من الأوراق التى توضع بين نسخ ما يكتب على الآلة الكاتبة ، وبذلك يمكن لأى إنسان ذكى أن يقرأ فيها ما كتب ! .

واستمر سوسنوفسكى فى دفع مبالغ كبيرة للفتاة ، التى كانت قد بدأت تحصل له على مادة من الطراز الأول، حتى لقد أكد للبارونة أن مهمته ستنتهى خلال أشهر قلائل !

خيوط الافتضاح

مرت بالشركاء الثلاثة لحظة كانت تدعو إلى القلق ! كانت أم الفتاة تعيش فى «بافاريا» ، فزارتها فجأة على غير انتظار . وإذ ذاك ذهلت لكثرة ثيابها وأناقة أثاثها .. فزعمت لها الفتاة أن «جنرالا» من أصدقاء والدها «ذكرت أسمه» كلفها بعمل يأتيها بأجر كبير .

لكن هذا الحادث العرضى كان كفيلا بهدم كل ما بناه سوسنوفسكى .. فقد قابلت الأم بعد ذلك بعدة أشهر هذا الجنرال فشكرته لأنه أسدى هذا الصنيع إلى ابنتها ، وعندئذ أدرك الرجل أن وراء الأمر شيئًا ، لكنه لزم الصمت ، فقد كان رجلا صارما فى عمله . ولم يكن إلى ذلك الوقت مرتابًا فى نشاط الفتاة ، بل ظن أنها لابد قد أصبحت خليلة رجل ثرى .. على أن الاضطراب انتاب

عقله منذ تلك الساعة ، فبعث بأحد ضباط مكتبه لمراقبتها والتحرى عنها .. فلم يعثر لها الضابط على أى عشيق ثرى .. وإزاء هذا تولت إدارة مقاومة الجاسوسية الأمر .. فلم تلبث الفتاة أن ضبطت والكربون فى جيبها !

وأملاً منها فى أن تنقذ حياتها من الإعدام ، أفشت فى الحال سر الكابتن سوسنوفسكى والبارونة فون برج . وكان الأمر خطيرًا إلى حد أن الجنرال هيدريتش - أحد كبار زعماء النازية ورئيس الجستابو حينذاك - اعتقلهما بنفسه !

بعد محاكمة سريعة حكم على البارونة العاشقة وابنة عمها بالإعدام .. وتحرك قلب زوج البارونة - البارون - فى اللحظة الأخيرة ، فأراد تطليق زوجته لتتزوج من سوسنوفسكى وتصبح بولندية الجنسية ، فتنجو بذلك من الإعدام ! ولكن خطته منيت بالفشل .

وقد وصف شاهد عيان مأساة الإعدام - الذى نفذ فى فناء أحد سجون برلين ، وكان شبيهًا بما كان يحدث فى العصور الوسطى - فقال :

(كان الجلاد يلبس ثوب السهرة ، وكان الجزء الأسفل من وجهه مغطى بقناع أسود . وخانت الآنسة فون ناتسنر أعصابها فى اللحظة الأخيرة ، فحملها ثلاثة رجال . وجعلت تقاوم وتصرخ وهم يدفعونها إلى كتلة الخشب أمام الجلاد . ثم أمسكوا بجسمها بقوة إلى أن أهوى الجلاد على رأسها بفأسه . ولكن الضربة الأولى لم تنجح ، فاضطر إلى معاودة الكرة حتى فصل الرأس عن الجسد ..

أما البارونة فون برج فإنه تقدمت إلى مصيرها المحتوم فى هدوء . وكانت تحسب أن حبيبها الضابط البولندى على وشك أن يلقى نفس مصيرها ، فكانت تحدث نفسها فى زنزانتها عن لقائهما السعيد بعد الموت ! وقد تبدو لحظاتها الأخيرة أشبه بفصل من مسرحية ، ولكنها كانت مخلصة إلى حد أن بعض الموظفين من ذوى القلوب المتحجرة تأثروا لحالتها . فقد ركعت أمام كتلة الخشب ، ووضعت صورة لسوسنوفسكى على الأرض - كى تنظر إليها

إلى أن تموت – ثم أسندت رأسها بلطف على الخشب وأزاحت الشعر عن مؤخر عنقها.

تردد الجلاد لحظة، وقد رأيت العرق يتصبب من وجهه ! ، وكان هذا بعد الفجر بقليل ، فى صباح يوم بارد من أيام شهر فبراير . وإذ ذاك أمره ضابط بأن يضرب .. فاستجمع ما بقى له من شجاعة وأعصاب ، وهبطت الفأس .. فتدحرج الرأس الجميل على الأرض .. إلى جوار صورة الرجل الذى أحبته ..

واضطروا إلى اقتياد الجلاد بعيدا ، فقد رأيته يترنح عبر فناء السجن . وسمعت أنه استقال من منصبه بعد ذلك . ولست ألومه) !

مصير سوسنوفسكى

وظهرت فى برلين لافتات عن إعدام اثنتين من الخائنات للرايخ . ولكن ، ماذا حدث لسوسنوفسكى ؟

حكم عليه بالإعدام مثلهما ، ولكن يد القدر تدخلت فى الأمر . فإن البولنديين كانوا قد اعتقلوا جاسوسة ألمانية ذات شأن كانت تسمى نفسها «مدام أوتسوريل» . وقد نفوا – كما جرت العادة – أن سوسنوفسكى كان يتجسس لحسابهم . ونفى الألمان بدورهم أن مدام أوتسوريل كانت جاسوسة من طرفهم .. ثم اتفقوا على تبادل السجينين ! .

وقد كانت لهذه القضية نتائج هامة .. فقد عاد سوسنوفسكى إلى بولندا رجلاً محطمًا . ولكن السلطات البولندية بدأت ترتاب فى أمره ، وتخشى أن يكون قد تحول إلى جاسوس لألمانيا ، بسبب النداءات الحارة التى كان يوجهها إلى قيادات هذه الدولة كى تعفو عن عشيقته «قبل إعدامها» .. لذلك خشى المسئولون فى بولندا أن يكون سوسنوفسكى قد وُعد بالعمل لصالح ألمانيا إذا أطلقوا سراحها ! .

وعلى أى حال ، فإن سوسنوفسكى بعدما حاصرته الشبهات والشكوك ألقى

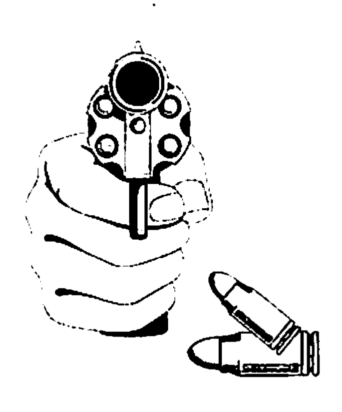
القبض عليه، حيث تعرض لتعذيب وحشى عساه يبوح بالحقيقة ، لكنه أصر على كونه ضابط بولندى مخلص يحب وطنه ويحترم عسكريته.

وبالرغم من انتفاء دليل قطعي ضده ، قدم إلى محاكمة عسكرية عاجلة ، حيث احتوى ملفه على مجرد تخمينات لا تدين ، لكنه فشل هو ومحاميه فى الدفع ببطلانها لانتفاء الجريمة والأدلة ، وانبرى القضاة فى مواجهته باتهامات تحليلية تافهة، ثم أصدرت المحكمة حكما نهائيا لا يقبل المعارضة ، بالإعدام رميًا بالرصاص لسوسنوفسكى بتهمة الخيانة العظمى ، وكان ذلك قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩٣٩ بأيام قلائل .

بيد أن الضابط الوطنى المخلص انتابته آلام نفسية حادة إلى حد آذى عقله ، ومع ذلك لم يتركوه فى زنزانته سوى ثلاثة أيام فقط ، ثم أيقظوه مبكرًا وأخذوه إلى ساحة تنفيذ الإعدام بأحد المواقع العسكرية. ولما لم يكن فى كامل وعيه وهو المذهول الشارد الذهن ، فقد ظل على حاله من الشرود وعدم إدراك ما يدور حوله ، حتى وهم يكبلوا يديه وساقيه ويربطوه إلى عمود التنفيذ ، لتنطلق رصاصات غدر تستقر بين ضلوعه ، ثم تخترق جمجمته رصاصة الرحمة لتستقر هى الأخرى.. !!

الفصل التاسع

فى تركيا .. !!



« يونـانى الجنسية ، ولـد بمصـر ، مـتزوج مـن سـورية. جنـده ضـابط مخـابرات سويسرى للعمـل لصـالح الألمانى ضد الإنجليز ، وجنده عميـل بريطانى للعمل ضد ألمانيا. وفى تركيا قـام بقتـل العميـل السويسـرى ، وأدانته المحكمة العسكرية التركيـة بالإعدام رميًا بالرصاص .. !! »

مانولى ميخاليدس
الجـــاسـوس الـدولى

انقضت الأشهر الأولى من سنة ١٩٤١ دون أن يرى أحدهما الآخـر ، أو يعـرف عنه أى شئ ذى بال ، برغم أنهما قضيا هذه الأشهر كلها جنبًا إلى جنـب تحـت سقف واحد ، إذا كانا يقطنان غرفتين متجاورتين بأحد بنسيونات القاهرة .

وذات أمسية ، جمعتهما المصادفة للمرة الأولى ، على مـائدة واحـدة ، فـى حقل أقامه صاحب البنسيون ، فتعارفا وتوطدت بينـهما العلاقـات . فقـد كانـا فى سن واحد تقريبًا ، وكانـا إلى جـانب ذلـك متقـاربين فـى الثقافـة والميـول . أحدهما هو «هنرى جيد»، بلجيكـى متمصر كـان يشـغل منـذ سـنوات وظيفـة محاسـب بـإحدى الشـركات الأجنبيـة بالقـاهرة . ومنـذ الأشـهر الأولى لإعـلان الحـرب العاليـة الأولى وهـو يقـوم إلى جـانب عملـه بمـهام أخـرى لحسـاب الاستخبارات البريطانية مقابل مكافآت سخية .

أما الآخر ، فهو شاب يونانى الأصـل ، مـن مواليـد القـاهرة اسمـه «مـانولى ميخالديس» ، يشتغل بتجارة الساعات وإصلاحـها . وكـان حتـى سـنة ١٩٤٠ يعيش مع زوجته السورية الأصل فى شـقة واسـعة بحـى الأزبكيـة[1] ، لكنـها كعادتها كل عام ذهبت لتصطاف وتزور عائلتها فى اللاذقية ، فتشاء الأقدار أن تضطر إلى البقاء هناك . إذ سيطرت دولتا المحور على كل الأصقاع التـى كـانت تحت انتداب فرنسا المنهارة ، وأغلقت الحدود بينـها وبـين الأقطـار المجـاورة الدائرة فى نفوذ الحلفاء ، وحز ذلك فى نفس مانولى ، فزايله مرحـه المعـهود ، وانطوى على نفسه محزونًا يعـانى الوحـدة المريـرة ، حتـى انتقـل للإقامـة فـى البنسيون هاربًا من شقة الزوجية الباردة التى تضج أركانها بالذكريات ونـداءات الحنين .

---

(١) الجاسوسية فى مصر ، سلسلة كتب للجميع ، أبريل ١٩٥١ .

لذلك .. فقد كان من الطبيعي أن يتأثر الشاب البلجيكي هنري جيد بماساة صديقه اليوناني الجديد .. وبعد تفكير طويل في كيفية إخراجه من عزلته النفسية ، سعى لإلحاقه بالعمل السرى معه لصالح البريطانيين ، بعد أن تأكد من موافقته على القيام بدور ما في الحرب مقابل مكافآت مجزية . ثم واصل سعيه حتى حصل على تصريح من جهاز الاستخبارات بأن يصطحبه معه إلى تركيا في إحدى المهام .

كانت هذه الرحلة هي أمنية مانولى الكبرى التي أفضى بها إلى صديقه المخلص العزيز ، عساه يستطيع في تركيا أن يستدعى زوجته من سوريا ، أو يذهب إليها بنفسه لاصطحابها والعودة بها إلى القاهرة .

ولم تمض أيام ، حتى كان الصديقان يستقلان إحدى الطائرات في طريقهما إلى استنبول .

هناك رأى «مانولى» أن ينزل كل منهما في فندق خاص ، حتى لا تلتفت إليهما أنظار جواسيس المحور الذين كانوا يملأون المدينة وغيرها من المدن التركية في ذلك الوقت، فوافقه هنرى على هذا الرأى السديد ، على أن يلتقيا كلما اقتضت الحال ذلك ، في مكان ما .

وسارت الحال على هذا المنوال بضعة أسابيع ، كان هنرى في خلالها يجتمع بمانولى ويطلعه أولاً بأول على تفاصيل الخطوات التي قطعها في مهمته السرية الخطيرة ، مكلفا إياه ببعض الخدمات . فكان يقوم بها على أحسن الوجوه .

وانتهز كلاهما هذه الفرصة ، فسعيا لدى أولئك الرؤساء لكي يتوسطوا لدى الجهات المختصة في تيسير سفر زوج مانولى من سوريا الى تركيا ، فقوبل مسعاهما بالترحيب والوعد بتحقيق تلك الأمنية في أقرب وقت مستطاع . على أن أسبوعًا بأكمله انقضى بعد ذلك دون أن يأتى مانولى للقاء هنرى ، كما كان الاتفاق بينهما .

وعبثًا حاول هنرى ان يعثر على زميله وصديقه في الفندق الذى كان نازلاً

فيه ، أو فى أى مكان آخر ، لكنه كان قد اختفى تمامًا مما كان مدعاة لأن يعتقد هنرى أن صديقه المختفى سارع بالسفر إلى سوريا للقاء زوجته التى كان يعشقها .

لكن هذا الاعتقاد لم يمنعه من التصرف بشكل صحيح إزاء مثل هذه المشكلة. إذ عمد إلى رؤسائه المباشرين بمركز الاستخبارات البريطانية فى استانبول لإبلاغهم باختفاء زميله ، لكنه ما إن دخل المركز حتى صفعته مفاجأة مذهلة ارتج لها عقله .

لقد فوجئ هنرى جيد بوجود مانولى نفسه جالسًا فى حالة يرثى لها أمام مكتب أحد أولئك الرؤساء . ثم كانت مفاجأة أكبر وأمر ، حين علم هنرى أن ذلك الزميل الطيب الوديع الحزين ، الذى طالما اعتمد عليه كثيرًا فى عمله ومهامه ، وأطلعه على أدق الأسرار ، لم يكن إلا جاسوسًا ماكرًا يعمل لحساب الألمان .

وكان أعجب ما فى الأمر أن مانولى نفسه هو الذى تطوع للكشف عن ذلك السر الخطير الرهيب ، فتقدم إلى مكتب المخابرات البريطانى هناك ، معترفًا بكل شئ بالتفصيل . مؤكدا صحة اعترافاته الخطيرة بالدليل !

لم تشفع لموكله

ولنتركه هنا يسرد قصته الغريبة كما سجلها فى اعترافاته فى محضر التحقيق .. قال :

(فى أوائل مارس سنة ١٩٤١ ، جاء إلى محلى لبيع الساعات وإصلاحها فى القاهرة ، رجل أجنبى فى حوالى الخمسين من عمره ، وقدم إلىّ نفسه باسم «أرسنيد فولنجر» قائلا أنه تاجر ساعات مشهور فى سويسرا ، وقد جاء إلى مصر، ممثلا لعدة مصانع سويسرية لصنع الساعات، ليحصل لها على عملاء أكفاء أمناء فى القاهرة.

فى هذا اللقاء اتفقنا على أن أعاونه فى مهمته هذه نظير عمولة محدودة ،

ومكافأة خاصة فضلا عن هذه العمولة ، دفع لى منها مقدمًا مائة جنيه وهو مبلغ ضخم على أية حال .

ولأن الأمر لا يعدو أن يكون صفقة تجارية مربحة ، فقد كان من الطبيعي أن أوافق على التعاون معه . وبذل كل ما يمكننى من جهد لإنجاح مهمته ، فضلا على أننى حرصت جدًا على توثيق علاقتنا الإنسانية حتى أننا لم نكن نفترق ليلاً أو نهارًا .

وذات مساء كنت أجلس معه في شرفة حجرته بفندق شبرد نشرب الشاى ونتبادل الحديث ، حتى تطرق الحوار بيننا إلى مشكلتى المؤرقة ، وما كان يساورنى من هم لفراق زوجتى السورية، والصعوبات التى تعترض طريق عودتها من سوريا .

عند ذلك بدا عليه التأثر الشديد ، ثم اصطحبني بعد ذلك بأيام قلائل إلى غرفته بالطابق الثاني ، وهو يؤكد لى أن لديه حلاً لمشكلتى لن أجد افضل منه فى الوقت الحالى . ففرحت غاية الفرح وتوسمت خيرًا عندما أوضح لى مؤكدا انها فرصة لا تتكرر لأى إنسان طوال حياته.

وهناك فى تلك الغرفة ، أسر إلى بأن فى استطاعته أن يتوسط لدى سلطات المحور فى سوريا لكى تعيد زوجتى إلىّ، على شرط أن أقوم لهذه السلطات نظير ذلك بخدمة بسيطة ، هى أن أمدها عن طريقه بما استطيع معرفته من معلومات عن قوات الحلفاء فى مصر ، وأماكنها ، وتحركاتها ..

ولما كنت فى شدة الشوق إلى لقاء زوجى . وكانت للرجل عندى أفضال سابقة كثيرة . فإننى لم أتوان عن قبول ما عرضه على . وإن كنت على يقين بما سأتعرض إليه من أخطار ..

وحينما هممت بالانصراف ، نفحنى بمائة جنيه اخرى عربونا للاتفاق الجديد . ثم أخبرنى بأنه سيسافر إلى استنبول بعد يومين حيث يقضى هناك بضعة أسابيع . وأنه سيزورنى فى اليوم التالى بمنزلى بالقاهرة . الذى كنت هجرته إلى البنسيون . ليتفق معى على ما يجب أن أصنع خلال تلك المدة .

وطلب منى أن أنتظره فى ساعة مبكرة من الصباح .

وفى هذا الموعد . حضر إلى الرجل فى المنزل وكان فى يده صندوق من الورق المقوى متوسط الحجم . ففتحه وأخرج منه جهازا دقيقا للإرسال باللاسلكي أخذ يدربني على استعماله حتى اطمأن إلى نجاحي التام .. ثم انصرف على أن يسافر من الغد إلى تركيا بعد أن منحنى ثلاثمائة جنيه لأنفق منها في غيابه .

وشاءت المصادفات أن أحصل بعد أيام على تقرير خطير كتبه أحد الصحفيين اليونانيين عن معسكرات الحلفاء التى زارها فى الشرق الأوسط ، فسارعت إلى إرسال هذا التقرير بنصه على فولنجر بواسطة جهاز الإرسال . ثم شاءت المصادفات أيضا أن أتعرف بعد ذلك إلى هنرى جيد في البنسيون .. وان التحق بواسطته بقلم المخابرات البريطانى ، فاستطعت بذلك أن أقف على كثير من الأسرار الخطيرة . كنت أرسلها أولاً بأول إلى فولنجر.

ومضى على ذلك شهران ، دون أن أتلقى من فولنجر سوى خطاب واحد يشكرنى فيه على خدماتى ، وحوالات مالية على البنك العثمانى بالقاهرة باعتبارها عمولة لى كوكيل لمصانع الساعات السويسرية ..

وكان أن سعيت لدى زميلى وصديقى هنرى جيد حتى حصل لى من قلم المخابرات البريطانى فى القاهرة على تصريح بالسفر إلى تركيا . ثم أخبرت بذلك فولنجر . فكان فى انتظارى هناك بين المستقبلين الكثيرين فى المطار . فدس فى يدى ورقة صغيرة – دون أن يلحظ ذلك أحد – قابلته بمقتضاها فى مقهى «جمهوريت» فى مساء اليوم التالى . ثم توالت مقابلاتنا بعد ذلك حيث كنت أمده بكل تحركات هنرى . وبكل ما أستطيع معرفته من أسماء الأتراك الموالين للحلفاء ، بينما هو يعللنى ويمنينى بكلام معسول بأن مساعيه بشأن سفر زوجى قد أوشكت على النجاح ! .

وأخيرًا ، التقيت صدفة فى كباريه «ستوديو» حيث كنت على موعد مع هنرى بابن عم لزوجى .. فما كدت أسأله عنها حتى فاضت من عينيه الدموع

لوعة وحزنًا .. ثم صارحنى بأنها توفيت منذ أشهر ..

وهنا ضاقت الدنيا كلها فى عينى . ولم أطق الانتظار حتى يحضر هنرى . فخرجت مسرعًا إلى حيث قابلت فولنجر بالفندق الذى ينزل فيه . ولما أفضيت إليه بالنبأ المحزن . أخذ يعزينى بكلمات مقتضبة جافة . ويغرينى فى الوقت نفسه بسرقة الوثائق الخطيرة التى علم أنها فى حوزة زميلى هنرى .. قائلا: إن المستقبل العظيم ينتظرنى إذا نجحت فى هذه المهمة . وإنه كان يعلم بوفاة زوجى منذ مدة ، ولكنه كتم النبأ عنى حتى لا يزعجنى أو يحول حزنى عليها دون استمرارى فى معاونته ! .

ولم أملك أعصابى الثائرة لدى سماعى منه هذه الأقوال . ثم لم أشعر بنفسى بعد ذلك إلا وأنا جالس فى الغرفة وإلى جانبى فولنجر جثة هامدة ليس بها حراك ، ولا تزال يداى تضغطان على عنقه) .

بهذا انتهت اعترافات الجاسوس الألمانى ، وحسبما أشارت المصادر فقد حوكم «مانولى ميخاليدس» وقضت المحكمة العسكرية العليا فى تركيا بإعدامه رميًا بالرصاص .

لقد حاول المحامى اليونانى كوناليس باستونا الذى كان يدافع عنه إنقاذه من الإعدام ، وكم أكد على أن موكله لن يتم تنفيذ الحكم فيه على الإطلاق ، لسبب بسيط وهو أنه يونانى الأصل ، مصرى المولد ، عمل جاسوسا مزدوجًا لدولتين متحاربتين ، وضبط على أرض دولة ثالثة ، وقتل رجلاً ينتمى إلى جنسية رابعة ، و .... إلخ .

لكن نقاط الضعف التى عددها المحامى لم تشفع لموكله ، إذ اقتيد إلى ساحة الإعدام فى أكتوبر سنة ١٩٤١ ، وأطلق عليه فريق التنفيذ الرصاص بباحة السجن ، بعد أقل من نصف دقيقة أطلقت على رأسه رصاصتا الرحمة فمزقتا الجمجمة ونثرتا أجزاء من مخه. ! !

الفصل العاشر

فى الجزائر .. !!



« ولـد فـى بـاريس لأب فرنســى وأم جزائرية . وعندما انتحر والـده بعـد تعثرات مالية حادة ، عـاد ثانيـة إلى الجزائـر مـع أمـه . فعـانى الصـراع النفسى ما بين حيـاة بـاريس وحيـاة البؤس فى الجزائر ، إلى أن اصطادته المخـابرات الفرنسـية ودربتـه علــى فنون التجسس على الثوار.. !! »

جان شوشون لوروا
الجاسوس الضائع

كان شوشون لوروا شابًا فرنسيًا طموحًا ، عمل بالتجارة واهتم بشكل خاص بدول شمال أفريقيا . وعندما وقع فى حب فتاة جزائرية مسلمة اشترط أهلها لإتمام الزواج أن يشهر إسلامه أولاً ، ويشترى لها بيتا مستقلا فى مدينتها الجزائرية سكيكدة Skikda بالرغم من أنها ستصحبه إلى باريس . وعلى ذلك تمت تسوية كل هذه الأمور بشكل سريع ، واصطحب العريس عروسه إلى وطنه تغمره السعادة لفوزه بحبيبة القلب الجميلة التى ملكت فؤاده .

عاش شوشون وزوجته فى المسكن الذى أسسه بالقرب من قوس النصر[1] ، وبعد أقل من عام جاء مولودهما الأول .. جان .. ! !

انسلخت الزوجة المسلمة عن دينها وجذورها شيئًا فشيئًا ، بسبب إقامتها فى شارع واشنطن Rue de Washington الواصل بين شارعى الشانزليزيه وفريدلاند ، حيث حياة الليل فى باريس وصدور النساء العارية ، وممارسة الحب المكشوف على المسارح فى العديد من الملاهى التى تعد أغلى الأماكن وأكثرها تكلفة فى العالم .

لكل هذه الأسباب مجتمعة انخرطت الزوجة فى حياة اللهو والسهر . وشب ابنها الوحيد ناعمًا مدللاً متواكلاً ، لا يحمل هما أو يقيم وزنا لأى شئ حتى كانت الكارثة .

---

(١) قوس النصر Arc de triomphe : أكبر قوس نصر فى العالم ، ويعد ثالث معالم باريس العظيمة . (بعد برج إيفل وكاتدرائية نوتردام) . شيد قوس النصر البارون هوسمان Baron Haussmann عمدة باريس عام ١٨٠٦ بأوامر من نابليون لإحياء ذكرى انتصارات جيشه . غير أنه لم ينته العمل فيه إلا عام ١٨٣٦ . صمم القوس بحيث يبدو كنجم يخرج إشعاعه فى دائرة يخترقها اثنى عشر شارعًا ، أشهرها شارع الشانزليزيه . يبلغ ارتفاع القوس ٤٨,٦ مترا وعرضه ٤٤,١ مترا ، وحفرت عليه أسماء ١٢٨ معركة انتصر فيها نابليون ومعه ٦٠٠ من جنرالاته . وتحت القوس توجد شعلة فرنسا الخالدة التى لا تنطفئ . وفى أعلى القوس يوجد متحفا صغيرًا ، حيث يمكن الصعود إلى سطح القوس بواسطة سلم ومصعد للتمعن فى جمال باريس عن قرب .

فذات يوم من أيام عام ١٩٥٠ انتحر شوشون لوروا برصاصة أطلقها من فمه اخترقت جمجمته ، بينما كان جالسا على مقود سيارته قرب غابة بولونيا[1] Bois de Boulogne . وتبين أن سبب انتحاره أنه خسر كل ما كان يملكه من أموال وممتلكات عينية ، بما فيها شقة شارع واشنطن . ولم يكن أمام الزوجة عندئذ إلا أن تعود إلى الجزائر تجر أذيال الفقر والترمل والأسى. أما الابن المدلل فقد انطوى على نفسه مكتئبا شاردا وقد أخرسته الصدمة وأصابته في مقتل.

خمس سنوات مرت على جان في الجزائر ، تعلم خلالها اللغة العربية ونطق لسانه باللهجة المحلية بطلاقة ، وفي أكتوبر سنة ١٩٥٥ فاجأ والدته التي كانت قد تزوجت من آخر وأنجبت عندما قال لها :

– أريد السفر إلى فرنسا . إن فرص العمل في سكيكدة أو في العاصمة محدودة .. هذا بخلاف الأوضاع السياسية الغير مستقرة هنا .

تشبثت به الأم ترجوه ألا يعود إلى فرنسا ، فالعمل في حانوت خاله كان يؤمن له دخلا معقولا ، لكن الشاب ذي الاثنتين وعشرين عاما كان محملا بكراهية الوضع العام في الجزائر ، ونظرة الجزائريين من أقاربه وجيرانه له كفرنسي ، وإن كانت عائلته لأمه جزائرية معروفة . وغلبت حجته إلحاحات أمه في النهاية ، إذ وجد نفسه على سطح مركب في طريقه إلى فرنسا، يمني نفسه بظروف أحسن حالاً ، وفرصة عمل تدفعه لبر الأمان .

عاد جان إلى باريس حيث استأجر حجرة صغيرة بالحي اللاتيني[2] ، ساعيًا قدر مستطاعه للبحث عن عمل مناسب، حتى تمكن من شغل وظيفة كاتب حسابات بأحد محلات الجملة. لكن الراتب الضئيل لم يكن ليشفي

---

(١) غابة بولونيا : تقع عل الحافة الشمالية الغربية للمدينة على مساحة ٢٥٠٠ فدانا ، مليئة بالغابات والبحيرات والملاعب والساحات الرياضية والشلالات . وأيام سباق الخيل يشاهد روادها عروض الأزياء النسائية ايضًا . وتتصل الغابة بميدان قوس النصر بواسطة شارعين من بين الاثنى عشر شارعًا .

(٢) الحيي اللاتيني : هو ما يعرف على خريطة باريس بالحي الخامس ، الذى يضم جامعة باريس ومقر السوربون Sorbonne ، حيث البيوت والمطاعم والمقاهي الرخيصة وهو أحد الأحياء التي تكون قلب باريس النابض .

تطلعاته ، فهجر العمل إلى وظيفة أخرى بشركة ديكور ، سرعان ما طرد منها بسبب اختلاسه عشرون فرنكًا ، فتصيده رجل استخبارات فرنسي وجد فيه فرصة عظيمة للعمل ضد ثوار الجزائر .

كانت مكاشفة الشاب اليائس المحبط مثمرة جدا ، فالعائد المادى الذى سيتحصل عليه من عمله السرى يفوق راتبه لدى محل البقالة او شركة الديكور. ! ! وعلى الفور نال تدريبًا لاختراق تجمعات الجزائريين فى باريس ومرسيليا ، وكيفية جرهم بطرق الاستدراج المختلفة للبوح بما لديهم من أسرار اتصالاتهم بالثوار فى الجزائر ، وخطط ضرب القوات الفرنسية هناك .

وانطلق جان شوشون لوروا فى عمله اعتمادًا على أصله الجزائرى ، ولغته العربية ، وإلمامه بالعادات والتقاليد الجزائرية وشعائر الدين الإسلامى .

لم تواجه جان صعوبات تذكر فى اقتحام عالم الجاسوسية المثير الغامض المخيف ، فنشاطه بين الجزائريين فى فرنسا كان سهلا لا تعوقه موانع ، فاكتسب خبرة التعامل مع أبناء وطنه ، وطرق الاستدراج التى تساعد على انطلاق الألسنة . وكان للمكافآت الكبيرة التى تغدق عليه الدور الهام فى سعيه الدءوب للوصول إلى مزيد من أسرار الثوار وخططهم وتجمعاتهم . فكان نجاحه الباهر فى فرنسا مدعاة لأن يبعثوا به فى نوفمبر ١٩٥٧ إلى الجزائر ، يحمل خطابات توصية من قيادات جزائرية فى باريس إلى المجاهدين فى وهران والجزائر ، تشيد بوطنيته وثوريته .

هكذا انخرط الجاسوس الفرنسى فى العمل ضد المجاهدين الذين يطالبون بخروج المستعمر الفرنسى واستقلال الجزائر ، متخذين من الكفاح المسلح وضرب قواعد المحتل لإنزال أكبر الخسائر وسيلة للمقاومة وتحريك الرأى العام العالمى . لكن قبضته الاحتلال برغم الخسائر كانت تشتد قوة أو انتكاسا تبعا للظروف والمستجدات ، لكن المثير ان اختراق المقاومة بجيش من الجواسيس لم يكن يحبط من عزم المجاهدين، أو يدخل اليأس إلى عقولهم. لذلك فقد شكلوا جهاز أمن مهمته كشف هؤلاء الخونة وقطع دابرهم.

وفى ذات يوم قائظ من صيف عام ١٩٥٨ ، تصادف أن التقى جان بفتاة جزائرية حسناء شهية تدعى إيفون . فتعلق قلبه بها وقد نبض بالحب الأول مرددا اسمها . ومع تعدد مرات اللقاءات بينهما فى الجزائر العاصمة ، اكتشف أنه يحبها إلى درجة الوله ، ولم يعد بمقدوره الانفصال عنها أو فقدانها وإلا فسوف يموت حتمًا من الأسى .

هى أيضًا صارحته بأنها أحبته منذ اللحظة الأولى التى رأته يحملق فيها باندهاش ، وبدت إيفون تمثل منتهى البراءة الساحرة التى كان يبحث عنها ويطلبها .

بيد أنه لاحظ فى أحد اللقاءات بينهما ، أن عبارة عفوية أطلقتها الفتاة ثم أدركت فى الحال ما حدث فتملكها الذهول والهلع. وعندما رأته واجمًا لا يتكلم لهول المفاجأة ، بكت . بكت بكل ما تملكه من خوف وارتباك وضعف ، وصارحت فتاها بأنها فقيرة جدا واضطرت للعمل مع قوات الاحتلال الفرنسى ضد المجاهدين ، وأن كل مهمتها تنحصر فى نقل الرسائل إلى رجال المخابرات فقط من عملاء لا تعرفهم يتركون رسائلهم فى أماكن محددة .

ومع ذهول جان ودهشته ، لم يملك إلا أن احتواها واعدًا إياها بأنه لن يبلغ عنها ، ذلك لأنه يحبها لدرجة العشق ولا يريد قتلها على أيدى الثوار ، أولئك الذين يطاردون الخونة ، ويعقدون لهم محاكمات سريعة يواجهونهم فيها بأدلة خيانتهم ثم يحكمون بإعدامهم .

تواصلت علاقة جان بإيفون وتعمقت أكثر من ذى قبل ، لدرجة أنه وثق بفتاته ثقة عمياء ، وكاد فى أحيان كثيرة أن يصارحها بأنه هو الآخر عميل فرنسى ، لكنه كان يتوقف محجمًا عن الإفصاح عن شخصيته تخوفا من زلة لسانها التى كشفت مكنون سرها أمامه .

يقول كتاب Spies and traitors[1] الصادر عام ١٩٦٩ :

- إنه في مساء يوم من أيام يونيو سنة ١٩٥٩ ، جاءت الفتاة لزيارة حبيبها وهي بادية الرعب . إذ كانت تحمل بعض معلومات يجب ان تنقلها الى الرئاسة الفرنسية فورا ، فإن الثوار يعتزمون قذف بعض القنابل على دار للسينما وعلى فندق في مدينة الجزائر في تلك الليلة نفسها ، وهو ما سيؤدى الى سقوط العديد من الأبرياء .

كانت إيفون تقول ذلك وهي ترتجف خوفا ورعبا وتتلفت حولها هامسة في هلع :

- إنني أشعر بأن هناك من يتعقبني . اعرف أنهم يشكون في ، وأنه يجب على أن أترك الجزائر فورًا .

راحت تجهش بالبكاء وينتفض بدنها وهي تتشبث به ترجوه أن يساعدها . فأمسك جان بذراعها محاولا تهدئتها وهو يقول :

- أعطني الرسالة لأقوم بتوصيلها ... فأنا ايضًا اعمل مع الفرنسيين منذ سنوات. والآن .. أنا مطمئن إليك وأثق بك ثقة بلا حدود.

الاعتراف

سألته باندهاش :

- أتحاول أن تخدعني يا جان .. ؟ أو تظنني ساذجة لأصدقك .. ؟

قال في ثقة :

- ولماذا أخدعك يا حبيبتي .. حقيقة أنا أعمل مع المخابرات الفرنسية لكي اؤمن مستقبلي بعد أن مات والدى وتركني فقيرًا معدمًا . إن لى الحق في حياة آمنة. والآن منذ عرفتك ، وأنا أفكر في طلب الانتقال إلى باريس لكي نتزوج ونعمل هناك معًا .

(١) الكتاب بدون اسم مؤلف أو دار نشر . وهو قطع متوسط كتب عنوانه : (جواسيس وخونة) في ذيل صفحة الغلاف وعدد صفحاته ٩٦ صفحة .

قالت وهى تعانقة :

– حبيبى .. أصدقك . أكنت طوال هذه الفترة تفكر فى مستقبلنا دون أن تشركنى معك .. ؟

غمرها بحنانه وهو يردد :

– طريقنا واحد يا ايفون .. ويجب ان نكون معًا فى أى مكان .

أكدت عبارته قائلة :

– وفى أى موقع .. ! !

– وفى أى موقع .

ثم هتفت تحثه :

– الوقت يجرى والانفجارات ستتوالى .. سأختبئ هنا حتى تذهب إلى الرئاسة بهذه الرسالة وتعود إلىّ .

وأعطته ورقة أخفاها بسرعة داخل صديريته وهو يقول :

– انتظرينى هنا ولا تنظرى من النافذة أو تغادرى المنزل لأى سبب من الأسباب . سأذهب للرئاسة وسأعود دون إبطاء .

لكن عندما خرج من باب البيت أطبق عليه جمع من الثوار وأدخلوه إلى البيت من جديد وفتشوه حتى عثروا على الورقة الى كانت ايفون قد أعطتها له . ورفع جان عينيه إلى ايفون ولدهشته وجدها تبتسم له ابتسامة ساخرة ، ثم سمع صوتها تقول له بالفرنسية .

– حسنًا مسيو جان ، لقد أرهقتنى معك لشهور طويلة فشلت خلالها فى استخلاص اعتراف صريح منك بأنك جاسوس للفرنسيين . إذ كنا نشك فيك ولكننا لم نكن مطمئنين إلى هذا الشك مائة بالمائة . والآن قد انتهى كل شىء .. وظهر أخيرًا بأنك كنت الرجل الخائن الذى أفشل العديد من عملياتنا .. ونقل تحركاتنا إلى الأعداءأولا بأول.

أخذ جان شوشون لوروا إلى مكان سرى آمن حيث اعد له الثوار محاكمة

سريعة ، اعترف أثناءها بأنه قبل العمل لصالح المخابرات الفرنسية طمعا فى المال . لكنه لم يكن يبلغ قادته عن كل المعلومات التى كان يتحصل عليها .. تعاطفا مع الثوار ، مبديا استعداده لأن يعمل جاسوسا مزدوجًا تكفيرا عما ارتكبه بحق الجزائريين . إلا أن الثوار برغم العرض السخى لم يقبلوا التعامل معه ، فقد كان تاريخه التجسسى متخما بالخيانة والغدر والخسة ، بما يدعو إلى عدم الثقة به تحت أية ظروف . وفى النهاية .. حكمت محكمة الثورة على العميل الفرنسى بالإعدام رميًا بالرصاص .

وخلافًا لكل ما هو متبع فى مثل هذه الحالات ، اقتيد الجاسوس إلى أحد الحقول الكثيفة الاشجار ، حيث ربط جيدا إلى شجرة مانجو عتيقة ، وأطلقت عليه نيران المسدسات والرشاشات، فاخترقت الرصاصات جسده من أعلى ومن أسفل ، وكانت كلها تمثل رصاصة الرحمة التى أراحته من التفكير فى مزيد من الخيانة والتردى والهوان .

وفى فجر اليوم التالى تمهلت سيارة على مقربة من مركز القيادة الفرنسية ، وألقى منها بشئ على إفريز الطريق ثم واصلت السيارة اندفاعها مختفية عن الأنظار ، وكان هذا الشيء هو جثة جان شوشون لوروا .. ! !

كتب صدرت للمؤلف

١- أمينة المفتى .. أشهر جاسوسة عربية للموساد .
٢- جواسيس الموساد العرب .. قصة سقوط ٢٥ جاسوسا .
٣- العملية 007 .. وهروب أول طائرة حربية عربية لإسرائيل.
٤- أحمد الحلاق .. أول جاسوس أعدم فى لبنان .
٥- انشراح موسى .. أعدمها السادات فأعتقها بيجن .
٦- التاريخ السرى للصحاف .
٧- ماذا حدث فى بغداد . قصة الخيانة والسقوط .
٨- موسوعة أشهر المنتحرين فى العالم (مع آخرين)

كتب صدرت للمؤلف عن أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى

١- حراس الهيكل - الجزء الأول : الخطف .
٢ - حراس الهيكل - الجزء الثانى : الاغتيالات .
٣ - حراس الهيكل - الجزء الثالث : الفضائح .
٤ - قصتى مع الموساد .. مذكرات جاسوس الإسكندرية .
٥ - البكاء الصامت .. دراسة سيكولوجية عن دموع العظماء .
٦ - رصاصة الرحمة .. اللحظات الأخيرة فى حياة الجواسيس .
٧ - جاسوسات عاشقات .. خلدهن الحب وحقرهن التاريخ .

كتب تحت الطبع للمؤلف

١- سجينة كهف السعرانة .. مذكرات جاسوسة الموساد أمينة المفتى .
٢- نساء الجنس المقدس فى الموساد .
٣- سيكولوجية الجاسوس .. وتشريح مرض الخيانة .
٤- هكذا دفنوا أحياء .. جواسيس الوهم والجنس والثراء .
٥- جواسيس السلام فى مصر .. هدايا إسرائيل بعد كامب ديفيد .
٦- الشباك الناعمة .. نساء الجاسوسية والحب والانتحار .
٧- الخدع المخابراتية .. قصص واقعية كالخيال .
٨- جاسوس من جبل المغارة ..
٩- إغواء العالم .. رسالة الماسونية إلى كل البشر ..

تطلب جميع أعمال الكاتب

من

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى
ش.م.م.

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

المحتويات



أطلس
للنشر والإنتاج الإعلامى